تفسير

جزء عمّ

إعداد

سرحان بن غزاي العتيبي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى ، الحمد لله ملء سماواته ، وملء أراضيه ، وملء ما بينهما وملء ما شاء من شيءٍ بعد ، الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله وخيرته من خلقه وأمينه على وحيه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه واقتفى أثره واستن بسنته واهتدى بهديه إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً أما بعد

فلا شك أن كتاب الله هو أعظم كتابٍ فهو كلام الرحيم الرحمن ، وهو حبل الله المتين ، وصراطه المستقيم ، من اهتدى بهديه أفلح ونجا ، ومن تنكبه وضل عنه خاب وهوى في الردى ، وهو رسائل الله إلينا ، فينبغي أن نتدبره ونتفهم معانيه ونتعلم حكمه وأحكامه حتى نعمل بما أمرنا الله به فيه ، ونتجنب ما نهانا الله عنه ، ونتأدب بآدابه ، ونتخلق بأخلاقه كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن خُلق النبي صلى الله عليه وسلم قالت : كان خلقه القران . أي كان يتخلق بالقرآن فما يجد فيه من أمرٍ ينفذه ، وما يجد فيه من نهيٍ يجتنبه ، وما يجد فيه من حلالٍ يحله ، وما يجد فيه من حرامٍ يحرمه ، وما يجد فيه من أخلاق الأنبياء والصالحين يتخلق بها ، وما يجده فيه من أخلاق الأشقياء والكفار يتجنبها .

ولما كان أغلب الناس من العامة وغالب ما يقرؤون من القرآن هو جزء عم ، ولأنه يكثر قراءة هذا الجزء في الصلوات ونحوها ، أحببنا أن نبدأ بتفسير هذا الجزء من القرآن لهذا الأمر ولأمرٍ آخر وهو أن المفسرين يبدأون بتفسير أول القران فإذا كانت الأجزاء الأخيرة منه وخاصةً هذا الجزء (جزء عمَّ) تجدهم يقولون عند تفسير بعض آياته : تقدم بيان هذا المعنى في سورة كذا وكذا أو عند قوله تعالى كذا وكذا في أول القرآن فيختصرون تفسير هذا الجزء ولا يوفونه حقه من البيان والإيضاح ويحيلون القارئ على آياتٍ وسور في أول القرآن مع أن أكثر الناس يحتاجون بيان معاني هذا الجزء إذ هو الأكثر قراءةً عند العامة كما قدمنا ، ولذلك بدأنا بهذا الجزء سائلين المولى جل وعلا أن يلهمنا معرفة معاني وأسرار وحكم وأحكام هذا الكتاب العظيم وأن يفتح علينا من فتوحاته ويوفقنا لاختيار الصواب من المعاني إنه جواد كريم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وسلام على المرسلين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

تقسيم السور إلى مكي ومدني

سور القران تنقسم إلى سور مكية وسور مدنية فالمكي ما نزل قبل الهجرة ولو كان في غير مكة ، والمدني ما نزل بعد الهجرة ولو كان في مكة كآية المائدة ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ فإنها نزلت بعرفة في حجة الوداع ، وسورة براءة نزلت بتبوك ونحو ذلك .

ويتميز المكي بقصر الآيات ، وذكر قصص الأمم السابقة وما حل بهم ، وتقرير العقيدة ، وذكر شبه الكفار والرد عليها .

ويتميز المدني بطول الآيات ، وذكر الأحكام ، وذكر صفات المنافقين ، وذكر أخبار أهل الكتاب .

ومن فوائد معرفة المكي والمدني :

أولاً / معرفة الناسخ والمنسوخ فالمدني ينسخ المكي لأنه متأخرٌ عنه .

ثانياً / معرفة حال المدعو وطريقة دعوته فدعوة المشرك غير دعوة الكتابي والمنافق .

أحكام الاستعاذة

قال تعالى ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ سورة النحل أي إذا أردت قراءته كقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ من (٦) سورة المائدة أي إذا أردتم القيام ، وأكثر أهل العلم على أنها مستحبة وليست واجبة ، وروي عن عطاء أنها واجبة للأمر بها في الآية ولمواظبة النبي صلى الله عليه وسلم عليها .

معنى الاستعاذة

أعوذ بالله : أستجير وأعتصم بالله من شر كل ذي شر ومنهم الشيطان ، لأن الاستعاذة هي طلب اللجوء والعصمة من الأمر المخوف .

الشيطان / مشتقٌ من شَطُنَ إذا بَعُدَ فهو بعيدٌ بطبعه عن طباع البشر وبعيد عن كل خير ، وقيل مشتقٌ من شاط إذا احترق لأنه خلق من نار ، ورجح سيبويه الأول لأن العرب تقول تشيطن فلان ولا تقول تشيط . ولكن الأولى حمله على المعنيين لكونهما يصحان عليه .

الرجيم / المرجوم المطرود من رحمة الله .

قال في المصباح المنير : معنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، أي أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني ودنياي أو يصدني عن فعل ما أمرت به أو يحثني على فعل ما نهيت عنه . انتهى

صيغ الاستعاذة

أولاً / (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) لقوله تعالى ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ سورة النحل

ثانياً / (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم) لقوله تعالى ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ سورة الأعراف وقوله ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ سورة فصلت وينبغي أن لا يقول (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إنه هو السميع العليم) مع ضياع اللغة في الأزمنة المتأخرة خشية اللبس على الناس فيعتقد أحد منهم إن الضمير عائدٌ للشيطان الرجيم ولذلك لم يذكره الله جل وعلا في الآية إلا بعد اسمه الله ليقع الجزم أنه عائدٌ له جل وعلا فهو السميع لعبده العليم بحاله ونيته .

ثالثاً / (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه) وَفُسِّرَ الهمز بالمؤتة وهي الخنق ، والنفخ بالكبر والنفث بالشعر . ودليله ما جاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكبر قال (سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك ، ثم يقول : لا إله إلا الله ، ثلاثاً ، ثم يقول : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه) رواه أحمد وأصحاب السنن وصححه الألباني .

أنواع الاستعاذة

النوع الأول / استعاذة مطلقة من كل الشرور ، فلا تكون إلا بالله ، فمن استعاذ بغير الله ليقيه من كل الشرور فقد أشرك وجعل لله نداً من خلقه .

النوع الثاني / الاستعاذة فيما لا يقدر عليه إلا الله ، كالاستعاذة من العين والحسد والجآن ونحو ذلك ، فهذه أيضاً لا تكون إلا بالله كما قال تعالى ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾ سورة الجن

النوع الثالث / الاستعاذة بسببٍ لم يجعله الله سبباً لا حساً ولا شرعاً كالاستعاذة بالأموات والغائبين ، فهذا أيضاً شركٌ أكبر لأنه اعتقد أن لهؤلاء تصرفاً في الكون فكان مشركاً في الربوبية ، وهو أيضاً شركٌ في الألوهية ، لأن هذه الاستعاذة من الدعاء والدعاء عبادة وصرف العبادة لغير الله شرك في الألوهية .

النوع الرابع / الاستعاذة بما جعله الله سبباً حسياً أو شرعياً للعوذ كالاستعاذة بالحي فيما يقدر عليه ، والاستعاذة بالبيوت من حر الشمس ووابل المطر ، فهذه استعاذة بسبب حسي معلوم ، وكالاستعاذة من نار الآخرة بفعل الطاعات واجتناب المحرمات ، فهذه استعاذة بسبب شرعي صحيح .

أحكام البسملة

اختلف أهل العلم في البسملة فقيل هي آية من كل سورة عدا براءة وهو قول جماعة من الصحابة والتابعين وبه أخذ الشافعي وأحمد في رواية .

وقيل هي آية مستقلة تفتتح بها السور وهو رواية عن أحمد .

وقيل ليست بآية لا من الفاتحة ولا من غيرها وهو قول مالك وأبو حنيفة .

حكم الجهر بالبسملة في الصلاة

اختلف أهل العلم في ذلك على أقوال :

القول الأول / يجهر بها ، وهو قول جماعة من الصحابة والتابعين وأخذ به الشافعي لأنها آية من سورة الفاتحة ولأن أبا هريرة رضي الله عنه صلى فجهر بالبسملة وقال : إني لأشبهكم صلاةً برسول الله صلى الله عليه وسلم . رواه النسائي وعند البخاري أن أنس سُئِلَ عن قراءة النبي صلى الله عليه وسلم فقال : كانت قراءته مداً ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم . وعند أحمد وغيره عن أم سلمة قالت : كان يقطع قراءته ثم قرأت البسملة .

القول الثاني / يسر بها ، وهو قول جماعة من الصحابة والتابعين وأخذ به أحمد بن حنبل لما ورد عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتتح صلاته بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين . وفي الصحيحين عن أنس قال : صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان فكانوا يفتتحون بالحمد لله رب العالمين ولمسلم ولا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول القراءة ولا في آخرها .

القول الثالث / لا يقرأ بها مطلقاً وهو قول مالك واستدل بحديث أنس المتقدم .

القول الراجح / أنه يسر بها لأنه فعل النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه رضي الله عنهم كما في حديث أنس ، وإن جهر بها أحياناً فلا حرج ، وإن تركها أحياناً فلا حرج عند القائلين بعدم وجوبها .

حكم البسملة عند افتتاح السور

من قال أنها آية في أول كل سورة أوجب القراءة بها ، ومن قال أنها ليست بآية أو أنها آية مستقلة لم يوجب القراءة بها عند افتتاح السور .

وهي مستحبة بالإجماع وتستحب أيضاً في مواطن كعند الوضوء وعند دخول الخلاء وعند الأكل وغير ذلك وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يفتتح بها رسائله إلى الملوك والناس .

معنى البسملة

بسم الله / أي ابتدئ قراءتي أو عملي باسم الله تيمناً وتبركاً به جل وعلا .

الله / علم على الرب جل وعلا مشتق من الألوهية أي المألوه المعبود وحده دون من سواه .

الرحمن الرحيم / من أسماء الله الحسنى الدالة على كمال رحمة الله .

وقيل من الفروق بينهما ما يلي :

أولاً / الرحمن أعم فهي تشمل جميع الخلائق والرحيم خاصة بالمؤمنين .

ثانياً / الرحمن من الأسماء والصفات المختصة بالله ، والرحيم يوصف به غيره .

ثالثاً / الرحمن صفة ذات كالعلي ، والرحيم صفة فعل ، فهي القدر المتعدي من الرحمة .

تنبيه / العرب تعرف اسم الله الرحمن وإنكارهم له في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ من (٦٠) سورة الفرقان إنما هو من باب الكبر والمخاصمة ، ولكن الكذب صاحبه مفضوح ، ولذلك لما أرادوا أن يخاصموا الرسول صلى الله عليه وسلم في المشيئة قالوا كما أخبر الله عنهم ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ﴾ من (٢٠) سورة الزخرف وورد ذكر الرحمن كثيراً في أشعارهم .

من آثار رحمة الله :

أولاً / سخر لنا ما في السماوات وما في الأرض كما قال تعالى ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ سورة الجاثية

ثانياً / أرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، والهداية للدين ، وقبول التوبة ، كل ذلك من آثار رحمة الله بعباده .

ثالثاً / التكليف بما يطاق والعفو عما لا يطاق ، والعفو عن النسيان والخطأ .

رابعاً / ما جعله في قلوب الآباء والأمهات من أصناف المخلوقات تجاه أولادهم .

سورة النبأ مكية وآياتها (٤٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّـٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾ ﴾

تفسير سورة النبأ

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ ﴾ أي عن أي شيء يتساءل هؤلاء الكفرة على وجه التكذيب والعناد والاستكبار .

﴿ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ ﴾ أي الخبر العظيم . قال بن كثير : النبأ العظيم يعني الخبر الهائل المفظع الباهر قال قتادة وابن زيد النبأ العظيم البعث بعد الموت وقال مجاهد هو القرآن والأظهر الأول لقوله ﴿ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ يعني الناس فيه على قولين بين مؤمن به وكافر . انتهى . وقال الجزائري في أيسر التفاسير : النبأ العظيم ما جاءهم به محمد صلى الله عليه وسلم من التوحيد والنبوة والبعث . وقال في النهر الجاري : هو البعث بعد الموت إذ العرب فيه ما بين مصدق ومكذب ويدل عليه السياق . انتهى . ولا شك أن الناس مختلفين بين مصدقٍ ومكذب في كل ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن والتوحيد والنبوة والبعث .

﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ أي حقاً سيعلمون حين تنزع أرواحهم عند الموت وحين يبعثون وحين يشاهدون العذاب ويذوقونه أن ما جاءهم به رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾ تأكيد . قال العثيمين : الجملة الثانية توكيد للأولى من حيث المعنى وإن كانت ليست توكيداً باعتبار اصطلاح النحويين لأنه فصل بينها وبين التي قبلها بحرف العطف والتوكيد لا يفصل بينه وبين مؤكده بشيء من الحروف . انتهى . ويمكن أن يكون المعنى ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ حين الموت ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾ حين البعث . ولا شك أن الآيات سيقت للتهديد والوعيد الشديد للمكذبين .

ثم جعل تعالى يبين للناس شيئاً من مظاهر قدرته ونعمه عليهم أولاً ليعلموا أن الله القادر على هذه الأمور قادر على بعثهم بعد الموت ومحاسبتهم على أعمالهم ، وثانياً ليدركوا فضل ربهم عليهم وما أعطاهم من النعم فيشكروه ويعبدوه وحده دون من سواه . فقال تعالى ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ ﴾ أي ممهدة ومهيأةً لكم ولمصالحكم من الحروث والمساكن والسبل قاله السعدي ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ ﴾ أي مثبتات كالأوتاد للخيام تثبتها لئلا تميل وتسقط مع الرياح فكذلك الجبال جعلها الله مثبتاتٍ للأرض لئلا تضطرب ولا تميد ، وقد قال العلماء إن للجبال جذوراً في باطن الأرض أكبر مما نشاهده على ظاهرها .

﴿ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ ﴾ ذكراً وأنثى للتناسل والاستمتاع والأنس والطمأنينة كقوله تعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ سورة الروم وقوله ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ أي يستأنس ويطمئن ويستريح .

﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ ﴾ السبات السكون وقيل الراحة وقيل القطع وقيل التمدد أي للراحة والمعنى أن الله جعل النوم لراحة الأبدان وسكونها بعد عناء الأعمال ومشاغل الحياة , فالنوم يقطع التعب ويجدد النشاط .

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ ﴾ يستر الأرض والناس بظلمته كما يستر اللباس جسد لابسه ، وفي ذلك للناس من المصالح الشيء الكثير كقضاء الوطر والجلوس إلى بعض بعدما فرقهم النهار في طلب المعايش ومنها السكون والنوم والراحة وغير ذلك .

ولما ذكر الله جل وعلا الليل وظلمته وسكونه ذكر ما يقابله وهو النهار وضياءه وحركته فقال ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ ﴾ أي جعلناه نيراً تستطيعون فيه طلب أرزاقكم ومعايشكم .

﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ ﴾ أي السماوات السبع وقد وصفها الله بالشدة أي القوة والمتانة كقوله تعالى ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ سورة الذاريات وقد ورد في بعض الآثار أن سمك السماء الواحدة مسيرة خمسمائة عام .

﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ ﴾ أي جعلنا الشمس مضيئةً بنورها وقادةً بحرارتها تدفئكم في الشتاء وتنضج ثماركم في الصيف وتأخذون منها عظةً وعبرة تتذكرون بها حرارة النار في الآخرة .

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ ﴾ لما ذكر المولى جل وعلا الشمس وحرارتها ويبوستها على الأرض ذكر ما يقابل ذلك وهو الماء الذي يبرد الأرض ويرطبها فقال ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ ﴾ وهي الأعاصير والرياح وقيل السحب ورجحه الطبري والعثيمين لأنه قال ﴿ مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ ﴾ ولو كان المقصود الرياح لقال بالمعصرات فإن الماء لا ينزل من الرياح وإنما بسببها بخلاف السحب فإنه ينزل منها ، وسميت السحب معصرات لأنها تتحلب بالمطر ولما تمطر بعد كما يقال امرأة معصر إذا دنا حيضها ولم تحض نقله بن كثيرٍ عن الفراء . ﴿ مَآءً ثَجَّاجًا ﴾ أي متتابعاً كثير التدفق والصب . وأنكر الطبري أن يأتي الثج بمعنى الكثرة في كلام العرب وإنما بمعنى الصب والتتابع لحديث (أفضل الحج العج والثج) أي صب دماء البدن . ولكن اعترض عليه بن كثير بحديث

المستحاضة حين قال لها النبي صلى الله عليه وسلم أنعت لك الكرسف يعني القطن فقالت هو أكثر من ذلك إنما أثج ثجاً . وقال إن هذا يدل على أن الثج يستعمل في الصب الكثير المتتابع . وهو كذلك .

﴿ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ ﴾ الحب هو ما كان في كمام الزرع الذي يحصد كالقمح والشعير والبر ، والنبات الكلأ الذي يرعى من الحشيش والزروع وهو قول الطبري ونسبه الماوردي إلى الضحاك رحمه الله . وقيل الحب هو ما يدخر للناس والأنعام والنبات هو الخضر الذي يؤكل رطباً وهو قول بن كثير ، وقيل الحب ما يقتات به الناس ، والنبات ما تأكله البهائم وهو قول البغوي والشوكاني والسعدي والجزائري والتفسير الميسر للمجمع ، وقيل الحب ما يقتات به الناس ، والنبات ما يأكله الناس والأنعام وهو قول بن الجوزي ونسبه للجمهور ، وقيل المراد بالحب الحبوب بجميع أصنافها كالبر والشعير والذرة والمراد بالنبات الثمار بجميع أصنافها كالتين والعنب وهو قول العثيمين ، وقيل الحب ما بذره الناس والنبات ما لم يبذروه وهو احتمال ذكره الماوردي . وقيل الحب اللؤلؤ ، والنبات العشب ونسبه الماوردي إلى عكرمة رحمه الله . والأولى حمل المعنى على العموم إذ لا دليل على التخصيص فيشمل جميع الحبوب والنباتات الخضراء واليابسة سواءً ما يأكله الناس أو الدواب ومعلوم حساً وعادةً أن الناس يأكلون الحبوب كالبر والأرز والقمح والشعير ويأكلون النباتات الخضراء كالخس والكراث والبقدونس والجرجير , وكذلك الأنعام تأكل الحبوب كالشعير والذرة وتأكل النباتات الخضراء كالقت والزرع واليابسة كالتبن والحشيش . فتخصيصها بجنسٍ دون جنس أو نوعٍ دون نوعٍ لا دليل عليه .

﴿ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾ أي بساتين ملتفة من كثرتها وتقاربها تداخلت والتف بعضها على بعض وهذا يعطي جمالاً وحسناً وبهاءً لهذه البساتين . قال الطبري ﴿ وَجَنَّٰتٍ ﴾ المعنى ثمر جنات فترك ذكر الثمر استغناءً بدلالة الكلام عليه من ذكره . انتهى . وقال بن كثير ﴿ وَجَنَّٰتٍ ﴾ أي بساتين وحدائق من ثمراتٍ متنوعةٍ وألوانٍ مختلفةٍ وطعومٍ وروائح متفاوتة وإن كان ذلك في بقعةٍ واحدةٍ من الأرض مجتمعاً ولهذا قال ﴿ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾ قال بن عباسٍ وغيره ﴿ أَلْفَافًا ﴾ مجتمعة وهذه كقوله تعالى ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ سورة الرعد . انتهى .

واختلفوا في مفرد ﴿أَلْفَافًا﴾ فقيل واحدها لِفٌّ ولَفيف قال أبو إسحاق : ألفاف جمع لفيف كأنصار ونصير . وقيل لفاء وجمعها لُفٌّ وجمع الجمع ألفاف قال أبو العباس : لم نسمع شجرةً لَفَّة لكن واحدتها لفاء وجمعها لُف وجمع لِفٍ ألفاف مثل عِدٍ وأعداد . وأنكر الطبري أن يكون مفردها لفاء لأن اللفاء هي الغليظة . قال : وأهل التأويل مجمعون على أن معناه ملتفة وليس الالتفاف من الغلظ في شيء إلا أن يوجه إلى أنه غلظ الالتفاف فيكون ذلك حينئذٍ وجهاً . انتهى . وقال في لسان العرب : امرأة لفاء ملتفة الفخذين وفي الصحاح ضخمة الفخذين مكتنزة . انتهى . فتبين أن اللفاء هي الغليظة وليست المجتمعة ، ومعنى ﴿أَلْفَافًا﴾ عند المفسرين المجتمعة ، وعليه فإن القول الأول هو الصحيح وأن مفردها لف ولفيف .

﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ ﴾ من أسماء اليوم الآخر يوم الفصل لأن الله تعالى يفصل فيه بين خلقه بحكمه ﴿ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ ﴾ وقتاً ومجمعاً وموعداً يجمع الله فيه الأولين والآخرين للجزاء والحساب ، ووقوع ذلك اليوم محدد معلومٌ لله تعالى كما قال تعالى ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾ سورة هود أي أجل الدنيا ونهايتها فكما أن للناس آجالاً معلومةً لله تعالى لا يعلمها إلا هو فكذلك الدنيا لها أجل معلوم لا يعلمه إلا الله تعالى يوشك أن ينقضي أجلها سريعاً كما تنقضي آجال الناس سريعاً .

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾ وبداية أحداث يوم الفصل أن ينفخ الملك الموكل بالنفخ في الصور وهو إسرافيل عليه السلام في الصور وهي النفخة الثانية التي يكون فيها إحياء الموتى وبعثهم من قبورهم ، والنفخة الأولى يكون فيها موت الأحياء وتكون على شرار الخلق عذاباً لهم فيرون فيها أهوالاً ويموتون ، ثم النفخة الثانية للبعث ، فالأولى على الأحياء فيموتون ، والثانية على الأموات فيحيون ، وبينهما مدة ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (ما بين النفختين أربعون) قالوا : أربعون يوماً ؟ قال : أبيت . قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : أبيت . قالوا : أربعون سنة ؟ قال : أبيت . قال (ثم يُنْزِلُ الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل ، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة) متفق عليه ثم بعد النفخة الثانية يأتون للمكان الذي حدده الله ﴿ أَفْوَاجًا ﴾ أي جماعاتٍ متفرقة فوجاً إثر فوج وجماعةً أثر جماعة ، مع نبيها ، ومع ما كانت تعبد ، كما قال تعالى ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ﴾ سورة الإسراء من (٧١)

﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ ﴾ قيل المراد أنها تتشقق وتتقطع فتصبح كالخشب المقطع لأبواب الدور والمساكن ، ويكون معنى الآية وفتحت السماء فكانت قطعاً كالأبواب فلما أسقطت الكاف صارت الأبواب الخبر كما يقال كان عبد الله أسداً أي كالأسد قاله الطبري . وقال الألوسي : فسر الفتح بالشق لقوله تعالى ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ ﴾ سورة الانشقاق وقوله سبحانه ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ ﴾ سورة الانفطار إلى غير ذلك والقران يفسر بعضه بعضاً وجاء الفتح بهذا المعنى كفتح الجسور وما ضاهاها ولعل نكتة التعبير به عنه الإشارة إلى كمال قدرته تعالى حتى كان شق هذا الجرم العظيم كفتح الباب سهولةً وسرعة. انتهى من تفسيره . وقيل : معنى الآية وفتحت أبواب السماء فصارت كأن كلها أبواب . قلت : وهو أولى أن تحمل الآية على ظاهرها وأنها تفتح أبواب السماء وتترك مفتحةً يشاهدها الناس والخلائق بعد أن كانت أبوابها مغلقة وإن فتحت فلأشخاصٍ معينين في وقتٍ معين ، وفتح أبوابها بهذه الصورة بداية نهايتها ، ثم بعد ذلك تتشقق لقوله تعالى ﴿ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾ سورة الحاقة لأنها إذا تشققت فلا يُحتاج إلى فتح الأبواب ، ثم تنزل منها الملائكة كما قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ﴾ سورة الفرقان ثم يأتي ربنا جل وعلا لفصل القضاء كما قال تعالى ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَٰمِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ ﴾ سورة البقرة فتكون هذه مراحل للسماء في ذلك اليوم فأول ذلك فتح أبوابها ثم انفطارها وتشققها ونزول الملائكة الذين فيها منها ثم طيها وزوالها ونزول الرب جل وعلا والملائكة الذين عنده وهم حملة العرش ومن حول العرش الذين قال الله فيهم ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ ﴾ سورة غافر قال الرازي : ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ

فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾ المعنى كثرت أبوابها المفتحة لنزول الملائكة ، قال القاضي : وهذا الفتح هو معنى قوله ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ ﴾ ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ ﴾ إذ الفتح والتشقق والتفطر تتقارب ، وأقول ـــ الكلام للرازي ـــ هذا ليس بقوي لأن المفهوم من فتح الباب غير المفهوم من التشقق والتفطر فربما كانت السماء أبواباً ثم تفتح تلك الأبواب مع أنه لا يحصل في جرم السماء تشقق ولا تفطر بل الدلائل السمعية دلت على أن عند حصول فتح هذه الأبواب يحصل التشقق والتفطر والفناء بالكلية . فإن قيل : قوله ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾ يفيد أن السماء بكليتها تصير أبواباً فكيف يعقل ذلك ؟ قلنا فيه وجوه :

أحدها : أن تلك الأبواب لما كثرت جداً صارت كأنها ليست إلا أبواباً مفتحةً كقوله ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ أي كأن كلها صارت عيوناً تتفجر .

وثانيها : قال الواحدي : هذا من باب تقدير حذف المضاف والتقدير فكانت ذات أبواب ... الخ انتهى من مفاتيح الغيب للرازي وهو يؤيد ما ذكرنا .

﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠ ﴾ اجتثت من أصولها وأزيلت عن مواضعها وذُهِبَ بها حتى غدت كالسراب الذي لا حقيقة له وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ ﴾ من (٤٧) سورة الكهف وقوله ﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ ﴾ سورة الطور وقوله ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ ﴾ سورة التكوير وقوله ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ۝٨٨ ﴾ سورة النمل وذلك يكون يوم القيامة أن الجبال تُسَيَّرُ كما يُسَيَّرُ السحاب لكن لضخامتها يخيل للناظر إليها أنها جامدة كالسحاب العظيم يسير بسرعة لكن الناظر إليه يعتقد أنه جامدٌ في مكانه فكذلك الجبال ، ثم تُدَكُّ الجبال دكاً كما قال تعالى ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤ ﴾ سورة الحاقة فتتفتت كما في قوله تعالى ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ ﴾ سورة الواقعة قال الطبري : أي فتتت الجبال فتاً فكانت كالدقيق المبسوس وهو المبلول والبسيسة عند العرب الدقيق والسويق تلت وتتخذ زاداً . انتهى من تفسيره. ثم تكون بعد التفتيت رملاً سائلاً متناثراً كما في قوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٤ ﴾ سورة المزمل والكثيب الرمل والمهيل الذي إذا مسسته تتابع كما هو مرويٌ عن بن عباس ، ثم تضعف فتكون كالصوف أو القطن المندوف الذي شرع في الذهاب والتمزق كما قال تعالى ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ ﴾ سورة القارعة ويمكن أن يكون تسييرها بعد أن تكون كالعهن المنفوش فتطيرها الرياح وتسير بها ، ثم تتفتت أخرى وتكون كالهباء المنبث لقوله تعالى ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ ﴾ سورة الواقعة والهباء هو شعاع الشمس الذي يدخل من النافذة كهيئة الغبار ، والمنبث أي المتفرق ، ثم تكون كالسراب الذي ليس بشيءٍ ولذلك قال ﴿ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ يُرى من بعيدٍ كأنه جبل وليس بجبل وإنما سراب كالسراب الذي يظنه من يراه ماءً وليس بشيء فكذلك الجبال يجعل لها سراب كسراب الماء ثم تزال بالكلية فلا يبقى لها عينٌ ولا أثر ولذلك قال تعالى ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ ﴾ سورة المرسلات وقال تعالى ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧ ﴾ سورة طه قال القرطبي : قال ابن الاعرابي وغيره : يقلعها قلعاً من أصولها ثم يصيرها رملاً يسيل سيلاً ثم يصيرها كالصوف المنفوش تطيرها الرياح هكذا وهكذا . قال : ولا يكون العهن من

الصوف إلا المصبوغ ثم كالهباء المنثور . ﴿ فَيَذَرُهَا ﴾ أي يذر مواضعها ﴿ قَاعًا صَفْصَفًا ﴾ القاع الأرض الملساء لا نبات ولا بناء قاله ابن الاعرابي . وقال الجوهري : والقاع المستوي من الأرض والجمع أقوع وأقواع وقيعان صارت الواو ياء لكسر ما قبلها. وقال الفراء : القاع مستنقع الماء والصفصف القرعاء. الكلبي : هو الذي لا نبات فيه . وقيل : المستوي من الأرض كأنه على صفٍ واحد في استوائه قاله مجاهد . والمعنى واحد في القاع والصفصف ، فالقاع الموضع المنكشف ، والصفصف المستوي الأملس . انتهى من تفسيره . وهذا ما رأيناه في الجمع بين هذه الآيات التي تتكلم عن الجبال لأنا نؤمن أن القرآن لا يضطرب ولا يتناقض وإنما يبين بعضه بعضاً واختلاف الآيات في مصير الجبال في الآخرة يدل على أن ذلك يكون على مراحل وقد جمع بينها بعض العلماء فقال البغوي في تفسير قوله تعالى ﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ ﴾ سورة المعارج أول ما تتغير الجبال تصير رملاً مهيلاً ثم عهنًا منفوشًا ثم تصير هباءً منثورًا . انتهى من تفسيره . وذكر الفخر الرازي : أن أول أحوالها الاندكاك ثم تصير كالعهن المنفوش ثم تتقطع وتتبدد وتصير كالهباء ثم تنسف بإرسال الرياح عليها وترفعها الرياح عن وجه الأرض فتطيرها شعاعاً في الهواء كأنها غبار فمن نظر إليها من بعد حسبها لتكاثفها أجساما جامدة وهي في الحقيقة مارة إلا أن مرورها بسبب مرور الرياح بها صيرها مندكةً متفتتة ثم تصير سراباً بمعنى لا شيء ، فمن نظر إلى مواضعها لم يجد فيها شيئاً ،كما أن من يرى السراب من بعد إذا جاء الموضع الذي كان يراه فيه لم يجده شيئا والله أعلم . انتهى من تفسيره . وقال الشوكاني عند تفسير قوله تعالى ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾ نحوه ، وتقدم كلام بن الأعرابي في تفسير القرطبي . وقال الشنقيطي في أضواء البيان : واعلم أنه جل وعلا بيَّن الأحوال التي تصير إليها الجبال يوم القيامة في آياتٍ من كتابه فبيَّن أنه ينزعها من أماكنها ويحملها فيدكها دكاً وذلك في قوله ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ ﴾ سورة الحاقة ثم بيَّن أنه يسيرها في الهواء بين السماء والأرض وذلك في قوله ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ سورة النمل وقوله ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ ﴾ من (٤٧) سورة الكهف وقوله ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ ﴾ سورة التكوير وقوله ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾ سورة النبأ وقوله ﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ ﴾ سورة الطور ثم بيَّن أنه يفتتها ويدقها كقوله ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ ﴾ سورة الواقعة أي فتت حتى صارت كالبسيسة وهي دقيق ملتوت بسمنٍ أو نحوه على القول بذلك وقوله ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ ﴾ سورة الحاقة ثم بيَّن أنه يصيرها كالرمل المتهايل وكالعهن المنفوش ...ثم بيَّن أنها تصير كالهباء المنبث ... ثم بيَّن أنها تصير سراباً وذلك في قوله ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ وقد بيَّن في موضعٍ آخر أن السراب لا شيء وذلك قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ من (٣٩) سورة الحاقة وبيَّن أنه ينسفها نسفاً في قوله ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴾ سورة طه انتهى من تفسيره .

مسألة / في قوله تعالى ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ سورة النمل قال بعض العلماء أن هذا في الدنيا وممن قال ذلك بن عاشور في التحرير والتنوير حيث قال : الذي قاله جمهور المفسرين أن الآية حكت حادثاً يحصل يوم ينفخ في الصور ... إلى أن قال : وليس في كلام المفسرين شفاء لبيان اختصاص هذه الآية

بأن الرائي يحسب الجبال جامدة ، ولا بيان وجه تشبيه سيرها بسير السحاب ، ولا توجيه التذييل بقوله تعالى ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ فلذلك كان لهذه الآية وضع دقيق ، ومعنى بالتأمل خليق ، فوضعها أنها وقعت موقع الجملة المعترضة بين المجمل وبيانه من قوله ﴿ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ إلى قوله ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ سورة النمل بأن يكون من تخلل دليل على دقيق صنع الله تعالى في أثناء الإنذار والوعيد إدماجاً وجمعاً بين استدعاء للنظر وبين الزواجر والنذر كما صنع في جملة ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ ﴾ من (٨٦) سورة النمل أو هي معطوفة على جملة ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ ﴾ وجملة ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ﴾ من (٨٧) سورة النمل معترضة بينهما لمناسبة ما في الجملة المعطوف عليها من الإيماء إلى تمثيل الحياة بعد الموت ، ولكن هذا استدعاء لأهل العلم والحكمة لتتوجه أنظارهم إلى ما في الكون من دقائق الحكمة وبديع الصنعة . وهذا من العلم الذي أودع في القرآن ليكون معجزةً من الجانب العلمي يدركها أهل العلم ، كما كان معجزةً للبلغاء من جانبه النظمي كما قدمناه في الجهة الثانية من المقدمة العاشرة ، فإن الناس كانوا يحسبون أن الشمس تدور حول الأرض فينشأ من دورانها نظام الليل والنهار ويحسبون الأرض ساكنة . واهتدى بعض علماء اليونان أن الأرض هي التي تدور حول الشمس في كل يومٍ وليلة دورةً تتكون منها ظلمة نصف الكرة الأرضية تقريباً وضياء النصف الآخر وذلك ما يعبر عنه بالليل والنهار ، ولكنها كانت نظرية مرموقة بالنقد ، وإنما كان الدال عليها قاعدة أن الجرم الأصغر أولى بالتحرك حول الجرم الأكبر المرتبط بسيره وهي علة إقناعيه لأن الحركة مختلفة المدارات فلا مانع من أن يكون المتحرك الأصغر حول الأكبر في رأي العين وضبط الحساب وما تحققت هذه النظرية إلا في القرن السابع عشر بواسطة الرياضي "غاليلي" الإيطالي . والقرآن يدمج في ضمن دلائله الجمة وعقب دليل تكوين النور والظلمة دليلاً رمز إليه رمزاً فلم يتناوله المفسرون أو تسمع لهم ركزا . وإنما ناط دلالة تحرك الأرض بتحرك الجبال منها لأن الجبال هي الأجزاء النائئة من الكرة الأرضية فظهور تحرك ظلالها متناقصة قبل الزوال إلى منتهى نقصها ثم آخذة في الزيادة بعد الزوال . ومشاهدة تحرك تلك الظلال تحركاً يحاكي دبيب النمل أشد وضوحاً للراصد ، وكذلك ظهور تحرك قممها أمام قرص الشمس في الصباح والمساء أظهر مع كون الشمس ثابتةً في مقرها بحسب أرصاد البروج والأنوار . ولهذا الاعتبار غير أسلوب الاستدلال الذي في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ ﴾ فجعل هنا بطريق الخطاب ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ ﴾ والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم تعليماً له لمعنى يدرك هو كنهه ولذلك خص الخطاب به ولم يعمم كما عمم قوله ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ ﴾ في هذا الخطاب ، وادخار لعلماء أمته الذين يأتون في وقت ظهور هذه الحقيقة الدقيقة . فالنبي صلى الله عليه وسلم أطلعه الله على هذا السر العجيب في نظام الأرض كما أطلع إبراهيم عليه السلام على كيفية إحياء الموتى ، اختص الله رسوله صلى الله عليه وسلم بعلم ذلك في وقته وائتمنه على علمه بهذا السر العجيب في قرآنه ولم يأمره بتبليغه إذ لا يتعلق بعلمه للناس مصلحة حينئذ حتى إذا كشف العلم عنه من نقابه وجد أهل القرآن ذلك حقاً في كتابه فاستلوا سيف الحجة به وكان في قرابه . وهذا التأويل للآية هو الذي يساعد قوله ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ ﴾ المقتضي أن الرائي يراها في هيئة الساكنة وقوله ﴿ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ إذ هذا التأويل بمعنى الجامدة هو الذي يناسب حالة الجبال إذ لا تكون الجبال ذائبة . وقوله ﴿ وَهِىَ تَمُرُّ ﴾ الذي هو بمعنى السير ﴿ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ أي مراً واضحاً لكنه لا يبين من أول وهلة . وقوله بعد ذلك كله ﴿

صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ المقتضي أنه اعتبار بحالة نظامها المألوف لا بحالة انخرام النظام لأن خرم النظام لا يناسب وصفه بالصنع المتقن ولكنه يوصف بالأمر العظيم أو نحو ذلك من أحوال الآخرة التي لا تدخل تحت التصور. إلى آخر ما قال .

وقد أنكر الشنقيطي في أضواء البيان والعثيمين في تفسيره ذلك وعدوا ذلك من التقول على الله بغير علم فقال الشنقيطي :

قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً ويكون في الآية قرينة تدل على بطلان ذلك القول وذكرنا في ترجمته أيضاً أن من أنواع البيان التي تضمنها الاستدلال على المعنى بكونه هو الغالب في القران لأن غلبته فيه تدل على عدم خروجه من معنى الآية ومثلنا لجميع ذلك أمثلةً متعددة في هذا الكتاب المبارك والأمران المذكوران من أنواع البيان قد اشتملت عليهما معاً آية (النمل) هذه ، وإيضاح ذلك أن بعض الناس قد زعم أن قوله تعالى ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ يدل على أن الجبال الآن في دار الدنيا يحسبها رائيها جامدة أي واقفة ساكنة غير متحركة وهي تمر مر السحاب ونحوه قول النابغة يصف جيشاً :

بأرعن مثل الطود تحسب أنهم وقوفٌ لحاجٍ والركاب تهملج

والنوعان المذكوران من أنواع البيان يبينان عدم صحة هذا القول ، أما الأول منهما : وهو وجود القرينة الدالة على عدم صحته فهو أن قوله ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ ﴾ معطوفٌ على قوله ﴿ فَفَزِعَ ﴾وذلك المعطوف عليه مرتبٌ بالفاء على قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ أي ويوم ينفخ في الصور فيفزع من في السماوات وترى الجبال ، فدلت هذه القرينة القرآنية الواضحة على أن مرَّ الجبال مرَّ السحاب كائنٌ يوم ينفخ في الصور لا الآن . وأما الثاني : وهو كون هذا المعنى هو الغالب في القرآن فواضح لأن جميع الآيات التي فيها حركة الجبال كلها في يوم القيامة كقوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ ﴾ سورة الطور وقوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ من (٤٧) سورة الكهف وقوله ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾ سورة النبأ وقوله ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ ﴾ سورة التكوير وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ جاء نحوه في آياتٍ كثيرة كقوله تعالى ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ وقوله ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ وتسيير الجبال وإيجادها ونصبها قبل تسييرها كل ذلك صنعٌ متقن . انتهى من تفسيره .

وقال في دفع ايهام الاضطراب عن أي الكتاب : قوله تعالى ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ هذه الآية تدل بظاهرها على أن الجبال يظنها الرائي ساكنة وهي تسير ، وقد جاءت آياتٌ أخر تدل على أن الجبال راسية والراسي هو الثابت في محل كقوله تعالى ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ ﴾ سورة النازعات وقوله ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ من (١٥) سورة النحل وقوله ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ ﴾ من (١٩) سورة الحجر وقوله ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ ﴾ من (٢٧) سورة المرسلات

ووجه الجمع ظاهر وهو أن قوله ﴿ أَرْسَىٰهَا ﴾ ونحوه يعني في الدنيا ، وقوله ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ يعني في الآخرة بدليل قوله ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ ثم عطف على ذلك قوله ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ ﴾ ومما يدل على ذلك النصوص القرآنية على أن سير الجبال في يوم القيامة كقوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ وقوله ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾

وقال العثيمين : بعض الناس قال إنَّ هذه الآية في النمل يعني دوران الأرض ، وأنك ترى الجبال تظنها ثابتة ولكنها تسير وهذا غلط وقولٌ على الله تعالى بلا علم لأن سياق الآية يوم القيامة كما قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ سورة النمل والآية واضحة أنها يوم القيامة ، وأما زعم هذا الرجل القائل بذلك بأن يوم القيامة تكون الأمور حقائق وهنا يقول ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا ﴾ فلا حسبان في الآخرة ، فهذا غلطٌ أيضاً لأنه إذا كان الله أثبت هذا فيجب أن نؤمن به ، ثم إن الله عز وجل يقول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾ سورة الحج فإذا قلنا إن زلزلة الساعة هي قيامها ، فأثبت الله أن الناس يراهم الرائي ويظنهم سكارى وما هم بسكارى ، وعلى كل حالٍ هذه قاعدة ينبغي لنا أن نفهمها ، الواجب علينا أن نجري الآيات على ظاهرها وأن نعرف السياق لأنه يعين المعنى ، فكم من جملةٍ في سياق جملٍ أخرى لو كانت في غير هذا السياق لكان لها معنى ، ولكنها في هذا السياق يكون لها المعنى المناسب للسياق .

وقال أيضاً : هذه الآية هي في يوم القيامة ولا شك ، ومن فسرها بأن ذلك في الدنيا وأنه دليل على أن الأرض تدور فقد حرَّفَ الكلم عن مواضعه وقال على الله ما لا يعلم ، وتفسير القرآن ليس بالأمر الهين ، لأن تفسير القرآن يعني أنك تشهد على أن الله أراد به كذا وكذا فلا بد أن يكون هناك دليل إما من القران نفسه وإما من السنة وإما من تفسير الصحابة أما أن يحول الإنسان القرآن على المعنى الذي يراه بعقله أو برأيه فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار) والمهم أن هذا التفسير أعني أن قوله ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ يراد به في الدنيا تفسيرٌ باطل لا يجوز الاعتماد عليه ولا المعول عليه ، أما كون الأرض تدور أو لا تدور فهذا يُعلم من دليلٍ آخر إما بحسب الواقع وإما بالقرآن وإما بالسنة ولا يجوز أبداً أن نحمّل القرآن معاني لا يدل عليها من أجل أن يؤيد نظرية أو أمراً واقعاً لكنه لا يدل عليه اللفظ لأن هذا أمر خطير جدا . انتهى .

﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ ﴾ المرصاد هو المكان الذي يرصد الراصد فيه العدو ومعنى الآية أن جهنم ترصد الكفار أي تترقبهم وتنتظرهم ، وقيل ﴿ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾ أي معدةً لهم ، يقال : أرصدت له الشيء إذا أعددته له . والآية في سياق التخويف وقيل المرصاد الممر والطريق ، وعليه فإن الآية تشمل الكفار والمؤمنين فهي كقوله تعالى ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾ سورة مريم ولذلك كان الحسن إذا تلا هذه الآية ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾ قال : ألا إن على الباب الرصد فمن جاء بجوازٍ جاز ، ومن لم يجيء بجوازٍ احتبس . وقال قتادة : تعلمن أنه لا سبيل إلى الجنة حتى تقطع النار . ذكر ذلك الطبري في تفسيره .

﴿ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ ﴾ أي أن جهنم ﴿ لِّلطَّٰغِينَ ﴾ وهم الكفرة المتجاوزون لحدود الله تكذيباً وجحوداً واستكباراً على الله ﴿ مَـَٔابًا ﴾ مرجعاً ومنقلباً ومصيراً ومنزلاً ، ويمكن أن تشمل الآية الظلمة والفسقة من الموحدين لأن الطغيان مجاوزة الحد وهؤلاء قد تجاوزوا حدودهم ، غير أن الموحدين لا يخلدون في النار بخلاف الكفرة والمشركين فهم فيها خالدون .

﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ ﴾ أي ماكثين فيها أحقابا ، واختلف في مدة الحقب الواحد فقيل ثمانون سنة وقيل ثلاثمائة سنة وقيل سبعون ألف سنة ذكر ذلك الطبري وذكر أن قتادة والربيع بن أنس قد قالا : الأحقاب لا انقضاء لها ولا انقطاع .

مسألة : ذكر بعضهم أن هذه الآية دليل على فناء النار ، ومسألة فناء النار وهل يخلد فيها أهلها أبداً أم أنهم يمكثون فيها أحقاباً ثم يموتون وتفنى النار ، كثر فيها اللغط من المتأخرين ونُسِبَ القول فيها إلى شيخ الإسلام بن تيمية وتلميذه بن القيم والإمام محمد بن عبد الوهاب وغيرهم ، ولا شك أنه خطأ والقرآن يبين أن الكفار يخلدون في النار أبداً كقوله تعالى ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ سورة التوبة وقوله ﴿ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ سورة الزمر وقوله ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ ﴾ سورة التغابن وقوله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ ﴾ سورة البينة وقوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ ﴾ سورة الأحزاب وقوله ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ سورة الزخرف وقوله ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ سورة فصلت فلا يعارض القران بشيءٍ من أقاويل الناس مهما بلغوا من المنزلة . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال يا أهل الجنة هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون : نعم هذا الموت . ويقال يا أهل النار هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون : نعم هذا الموت . قال : فيؤمر به فيذبح . ثم يقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت) متفق عليه وقد ذكر الإمام بن حزم في الملل والنحل الاتفاق على أن لا فناء للجنة ولا للنار فقال : اتفقت فرق الأمة كلها على أن لا فناء للجنة ولا لنعيمها ، ولا للنار ولا لعذابها ، إلا الجهم بن صفوان . انتهى . وقال الطحاوي : والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان ولا تبيدان . انتهى . وقال أبو زرعة الرازي : والجنة حق والنار حق ، وهما مخلوقان لا يفنيان أبداً. انتهى . وقال البربهاري : وكل شيء مما أوجب الله عليه الفناء يفنى ، إلا الجنة والنار والعرش والكرسي والصور والقلم واللوح ليس يفنى شيء من هذا أبداً . انتهى . وقال ابن أبي زمنين : وأهل السنة يؤمنون بأن الجنة والنار لا يفنيان ولا يموت أهلوها... ولو لم يذكر الله تبارك وتعالى الخلود إلا في آية واحدة لكانت كافية لمن شرح الله صدره للإسلام ولكن ردد ذلك ليكون له الحجة البالغة

. انتهى . فهذه الأدلة من الكتاب والسنة والإجماع وأقوال علماء الأمة تدل على عدم فناء الجنة والنار . وأما الأدلة التي ذكرها القائلون بفناء النار فمنها هذه الآية ولا دليل لهم فيها فإنه كلما انتهى حقب دخل آخر أبد الآبدين كما ذكر ذلك الطبري عن قتادة والربيع بن أنس أنهما قالا : الأحقاب لا انقضاء لها ولا انقطاع . وقيل الأحقاب هذه للحميم والغساق فإذا انقضت تلك الأحقاب أَحْدَثَ لهم نوعاً آخر من العذاب كما قال تعالى ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ سورة ص ورجحه الطبري والشوكاني ومما استدلوا به أيضاً قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ سورة هود قالوا : فالاستثناء وتعليق الخلود على دوام السماوات والأرض يدل على الانقطاع فإن السماوات والأرض تفنيان ولذلك ذكر أن أهل الجنة عطاءهم غير مجذوذ أي غير منقطع حتى يبين أن الجنة لا تفنى ، بينما علق الخلود في النار على الفعل والمشيئة فدلَّ على أنه خلودٌ غير أبدي ، وأن النار تفنى كما تفنى السماوات والأرض . وهذا من أقوى الأدلة التي ذكروها غير أنه لا دليل لهم فيها فإن الله خاطب العرب بما يفهمون من لغتهم فإنهم كانوا يقولون : هذا دائمٌ دوام السماوات والأرض . إذا أرادوا التأبيد . ويقولون هو باقٍ ما بقي الليل والنهار أو ما اختلف الليل والنهار ونحو ذلك من العبارات التي يريدون منها بيان تأبيد الأمر ، فخاطبهم الله بما تعارفوه من لغتهم ، وقيل المراد ما دامت سماوات وأرض الآخرة وهي باقية ابداً كما قال تعالى ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ من (٤٨) سورة إبراهيم وأما تعليقه بالمشيئة فقيل المراد عصاة الموحدين يخرجهم الله من النار ولا يخلدون فيها فهم مع الأشقياء عند دخولهم النار ثم يتحولون مع السعداء عند دخولهم الجنة ، وقيل المراد المدد التي لا يكونون فيها في داخل النار وهي مدة الحياة الدنيا ومدة البرزخ ومدة الوقوف في عرصات القيامة فهي مستثناة من خلودهم فيها ، وقيل الاستثناء عائد على الزفير والشهيق فإذا شاء الله قطع عنهم هذا النوع من العذاب وأبدلهم بعذابٍ من نوعٍ آخر ، وقيل غير ذلك .

هذا وقد نسب القول بفناء النار إلى بعض الصحابة كعمر وبن مسعود وأبو هريرة وعبد الله بن عمرو وأبي أمامة الباهلي وبن عباس ولكن لا يصح من ذلك شيء عنهم ، وإن صح فيكون المراد نار العصاة من الموحدين والعلم عند الله . ومن أراد الاستزادة في هذا الموضوع فليراجع كتاب الصنعاني (رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار) بتعليق الألباني .

ومما قاله الصنعاني : قد عرفت أنهُ نقل عن ستةٍ من الصحابةِ عباراتٌ لا تدلُ على مدَّعاهُ وهو فناءُ النارِ بنوعٍ من الدلالاتِ كما أوضحناه ، ولا يصحُ نسبتهُ لتلك الدعوى إلى واحدٍ من أولئك الستةِ ، فلم يوجدْ لأحدٍ مما وجدنا عن واحدٍ من الصحابةِ أنه يقولُ بفناءِ النارِ كما أنهُ لا يوجدُ قائلٌ من الصحابةِ أنه يقولُ بعدمِ فناءِ النارِ فإن هذه المسألةَ وهي فناءُ النارِ لا تعرفُ في عصرِ الصحابةِ ، ولا دارت بينهم ، فليس نفي ولا إثباتٌ ، بل الذي عرفوهُ فيها هو ما في الكتابِ والسنةِ من خلودِ أهلِ النارِ أبداً ، وأن أهلها ليسوا منها بمخرجين ، وعرفوا ما ثبت من خروجِ عصاةِ الموحدين . انتهى .

وقال الألباني في تعليقهِ على الطحاويةِ : لم يثبت القولُ بفناءِ النارِ عن أحدٍ من السلفِ ، وإنما هي آثارٌ واهيةٌ لا تقومُ بها حجةٌ ، وبعضُ أحاديث موضوعة ، لو صحت لم تدل على الفناءِ المزعومِ ، وإنما على بقاءِ النارِ ، وخروجِ الموحدين منها وقد كنتُ

خرجتُ بعض ذلك في " الضعيفةِ " برقم (٦٠٦ ، ٧٠٧) . ثم وقفتُ على رسالةٍ مخطوطةٍ في مكتبةِ المكتبِ الإسلامي للعلامةِ الأميرِ الصنعاني في هذه المسألةِ الخطيرةِ ردَّ فيها على ابن القيمِ رحمهُ اللهُ ، فعلقتُ عليها وخرجتُ أحاديثهما وقدمتُ لها بمقدمةٍ ضافيةٍ . انتهى .

وهنا مناظرة لطيفة بين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي صاحب أضواء البيان وسماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتي الديار السعودية سابقاً

قال الشيخ أحمد بن محمد الأمين بن أحمد المختار الجكني الشنقيطي : لقد استدعى المسؤولون في السعودية الشيخين : شيخنا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ، والشيخ عبدالرحمن الإفريقي ، رحمة الله على الجميع ، للتدريس بالمعاهد والكليات السعودية وأُنزلا بدار الضيافة واستقبلهما المسؤولون بحفاوة وتكريم . وحدثني شيخي : أن يوماً من الأيام حضرت جماعة من الأساتذة المصريين للسلام عليهما , ودار بحث في المنطق بين هؤلاء وفضيلة الشيخ محمد الأمين يسألونه عن الفصل بالنسبة للإنسان فكان يقول : إذا قلنا الإنسان حيوان شاركه في هذا التعريف كل حيوان , وإذا قلنا هو حيوان منتصب القامة يمشي على قدمين عاري الجسد , كان بإمكان صاحب سفسطة أن يأخذ دجاجاً وينتف ريشه حتى يكون عاري الجسد , ويقول : هذا منتصب القامة يمشي على قدمين , وإذا قلنا هو الحيوان الضاحك شاركه القرد في ذلك , لكن إذا قلنا هو الحيوان الناطق اختص الإنسان بهذا الوصف , فهو الفصل بالنسبة إليه .كل ذلك البحث والشيخ عبد الرحمن ينتظر على مائدة الإفطار ! فقال لشيخنا : أليس يا شيخ بإمكاننا أن نقول الإنسان حيوان يأكل , فضحك الجميع .

ولقد أقبل المسؤولون على فضيلة الشيخ محمد الأمين بغاية التقدير والاحترام ، وكان هناك مصريٌّ حَضَريٌّ أزهري من أصحاب الشهادات المبرزة ، وكان قبل قدوم الشيخ يُعتبر كأنه كبيرُ المدرسين ولما رأى حفاوة المشايخ بفضيلة الشيخ دونه لعل ذلك أخذ بخاطره . ولا أظن إلا خيراً . فصار يتحين الفرص له .

أخبرني شيخي عليه رحمة الله قال : عندما كنت خارجاً من فصلٍ كنتُ فيه في درس تفسير ودخلتُ غرفة استراحة المدرسين وكان الشيخان : سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبداللطيف آل الشيخ وأخوه الشيخ عبداللطيف بن إبراهيم موجودين في غرفة استراحة المدرسين ، الأول مفتي الديار السعودية ، والثاني المدير العام للمعاهد والكليات ، فعندما دخلتُ غرفة الاستراحة ، إذا ذلك المصري يقول : يا شنقيطي سمعتك تقرر في الدرس أن النار أبدية ، وعذابها لا ينقطع ؟.قلتُ : نعم .

فقال: كيف تسمح لنفسك يا شنقيطي! أن تعلم أولاد المسلمين أن النار أبدية ، وعذابها لا ينقطع ، وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية والمجدد محمد بن عبد الوهاب يقرران أنها تخبو وينبت في قعرها الجرجير ؟؟.

قال الشيخ : وكنتُ آنذاك حديثَ عهدٍ بالصحراء أغضبُ إذا استغضبت ، فقلتُ له : يا مصري! من أخبرك أن الرسول الذي أرسل إليَّ ، ووجب عليَّ الإيمان بما جاء به اسمه محمد بن عبد الوهاب ؟ إن الرسول الذي أرسل إليَّ ووجب عليَّ الإيمان بما جاء به اسمه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، ولد بمكة ولم يولد بحريملا ، ودفن بالمدينة ولم يدفن بالدرعية وجاء بكتاب اسمه

القرآن ، والقرآن أحمله بين جنبيَّ ، وهو الذي يجب عليَّ الإيمان بما جاء به ؛ ولما تأملت آياته وجدتها مطبقةً على أن النار أبدية ، وأن عذابها لا ينقطع ، علمتُ ذلك لأولاد المسلمين لما ائتمنني وليُّ أمر المسلمين على تعليمهم أسمعتَ يا مصري ؟؟.قال : فقال سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم: سَمْ ؟! وهي بلهجة أهل نجد من مدلولها ما تقول ؟. فقال الشيخ الأمين : فقلتُ لهُ : ذاك إنسان يعي ما يقول!. قال : وكان (أي : ابن إبراهيم رحمه الله) رجلاً عاقلاً ، وقد علم أني مُحْتَدٌّ . فقال سماحته : أطال الله عمرك ، منك نستفيد . يعني أفدنا . قال الشيخ الأمين : إني قلت ما قلت بعد أن اطلعتُ على ما استدل به ابن القيم تقريراً لمذهب شيخه. لقد استدل بآية النبأ ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ٢٣ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ٢٤ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ٢٥ ﴾ وبآية ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧ ﴾

واستدل بأربعة أحاديث ثلاثة منها في غاية الضعف ، ولا يمكن الاحتجاج بها ، والرابع حديث طاووس عن عبد الله : يأتي على النار زمان تخفق أبوابها ، وينبت في قعرها الجرجير . وهو حسن السند صالح للاحتجاج به .

واستدل ببيت شعر هو قول الشاعر : لمخلف إيعادي ومنجز موعدي.....

قال: لا مانع من أن يكون ما يجمل عند العرب كله موجود في القرآن ، والعرب يجمل عندهم إخلاف الوعيد وإنجاز الوعد فلا مانع إذا من إخلاف وعيده لأهل النار بالخلود .

قال: وذكر ابن القيم سفسطةً للدهريين هي قولهم : إن الله أعدل من أن يعصيه العبد حقباً من الزمن فيعاقبه بالعذاب الأبدي قالوا : إن الإنصاف أن يعذبه قدر المدة التي عصاه فيها. وأنا أُجِلُّ ابن القيم عن أن يكون ذكر هذه السفسطة للاحتجاج بها وإنما ذكرها استطراداً .

فقال سماحته : أفدنا أطال الله في عمرك .

قال شيخنا : فقلتُ له : إني أصبحت وإياك على طرفي نقيض ، أنتم تمثلون طائفةً من المسلمين تقول بفناء النار وانقطاع عذابها ، وأنا أمثل طائفة من المسلمين تقول النار أبدية وعذابها لا ينقطع ، والله تعالى يقول﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩ ﴾ سورة النساء فقد أصبحنا يا سماحة الشيخ بمثابة المتناظرين ، ولا بد للمتناظرين من حَكَمٍ يُحكمانه بينهما يرجعان إليه لئلا يتسع الخلاف . قال سماحته : فماذا ترى أن نحكم بيننا ؟. قال شيخنا : أرى أن نحكم بيننا كتاب الله تلاوةً لا تأويلاً ، معناه أنه لا يقبل من أحدنا الاستدلال إلا بآية يشهد له منطوقها بدلالة المطابقة . قال سماحة الشيخ محمد : فقد حكمنا بيننا كتاب الله تلاوة لا تأويلا . فقال الشيخ الأمين : إذا شاء سماحتكم بحثنا هذه المسألة بالدليل الجَدَلي المعروف بالسبر والتقسيم والذي أتى به صاحب مراقي السعود . المسلك الرابع من مسالك العلة . حيث يقول :

والسبر والتقسيم قسم رابع ** أن يحصر الأوصاف فيه جامع

ويبطل الذي لها لا يصلح ** فما بقي تعيينه متضح

ومعنى البيتين : أن يجمع المتناظران أو المتناظرون الأوصاف التي يحتمل أن تكون مسألة النزاع متصفةً بها ، فإن اتفقا أو اتفقوا أنَّ أوصاف المسألة محصورة فيما جمعوا ، شرعوا في سبرها ، أي : في اختبارها ، أي: بعرضها واحدة بعد واحدة على المحكم فما رد منها المحكم وجب رده ، وما بقي تعيَّن الأخذ به.

فقال سماحة الشيخ محمد: وافقنا على بحث المسألة بالسبر والتقسيم .

قال شيخنا : قيدوا ما تتفقون عليه من احتمالات للمسألة لتتمكنوا من عرضها على المحكم واحدة بعد الأخرى ، فمثلاً : يحتمل: أن النار تخبو. ويحتمل : أنها تأكل من أُلقي فيها حتى لا يبقى من أهلها شيء . ويحتمل : أنهم يخرجون منها فراراً منها . ويحتمل : أنهم يموتون فيها ، والميت لا يحس ولا يتألم . ويحتمل : أنهم يتعودون حرَّها فلا يبق يؤلمهم . ويحتمل : أنه لا يقع شيء من ذلك كله ، وأنها أبدية وعذابها لا ينقطع . ولما اتفق الحضور على أنه لا يوجد احتمال بعد هذه الاحتمالات الستة المقيدة ، ابتدأوا بعرض الاحتمالات على المحكم . قالوا : يحتمل أنها تخبو ، فإذا المحكم يقول ﴿ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ من (٩٧) سورة الإسراء ومعلوم أن (كلما) أداة من أدوات التكرار بلا خلاف ، فلو قلت لغلامك : كلما جاءك زيد أعطه كذا من مالي ، فإذا منعه مرةً ظلمه بلا خلاف . وقالوا : يحتمل أنها تأكلهم حتى لم يبق منهم شيء ، فإذا المحكم يقول ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ من (٥٦) سورة النساء فلم يبق لهذا الاحتمال نصيب بموجب هذه الآية . وقالوا : يحتمل أنهم يخرجون منها هاربين ، فإذا المحكم يقول ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا ﴾ من (٢٠) سورة السجدة فلم يبق لهذا الاحتمال أيضاً نصيب من الاعتبار. وقالوا : يحتمل أنهم يموتون فيها والميت لا يحس ولا يتألم ، فإذا المحكم يقول ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ ﴾ سورة طه ويقول ﴿ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ من (١٧) سورة إبراهيم فلم يبق لهذا الاحتمال نصيب من الاعتبار. وقالوا : يحتمل أنهم يتعودون حرها فلم يبق يؤلمهم لتعودهم عليه ، فإذا المحكم يقول ﴿ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾ سورة النبأ ويقول ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ من (٦٥) سورة الفرقان والغرام : الملازم ، ومنه جاء تسمية الغريم ، ويقول المحكم ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ من (٧٧) سورة الفرقان فلم يبق لهذا الاحتمال أيضاً نصيب من الاعتبار. قال شيخنا : فلم يبق إلا الاحتمال السادس ، وهو أنها أبدية وعذابها لا ينقطع ، وقد جاء ذلك مبيناً في كتاب الله العزيز في خمسين موضعاً منه . فسردها لهم مرتبة بحسب ترتيب مصحف عثمان رضي الله عنه ، وكأنها جاءت مسرودة في صفحة واحدة . وعند ذلك قال سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم مفتي الديار السعودية : آمنا بالله وصدقنا بما جاء في كتاب الله . فقال شيخنا عليه رحمة الله : وعلينا أن نجيب عن أدلة ابن القيم ، وإلا تركنا المسلمين في حيرة ، ولنجيبنَّ عليها بالكتاب تلاوة لا تأويلا ، فنقول : أما آية النبأ فلا دليل فيها لما يريد الاستدلال بها عليه إذ غاية ما تفيده آية النبأ هذه هو: أن أهل النار يمكثون أحقاباً من الزمن في نوع من العذاب هو الحميم والغساق ، ثم ينتقلون منه إلى آخر بدليل قوله تعالى في (ص) ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ ومعلوم أن عذاب أهل النار أنواع ، وخير ما

يفسر به القرآن القرآن . وأما استدلاله ببيت الشعر فإن ما قاله يمكن اعتباره لولا أننا سمعنا الله تعالى يقول في كتابه : إن وعيده لأهل النار لا يخلف ، قال في (ق)﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾ وقال أيضاً في نفس السورة ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾

وأما سفسطة الدهريين التي ذكرها استطراداً ، فقد تولى الله تعالى الجواب عنها في محكم تنزيله ، وهو الذي يعلم المعدوم لو وجد كيف يكون ، وقد علم في سابق علمه أن الخُبث قد تأصل في أرومة هؤلاء الخبثاء بحيث إنهم لو عذبوا القدر من الزمن الذي عصوا الله فيه ، ثم عادوا إلى الدنيا لعادوا لما يستوجبون به العذاب ، لا يستطيعون غير ذلك ، قال تعالى في سورة الأنعام ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

فيبقى لدينا من أدلة ابن القيم آية هود ، وهي قوله تعالى﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ وحديث أبي داود وهو قوله صلى الله عليه وسلم (يأتي على النار زمان تخفق أبوابها ، وينبت في قعرها الجرجير) أو كما قال صلى الله عليه وسلم ، فإنهما دليلان صالحان للاحتجاج بهما ، فيجب علينا البحث والتنقيب عن وجه يمكن به الجمع بين الأدلة ، لأن إعمال الدليلين أولى من طرح أحدهما كما هو مقرر في فن الأصول ، قال في مراقي السعود:

والجمع واجب متى ما أمكنا ** إلا فللأخير نسخ بينا

إن عندنا أدلة على أن النار أبدية ولا ينقطع عذابها ، وهذه الآية التي من سورة هود وهذا الحديث الحسن دليلان يفيدان أن النار تفنى ، فما العمل؟.

والجواب : أننا نرى إمكان الجمع بين هذه الأدلة ، بحمل آية هود وحديث أبي داود على الدَّرك من النار المخصص لتطهير عصاة المسلمين ، فإنه يخرج منه آخر من بقلبه مثقال ذرة من إيمان ، ويخبو وتخفق أبوابه وينبت في قعره الجرجير ، أما دركات النار المعدة سجناً وعذاباً للكفار فهي أبدية وعذابها لا ينقطع . وهنا تنسج الأدلة الشرعية في بوتقة واحدة لا تعارض بينها ولا يكذب بعضها بعضا ، وبالله تعالى التوفيق ، وهو حسبنا ونعم الوكيل . فقال سماحة المفتي الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبداللطيف آل الشيخ : يا عبد اللطيف . يعني أخاه المدير العام للمعاهد والكليات . الرجوع إلى الحق أولى من التمادي في الباطل ، من الآن قرروا أن النار أبدية ، وأن عذابها لا ينقطع ، وأن تلك الأدلة المراد بها الدرك من النار المخصص لتطهير عصاة المسلمين . انتهى

﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ ﴾ لا يجدون في جهنم ما يتبردون به من حر جهنم ، ولا ما يشربونه من شدة العطش فيها فيبرد أجوافهم ثم استثنى ﴿ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ ﴾ الحميم ما انتهى حره وحموه كقوله تعالى ﴿ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ من (١٥) سورة محمد وقوله ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ من (٢٩) سورة الكهف والغساق

ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم ، فلا يزاد حرهم إلا حراً بالحميم ، ولا يسقون إلا النتن . كقوله تعالى ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ سورة الرحمن وقوله ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ ﴾ سورة ص وقيل البرد النوم قاله مجاهد والسدي والكسائي والفضل بن خالد وأبو معاذ النحوي نقله عنهم القرطبي في تفسيره فيكون معنى الآية لا يذوقون في النار النوم ولا الشراب . وقال الزجاج : لا يذوقون فيها برد ريحٍ ولا ظلٍ ولا نوم فجعل البرد برد كل شيء له راحة وهو البرد النافع بخلاف الزمهرير فليس لهم منه الراحة وإنما العذاب ، وهذا أولى فإن من القواعد المقررة في التفسير أن تحمل الآية على كل المعاني التي تحتملها إذا لم يكن بينها تضاد .

﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ ﴾ أي هذا الجزاء هو الموافق لأعمالهم الفاسدة التي كانوا يعملونها في الدنيا فلم نظلمهم شيئاً ، وإنما عملوا هذه الأعمال الخبيثة من الشرك فما دونه لأنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث والحساب ولذلك قال تعالى ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ ﴾ وأيضاً ﴿ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ ﴾ فلم يؤمنوا بالحجج والبينات التي جاءتهم لتدلهم على الحق وإنما قابلوها بالتكذيب والعناد ، ثم هددهم فقال ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ ﴾ كقوله تعالى ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ سورة الكهف فكل ما يعملون من خيرٍ أو شر مسجلٌ عليهم وسيحاسبون عليه ثم ختم ذلك بالتهديد الشديد فقال ﴿ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾ فليست آية أشد على أهل النار من هذه كما قال بعض السلف فهم في مزيدٍ من العذاب أبدا .

ولما ذكر حال الكفار والمكذبين وما هم فيه من الذلة والهوان ذكر حال المتقين فقال ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ ﴾ خلوصاً ونجاةً من الهلاك والعذاب في النار إلى الرحمة والمغفرة في الجنة ، وهكذا تتنوع الآيات بين ذكر حال المكذبين ومآلهم ، وذكر حال المتقين ومآلهم ، ليكون الإنسان بين الخوف والرجاء لا يأمن من مكر الله ولا يقنط من روح الله ، ثم أخذ يعدد ما في الجنة من النعيم تشويقاً إليها فقال ﴿ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ ﴾ الحدائق جمع حديقة والحديقة هي البساتين من النخيل والأعناب والأشجار المحوط عليها بحيطان محدقة بها قال ذلك الطبري في تفسيره وإنما خصَّ العنب بالذكر دون سائر الثمار لأنه كان من أغلى الثمار عند العرب الذين نزل عليهم القرآن فشوقهم إلى ما يحبون ﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ ﴾ الكواعب جمع كاعب وهي الناهد التي لم يتدلى ثديها لبكارتها وشبابها ﴿ أَتْرَابًا ﴾ أي في سنٍ واحدة .

﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ ﴾ أي مملوءة ومتتابعة لكثرتها وقيل صافية . قال القرطبي : والمراد بالكأس الخمر ، فالتقدير خمراً ذات دهاق أي عصرت وصفيت قاله القشيري . انتهى من تفسيره . وقال العثيمين : ربما يكون للخمر وغيره لأن الجنة ﴿ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ من (١٥) سورة محمد

﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ ﴾ لا يسمع أهل الجنة في الجنة لغواً وهو الكلام الباطل أو ما لا فائدة فيه ، ولا يسمعون كذباً بل لا يقال في الجنة إلا الصدق والكلام الطيب .

﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ ﴾ أي جازاهم الله بذلك تكرماً وتفضلاً منه فأعطاهم عطاءً كافياً ، تقول العرب : أعطاني فأحسبني أي كفاني ، وهذه الآية تدل على أن أهل الجنة لم يدخلوا الجنة بعملهم وإنما بفضل الله ورحمته وكرمه بهم وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (لن يُدْخِلَ أحداً عَمَلُهُ الجنة ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه بفضلٍ ورحمة) رواه البخاري ومسلم

﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ ﴾ لما قال ﴿ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ ﴾ وكان الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يبين أنه جل وعلا رب كل شيء فقال ﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي خالقهما وما فيهما ومالكهما والمتصرف فيهما وفي سكانهما ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من النجوم والكواكب والمجرات وغير ذلك ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ صاحب الرحمة المطلقة الشاملة لكل شيء ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ من عظمته وجبروته وسلطانه لا يستطيع أحدٌ أن يبدأه بالخطاب حتى يأذن له كقوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ من (١٠٥) سورة هود ولذلك قال ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ يعني يوم القيامة يوم يقوم الروح قيل هو جبريل عليه السلام وقيل ملكٌ آخر وقيل بني آدم وقيل أرواحهم قبل أن تدخل أجوافهم وقيل القرآن وقيل غير ذلك ، ولم أجد من قال عني به الأرواح كلها من الإنس والجن والطير والحيوان فإن الجميع يرغب أن يكلم الرب جل وعلا في ذلك الموقف ﴿ صَفًّا ﴾ أي صفوفاً ، صفاً بعد صف ﴿ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ﴾ أي لا يتكلم أحد حتى يأذن له ويقول قولاً صواباً وهو الحق .

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ﴾ أي ذلك اليوم حق واقع لا شك فيه ، وهو اليوم الذي يقوم فيه الحق والعدل بين الخلائق والجزاء والحساب ﴿ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ ﴾ فمن شاء النجاة في ذلك اليوم فليتخذ إلى ربه مرجعاً حسناً من الأعمال الصالحة التي تنجيه عند عوده إلى ربه كقوله تعالى ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ من (١١٠) سورة الكهف

﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ أي قد حذرناكم من عذاب يوم القيامة وهو قريب ولو حسبتموه بعيداً كقوله تعالى ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ ﴾ سورة المعارج ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ في ذلك اليوم ينظر الإنسان في صحيفة عمله فيجد فيها كل ما عمل من خيرٍ أو شر ماثلاً أمامه مسطراً فيها كقوله تعالى ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ وفي ذلك اليوم أيضاً ﴿ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾ ﴾ يتمنى أنه لم يكن شيئاً وأنه لا يقع عليه الحساب والعذاب ، وقيل إنه يقول ذلك عندما يرى الحيوانات يفصل فيما بينها ثم يُقال لها كوني تراباً فيتمنى أن لو كان مثلها .

من دروس سورة النبأ :

أولاً / أن البعث بعد الموت نبأٌ عظيم وخطبٌ جسيم ينبغي الاستعداد له بالأعمال الصالحة والبعد عن السيئات فإنه في ذلك اليوم سيجازى الناس بأعمالهم فيفرح المؤمن بالطاعة ويستاء بالمعصية كما قال تعالى ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾ من (٣٠) سورة آل عمران

ثانياً / أن نعم الله على عباده لا حصر لها وقد ذكر المولى جل وعلا في هذه السورة بعض نعمه على عباده ليشكروه ويحمدوه ويخلصوا له العبادة وحده لا شريك له ، وليعلموا أن الله تعالى القادر على هذه الأمور المشاهدة لهم قادرٌ على بعثهم بعد موتهم ومجازاتهم بأعمالهم .

ثالثاً / أن من أسماء يوم القيامة يوم الفصل لأن الله تعالى يفصل بين عباده بحكمه وهو الحكيم الخبير فيقضي للمظلوم على الظالم وينتصر له ويعاقب الظالم على ظلمه فينبغي الحذر من ظلم الناس في أنفسهم وأموالهم وأهليهم فإن الظلم عواقبه وخيمة في الدنيا والآخرة .

رابعاً / أنه لا فناء للجنة ولا للنار وأنهما باقيتان أبداً ، فيخلد المؤمنون في نعيم أبداً ، ويخلد الكفار والمشركون في عذابٍ أبداً وإنما يخرج عصاة الموحدين من النار بعد أن يعاقبوا فيها على الكبائر ، فينبغي الحذر من الكبائر فإن عقوبة الله لا تطاق .

سورة النازعات مكية وآياتها (٤٦)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾ ﴾

تفسير سورة النازعات

﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ ﴾ النازعات جمع نازعه من نزع ينزع نزعاً فهو نازعٌ ونازعه ، ومعناه جذب الشيء بقوةٍ من مقره . قال تعالى ﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ سورة القمر وقال تعالى ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ سورة الحجر وفي الحديث (لعله نزعه عرق) وقوله ﴿ غَرْقًا ﴾ من الاستغراق وهو الاستيعاب ، والمراد المبالغة في النزع وقد اختلف المفسرون في معنى هذه الآية على أقوالٍ كثيرة منها :

الأول : هي الملائكة تنزع أرواح الكفار بشدة ، وهو قول ابن مسعود ومسروق .

الثاني : هو الموت ينزع النفوس ، قاله مجاهد .

الثالث : هي النفوس حين تنزع فتغرق في الصدر ، قاله السدي .

الرابع : هي النجوم تنزع من أفقٍ إلى أفق ، تطلع ثم تغيب ، قاله الحسن وقتادة وابن كيسان .

والخامس : هي القسيّ تنزع بالسهم ، قاله عطاء وعكرمة .

السادس : هي الوحش تنزع من الكلأ وتنفر ، حكاه يحي بن سلام .

قال الطبري : والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال : إن الله تعالى ذكره أقسم بالنازعات غرقاً ، ولم يخصص نازعةً دون نازعةٍ ، فكلّ نازعةٍ غرقاً ، فداخلةٌ في قسمه ، ملكاً كان أو موتاً أو نجماً أو قوساً أو غير ذلك . والمعنى : والنازعات إغراقاً كما يغرق النازع في القوس . انتهى من تفسيره .

﴿ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢ ﴾ ناشطات جمع ناشطه من نشط ينشط نشطاً فهو ناشطٌ وناشطه وقد ذكر أهل العربية لكلمة نشط معانٍ كثيرة منها : الخفة والحل (والخروج والذهاب والمغادرة) والتحول والنزع والطعن وغير ذلك ، قال الفراء : إذا ربطت الحبل في يد البعير فقد نشطته ، فأنت ناشط ، وإذا حللته فقد أنشطته وأنت منشط . ولكن قد ورد في الحديث (كأنما نَشِطَ من عقال) أي حُلَّ من عقال وهو يعارض ما ذكره الفراء .

واختلفوا في معنى هذه الآية على أقوال عدة منها :

الأول / الملائكة تنشط نفس المؤمن ، أي تحل حلاً رفيقًا فتقبضها ، كما ينشط العقال من يد البعير ، قاله الفراء .

الثاني / هي نفس المؤمن تنشط للخروج عند الموت لما يرى من الكرامة لأنه تعرض عليه الجنة قبل أن يموت ، قاله بن عباس.

الثالث / هي الملائكة تنشط أرواح الكفار مما بين الجلد والأظفار حتى تخرجها من أفواههم بالكرب والغم ، وهو قول علي بن أبي طالب .

الرابع / هو الموت ينشط النفوس . وهو قول مجاهد .

الخامس / هي النفس تنشط من القدمين أي تجذب . وهو قول السدي .

السادس / هي النجوم تنشط من أفقٍ إلى أفق أي تذهب يقال: نشط من بلدٍ إلى بلد ، إذا خرج في سرعة . وهو قول قتادة .

السابع / هي الأوهاق : جمع وهق وهو حبلٌ يكون في طرفه أنشوطة يؤخذ بها الدابة والإنسان . وهو قول عطاء وعكرمة . والأنشوطة هي العقدة التي يسهل حلها قاله في القاموس المحيط .

قال الطبري : والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال : إن الله جل ثناؤه أقسم بالناشطات نشطاً وهي التي تنشط من موضعٍ إلى موضع فتذهب إليه ، ولم يخصص الله بذلك شيئاً دون شيء بل عم القسم بجميع الناشطات ، والملائكة تنشط من موضع إلى موضع ، وكذلك الموت ، وكذلك النجوم ، والأوهاق ، وبقر الوحش .... والهموم .... فكل ناشطٍ فداخلٌ فيما أقسم به إلا أن تقوم حجة يجب التسليم لها بأن المعنيّ بالقسم من ذلك بعض دون بعض .

﴿ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۝٣ ﴾ اختلف في معنى هذه الآية فقال بن مسعود : هي الملائكة ، وهو مرويٌ عن علي بن أبي طالبٍ ومجاهد وسعيد بن جبير وأبو صالح ذكره بن كثير ، أي تعوم بين السماء والأرض في تنفيذ أوامر الله وأقداره لأن السباحة تطلق على العوم ، والعوم يكون في الهواء كما يكون في الماء ، قال الجزائري : تسبح من السماء بأمر الله أي تنزل به إلى الأرض .

انتهى . ويمكن أن تطلق السباحة على السرعة كما يقال للفرس الجواد إنه لسابح إذا مرَّ مسرعاً ومرادهم أنها تسرع في تنفيذ أوامر الله ، أو تسرع بأرواح المؤمنين إلى لقاء الله جل وعلا ، وقال بن عباس ﴿ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ﴾ هي أرواح المؤمنين تسبح شوقاً إلى لقاء الله ورحمته حين تخرج ذكره القرطبي ، وقال الكلبي : هي الملائكة تقبض أرواح المؤمنين كالذي يسبح في الماء فأحياناً ينغمس وأحياناً يرتفع يسلونها سلاً رفيقاً بسهولةٍ ثم يدعونها تستريح . ذكره القرطبي . وقال قتادة والحسن هي النجوم تسبح في أفلاكها ، وقال عطاء هي السفن تسبح في الماء ، ولمجاهد في رواية أنه الموت يسبح في أنفس بني آدم . وقيل هي الخيل الغزاة وأنشدوا قول عنترة :

والخيل تعلم حين تسبح في حياض الموت سبحاً

وقول امرئ القيس :

مسح إذا ما السابحات على الونى أثرن غباراً بالكديد المركل

قال بن القيم : الصحيح أنها الملائكة ، والسياق يدل عليه ، وأما السفن والنجوم فإنما تسمى جارية وجواري كما قال تعالى﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٣٢﴾ ﴾ سورة الشورى وقال تعالى ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ﴿١١﴾ ﴾ سورة الحاقة وقال تعالى ﴿ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ ﴾ سورة التكوير ولم يسمها سابحات وإن أطلق عليها فعل السباحة كقوله ﴿ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ من (٤٠) سورة يس ويدل عليه ذكره السابقات بعدها والمدبرات بالفاء وذكره الثلاثة الأول بالواو لأن السبق والتدبير مسبب عن المذكور قبله فإنها نزعت ونشطت وسبحت فسبقت إلى ما أمرت به فدبرته ولو كانت السابحات هي السفن أو النجوم أو النفوس الآدمية لما عطف عليها فعل السبق والتدبير بالفاء فتأمله . انتهى من تفسيره . وهذا القول وهو أن المراد الملائكة عليه أكثر المفسرين ورجحه من المتأخرين السعدي والجزائري وبن عثيمين وغيرهم ، بينما يرى الطبري رحمه الله العموم فيقول : والصواب من القول في ذلك عندي أن الله جل ثناؤه أقسم بالسابحات سبحاً من خلقه ولم يخصص في ذلك بعضاً دون بعض فذلك كل سابح . انتهى . ويرجح قوله قواعد التفسير المعتبرة أن الآية تحمل على كل المعاني التي تحتملها ما لم يرد دليل على التخصيص بمعنىً دون آخر ، فإن قيل فسياق الآيات يدل على التخصيص بالملائكة ، فيمكن أن يعترض معترض فيقول سياق الآيات يدل على أنها النجوم ، ويقول الآخر على الموت وهكذا فيكون المرجع إلى القواعد المعتبرة شرعاً .

﴿ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ﴿٤﴾ ﴾ روي عن علي ومجاهد ومسروق وأبو صالح والحسن أنها الملائكة تتسابق بأرواح المؤمنين إلى الجنة وقيل تسبق ابن آدم بالعمل الصالح . وعن بن مسعود أنها أرواح المؤمنين تسبق إلى الملائكة الذين يقبضونها شوقاً إلى لقاء الله وكرامته وقد عاينت السرور ، وعن مجاهد أيضاً أنها الموت وعن عطاء أنها الخيل تتسابق في سبيل الله وعن قتادة أنها النجوم تسبق بعضها بعضاً في السير ذكر ذلك بن جرير وبن كثير والبغوي والراجح أنها تشمل ذلك كله كما تقدم .

﴿ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ﴿٥﴾ ﴾ قال علي ومجاهد وعطاء وأبو صالح والحسن وقتادة والربيع بن أنس هي الملائكة زاد الحسن تدبر الأمر من السماء إلى الأرض ذكره بن كثير وقال لم يختلفوا في هذا ، وقال القرطبي : أجمعوا على أن المراد الملائكة . قلت وهذا يؤيد قول

بن القيم أن المراد في كلٍ الملائكة بدليل السياق ، لكن قد ذكر الماوردي قولاً آخر أنها الكواكب السبعة قال حكاه خالد بن معدان عن معاذ بن جبل وتدبيرها طلوعها وأفولها وقيل ما قضاه الله فيها من تقلب الأحوال . قلت : ولا شك أن هذا قول شاذ فإن الكواكب والنجوم لا تدبر شيئاً ولا ينسب إليها شيء بخلاف الملائكة فإنهم يدبرون ما أمروا به من أمر الله جل وعلا إليهم فمنهم الموكل بالوحي وهو جبريل عليه السلام ومنهم الموكل بالقطر وهو ميكائيل عليه السلام ومنهم الموكل بالنفخ في الصور وهو إسرافيل عليه السلام وهكذا ملك الجبال وملك الموت وغيرهم والعلم عند الله تعالى .

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ ﴾ النفخة الأولى سميت بالراجفة لأنه يضطرب ويتزلزل ويتحرك منها كل شيء .

﴿ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ ﴾ النفخة الثانية تتبع الأولى وتكون في إثرها كالراكب خلف الراكب والشيء يتبع الشيء يقال رديف له وبينهما أربعون فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما بين النفختين أربعون) قيل لأبي هريرة : أربعون يوماً قال أبيت ، قالوا أربعون شهراً قال أبيت ، قالوا أربعون سنة قال أبيت (ثم ينزل الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل) قال (وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة) متفق عليه قال قتادة : ذُكِرَ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (بينهما أربعون) ما زادهم على ذلك ولا سألوه وكانوا يرون أنها أربعون سنة . ذكره الماوردي . فالأولى نفخة الصعق وهو الموت ، والثانية نفخة البعث بعد الموت . وقيل إنها ثلاث نفخات : نفخة الفزع ودليلها قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ سورة النمل ونفخة الصعق ودليلها قوله تعالى ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ سورة الزمر ونفخة البعث والقيام وورد في ذلك حديث لكنه ضعيف لا تقوم به حجة ولا يعتمد عليه كما قال الغنيمان في شرحه للعقيدة الواسطية وقاله أيضاً الشيخ صالح آل الشيخ في شرحه للواسطية لكنه ذكر أن شيخ الإسلام بن تيمية وبن القيم وجماعةً من المحققين رجحوا أنها ثلاث نفخات وذكر الغنيمان أنه قول بن كثير ، ومن قال أنهما نفختان لا ثالث لهما قال نفخة الفزع والصعق واحدة طويلة أولها فزع وآخرها صعق كما قال تعالى ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ ﴾ سورة ص وجاء في الحديث الصحيح الطويل في خبر القيامة وفيه (ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً قال وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله قال فيصعق ويصعق الناس) وفي الحديث المتفق عليه (ما بين النفختين أربعون) فذكرهما بالتثنية ولو كانت النفخات أكثر من اثنتين لقال ما بين نفخة كذا وكذا فإنه مطلوبٌ من النبي صلى الله عليه وسلم البيان .

﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ ﴾ خائفة قلقة مضطربة ﴿ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ ﴾ ذليلة من شدة الخوف والرعب مما عاينت من الأهوال والشدائد في ذلك اليوم كقوله تعالى ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ من (٤٥) سورة الشورى

﴿ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ ﴾ يقول المكذبون بالبعث ﴿ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ﴾ أي راجعون إلى الحافرة أي الأرض سميت بذلك لأنها مستقر الحوافر أي الأرجل التي تحفر الأرض فتتبين آثارها فيها أي نرجع إلى الأرض التي كنا نمشي عليها أو يريدون التي تمشي عليها ذوات الحوافر من الخيل والبغال والحمير وغيرها ، وقيل المراد وجه الأرض التي تحفر فيها قبورهم سميت حافرة بمعنى محفورة ، وقيل الحافرة اسم لابتداء الشيء والعرب تقول رجع فلانٌ من حافرته أي من حيث جاء . وأنشدوا قول بن الأعرابي : أحافرةً على صلعٍ وشيبٍ معاذ الله من سفهٍ وعار

يقول : أأرجع إلى ما كنت عليه في أول شبابي من الغزل والصبا بعد أن شبت وصلعت .

﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ ﴾ أي بالية متفتتة ، يقال نَخِرَ العظم أي بلي وتفتت ، يقولون ذلك مستبعدين أن تعاد عظامهم إلى ما كانت عليه من الصلابة بعد التفتت والبلى وما علموا أن ذلك سهلٌ يسيرٌ على الله جل وعلا الذي خلقهم من عدم . وقد ورد عن بن عباسٍ أن العاص بن وائل جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعظمٍ حائلٍ ففتته وقال : يا محمد أيبعث الله هذا بعدما أرم ؟ قال : نعم يبعث الله هذا ، يميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم . رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي .

﴿ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾ أي رجعة خائبة لأنهم يعلمون أنهم إن رجعوا حقاً فسيكون مصيرهم النار وهو كذلك .

﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ ﴾ أي صيحة واحدة وهي النفخة في الصور نفخة البعث .

﴿ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ ﴾ أي الأرض أي صاروا على وجهها بعد أن كانوا في جوفها ، والعرب تسمي الفلاة ووجه الأرض ساهرة ، والمراد أرض القيامة التي لا نوم فيها .

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ ﴾ أي هل جاءك خبر موسى عليه السلام ﴿ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ﴾ أي كلمه ربه عند وادي طوى المقدس أي المطهر فقال له حين كلمه ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ تجاوز الحد وعتا وتمرد على الله جل وعلا ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ أي هل لك إلى طريقٍ تطهر به نفسك وترفعها وهو طريق الإسلام ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ فأدلك وأرشدك إلى عبادة الله وحده لتخشاه فيلين قلبك وتخضع وتطيع . ﴿ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ فجاءه بالحجة والدليل الواضح على صدق ما جاء به ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ فكذب بالحق وعصى الأوامر الربانية ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾ لم يكتف بالتكذيب والعصيان بل سعى في إبطال الحق كجمعه للسحرة وقتله لبني إسرائيل وإرادة قتل موسى عليه السلام وغير ذلك ، ثم زاد تمرداً وعتواً ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ ﴾ جمع الناس ونادى فيهم ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ فادعى الربوبية فعاقبه الله جل وعلا ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ ﴾ فعاقبه الله ونكل به في الدنيا بالغرق وفي الآخرة بالحرق ، وقيل الأولى تكذيبه وعصيانه والآخرة ادعاءه الربوبية ، وقيل الأولى ادعاءه الألوهية والثاني ادعاءه الربوبية ، وقيل غير ذلك .

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾ أي ما حدث لفرعون من التنكيل عبرة وعظة لمن يخاف الله ويخشى عقابه في الدنيا والآخرة.

﴿ ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٣﴾ ﴾ هذه الآيات سيقت في تقرير البعث والجزاء فإن الله جل وعلا الذي خلق هذه الأجرام العظيمة من السماوات والأرض وما أودع فيهما وبينهما من المخلوقات العظيمة من الكواكب والمجرات والنجوم والنور والظلمة والجبال والبحار والشجر والدواب وغير ذلك من المخلوقات التي يتعاظمها الناس ويرون أنهم لا يقارنون بحجمها وقوتها أبداً فالذي خلقها بهذا الحجم وهذه القوة قادرٌ على إعادة خلق الإنسان بعد موته وهذا دليلٌ عقليٌ على البعث لمن ينكر الأدلة النقلية وقد تكرر في القران نحو هذا كقوله تعالى ﴿ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ سورة غافر وقوله ﴿ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ سورة يس وقوله تعالى ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡۦِيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٣٣﴾ ﴾ سورة الأحقاف

فيقول الله جل وعلا لمنكري البعث ﴿ ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ ﴾ هل ترون في تقديركم بعقولكم أن خلقكم بعد الموت أشد على الله أم خلق السماء ، سؤالٌ تقريعٍ وتوبيخ لا سؤال استفسار فإنه متضمنٌ للجواب ، فإنهم لاشك سيقولون خلق السماء أشد ، فالجواب أن الله جل وعلا الذي خلق السماء وبناها قادرٌ على إعادة خلقكم مرةً أخرى للبعث والجزاء . ثم بيَّن الله جل وعلا كيفية خلق السماء ووجوه الإعجاز في خلقها فمن ذلك أولاً في بنائها فهي سقف الأرض وهي على اتساعها وعظمتها مبنية بلا أعمدة ولا يستطيع مخلوقٌ مهما بلغ من القوة والعظمة أن يبني بناءً سميكاً متسعاً بلا أعمدة .

﴿ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ ﴾ السَمْك في اللغة يدل على العلو والارتفاع ، ويمكن أن يدل على الغلظ والثخانة ، ومن معانيه أيضاً السقف يقال سَمْكُ البيت أي سقفه ، واختلف أهل التفسير في معنى الآية لاختلاف المعنى اللغوي فعند بن جرير وبن كثير : رفع بناءها . فجعلوه للعلو والارتفاع . وعند القرطبي والبغوي : رفع سقفها . فجعلوا السمك السقف . وقال بن جزي : السمك غلظ السماء وهو الارتفاع الذي بين سطح السماء الأسفل الذي يلينا وسطحها الأعلى الذي يلي ما فوقها ومعنى رفعه أنه جعله مسيرة خمسمائة عام . وقيل السمك : السقف . انتهى من تفسيره التسهيل لعلوم التنزيل . ففسر السمك بالثخانة والغلظ . وقال صديق حسن خان : رفع سمكها أي أعلاه وهذا بيانٌ للبناء أو جعل مقدار ذهابها وارتفاعها في سمت العلو رفيعاً مسيرة خمسمائة عام ... إلى أن قال : قال البغوي رفع سمكها أي سقفها ولينظر ما المراد بسقفها ويمكن أن يقال سقف كل سماء هو السماء التي فوقها كما أن السماء الدنيا سقف للأرض . انتهى من تفسيره فتح البيان . قلت : ومن قواعد التفسير المعتبرة حمل الآية على كل المعاني التي تحتملها ما لم يكن بينها تضاد ولا تضاد هاهنا فطريقة بنيانها أنها جُعِلت سقفاً للأرض بلا أعمدة مع علوها وارتفاعها وغلظها وثخانتها .

وقوله ﴿ فَسَوَّىٰهَا ﴾ أي جعلها مستوية تامة الخلقة معتدلة الشكل لا تفاوت فيها ولا اعوجاج ولا فطور ولا شقوق .

﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ ﴾ أي جعل ليل السماء مظلماً ونهارها ظاهراً نيراً ، والغطش الظلمة ، والخروج البروز والظهور ، والضحى الضوء أو الوقت المعروف من طلوع الشمس إلى أن تكون في كبد السماء ، وعبر به عن النهار لأنه أغلب النهار ويعبر عن الشيء بأغلب ما فيه ، وإنما أضيف الليل والضحى إلى السماء لأن طلوع الشمس الذي يكون فيه النهار وغروبها الذي يكون فيه الليل يكون في السماء فأضيف إليها كما يقال نجوم الليل لأن في الليل طلوع النجوم وغروبها.

﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ ﴾ بسطها وهيأها لأهلها . وقيل قد بيَّن المراد بدحيها فقال ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ ﴾ ففجر العيون وأجرى الأنهار وأنبت المراعي والكلأ فيها ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ ﴾ أي ثبتها فيها ﴿ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ أي فعل ذلك منفعةً لكم ولأنعامكم التي تستفيدون منها من الإبل والبقر والغنم مدة عيشكم في هذه الحياة الدنيا .

وقد اختلف أهل التفسير في معنى قوله تعالى ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ ﴾ على عدة أقوال :

القول الأول / وهو قول بن عباسٍ أن الله خلق الأرض بأقواتها من غير أن يدحوها ثم خلق السماء ثم دحى الأرض ودحوها أن أخرج منها الماء والمرعى وشق فيها الأنهار وجعل فيها السبل وخلق الجبال والرمال والآكام وما فيها في يومين آخرين فذلك قوله ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ ﴾ وقد روى هذا عن بن عباسٍ البخاري وغيره موقوفاً عليه قال البخاري : وقال المنهال عن سعيد بن جبير قال : قال رجلٌ لابن عباس : إني أجد في القرآن أشياء تختلف علي ؟ قال ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ من (١٠١) سورة المؤمنون ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ سورة الصافات ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ من (٤٢) سورة النساء ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ من (٢٣) سورة الأنعام فقد كتموا هذه الآية ؟ وقال ﴿ أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴾ إلى قوله ﴿ دَحَىٰهَآ ﴾ فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض ثم قال ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ إلى قوله ﴿ طَآئِعِينَ ﴾ فذكر في هذه خلق الأرض قبل السماء ؟ وقال ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ من (٩٦) سورة النساء ﴿ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ ﴿ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ فكأنه كان ثم مضى ؟ فقال ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ ﴾ في النفخة الأولى ثم ينفخ في الصور ﴿ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ من (٦٨) سورة الزمر فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون ثم في النفخة الآخرة ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ وأما قوله ﴿ مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم فقال المشركون تعالوا نقول لم نكن مشركين فختم على أفواههم فتنطق أيديهم فعند ذلك عرف أن الله لا يكتم حديثاً وعنده ﴿ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ الآية وخلق الأرض في يومين ثم خلق السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين ثم دحا الأرض ودحوها أن أخرج منها الماء والمرعى وخلق الجبال والجمال والآكام وما بينهما في يومين آخرين فذلك قوله ﴿ دَحَىٰهَآ ﴾ وقوله ﴿ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ فجعلت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام وخلقت السماوات في يومين ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ سمى نفسه بذلك وذلك قوله أي لم يزل كذلك فإن الله لم يرد شيئاً إلا أصاب به الذي أراد فلا يختلف عليك القرآن فإن كلاً من عند الله .

وهذا القول هو الذي رجحه بن جرير وعليه أكثر المفسرين . لكن يرد عليه إشكالان :

الإشكال الأول / في قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ سورة البقرة ففي هذه الآية التصريح بأن جميع ما في الأرض مخلوقٌ قبل خلق السماء .

وأجابوا بأمرين : الأول / أن المراد بالخلق هنا التقدير لا الفعل والإيجاد والعرب تسمي التقدير خلقاً ومنه قول زهير :

ولأنت تفري ما خلقت وبع ضُ القوم يخلق ثم لا يفري

وقال تعالى في سورة فصلت ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ فجعل ما قبل الاستواء إلى السماء التقدير لا الفعل والإيجاد .

والثاني / أن المراد خلق الأصل والفرع يتبعه ولو لم يكن موجوداً ومثاله من القران قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ من (١١) سورة الأعراف أي بخلق أصلكم وتصويره وهو آدم صح أن يطلق الخلق والتصوير على جميع فرعه فكذلك في هذه الآية لما تم خلق الأرض وهي أصل صح أن يطلق الخلق على جميع ما فيها لأنه فرعٌ لها .

والحقيقة أن الإشكال ما زال قائماً ، وأما قولهم : أن المراد التقدير لا الإيجاد ، والإرادة لا الفعل ، فهذا من أغرب ما يكون فكيف يقال إنه أراد أن يخلق الأرض في يومين ولكنه ما خلقها ، واستشهدوا على ذلك بقوله تعالى ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ على أنها بعد قوله ﴿ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ فهي في يومين تاليين ليومي خلق الأرض ، كما أن الخلق والتقدير في لغة العرب بمعنىً واحد كما قال في أضواء البيان .

وأما قولهم أن المراد خلق الأصل والفرع يتبعه فلابد له من دليل وأما قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ فعلى ظاهرها فإن الله استخرج من آدم ذريته أمثال الذر وأخذ عليهم الميثاق كما في تفسير قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ﴾ من (١٧٢) سورة الأعراف

والجواب على هذا الإشكال أسهل مما ذهبوا إليه : وهو أن الدحو غير الخلق فكل ما في الأرض مخلوقٌ قبل خلق السماء لكن الدحو وهو البسط والتهيئة لسكنى الناس وعمار الأرض كان بعد خلق السماء .

والإشكال الثاني / في قوله تعالى ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ سورة فصلت ففي الآيات التصريح بأن خلق الأرض وتقدير أقواتها كان قبل خلق السماء .

ويجاب : بأن الدحو غير الخلق والتقدير كما تقدم .

لكن يشكل عليه بأنها قد تمت الأيام الستة التي ذكر الله عز وجل أنه خلق فيها السماوات والأرض ولم يبق وقتٌ لدحي الأرض بعد ذلك .

ويجاب بأمرين :

الأول / أن كل شيءٍ على الله سهلٌ يسير فيمكن أن يكون الدحو وقع في آخر اليوم السادس بعد خلق السماوات .

والثاني / أن الآيات وقعت جواباً لمن سأل عن مدة خلق الأرض وتهيئتها لأهلها يدل لذلك قوله ﴿ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ فأخبر أنها في أربعة أيام فلم تتعرض لترتيب وكأن قوله تعالى ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ أدرج قبل قوله ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ لهذا الغرض وهو جواب السؤال .

القول الثاني / أن الأرض خلقت ودحيت قبل خلق السماء كما في قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٩﴾ ﴾ سورة البقرة وقوله تعالى ﴿ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ ﴾ سورة فصلت وأما قوله تعالى ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ ﴾ فهي بمعنى (قبل ذلك) وهي لغة عند العرب ومنه قوله تعالى ﴿ وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ سورة الأنبياء أي من قبل الذكر أي القرآن ، وقال تعالى ﴿ وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾ سورة القلم أي قبل ذلك لأن الزنيم هو الملصق بالقوم وليس منهم وروي عن عكرمة أنه سئل عن الزنيم قال : هو ولد الزنا وتمثل بقول الشاعر :

زنيم ليس يعرف من أبوه * بغي الأم ذو حسبٍ لئيم

وكونه ولد زنا متقدمٌ على فعله لهذه الأفعال المشينة فيكون قوله ﴿ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾ بمعنى قبل ذلك . وقال الهذلي :

حمدت إلهي بعد عروة إذ نجا خِراشٌ وبعض الشر أهون من بعض

وقد زعموا أن خراشاً نجا قبل عروة .

وقال الزبيدي : قال أبو حاتم : وقالوا قبل وبعد من الأضداد وقال في قوله عز وجل ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ أي قبل ذلك ونقل شيخنا عن ابن خالويه في كتاب (ليس) ما نصه : ليس في القران بعد بمعنى قبل إلا حرفٌ واحد ﴿ وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ ﴾ وقال مُغُلْطَاي في (المَيْس على ليس) قد وَجَدْنَا حَرْفاً آخَرَ وهو ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ قال أبو

موسى في كتاب المغيث : معناه هنا قَبْل ، لأَنّه تعالى خَلَقَ الأَرضَ في يومين ثم استوَى إلى السماءِ ، فعلَى هاذا خلَق الأَرضَ قبْلَ السماءِ . ونقَله السُّيوطيّ في الإتقان ،كذا نقله شيخنا . انتهى من تاج العروس .

واعتُرِضَ بأن من علماء اللغة من أنكر ذلك كالأزهري فإنه قال : والّذي قاله أَبو حاتم عمَّن قاله خَطأٌ ، قَبْلُ وبعْدُ كلُّ واحدٍ منهما نَقيضُ صاحِبه ، فلا يَكونُ أَحدُهما بمعنَى الآخَرِ ، وهو كَلامٌ فاسدٌ ، وأَمَّا ما زَعَمه من التناقض الظاهرِ في الآيات فالجواب أَنَّ الدَّحْوَ غَيرُ الخلْق ، وإِنَّما هو البَسْط ، والخَلْقُ هو الإنشاء الأَوّل ، فالله عزَّ وجلّ خلق الأَرضَ أَوَّلاً غير مَدْحُوَّةٍ ثم خَلقَ السماءَ ، ثم دحَا الأَرضَ ، أَي بَسَطَها . قال : والآيات فيها مُتّفقةٌ ولا تناقضَ بحمْدِ الله تعالى فيها . انتهى .

ولذلك يرد تساؤلات على هذا القول منها : لماذا لم يذكر الرب جل وعلا هذه اللفظة (قبل ذلك) وهي أكثر استعمالاً في معنى القبلية واستعاض بلفظةٍ هي أقل استعمالاً في معنى القبلية وأكثر استعمالاً في معنى البعدية والقران كتاب دلالة وهداية ؟ ومنها : لماذا لم يفهم السائل من هذه اللفظة معنى القبلية وهو في العصر الأول ؟ ولماذا لم يجبه بن عباسٍ بهذا ؟ ولماذا أنكر الأزهري وهو من علماء اللغة هذا المعنى ؟ وقد قيل في معنى قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ ﴾ أن المراد بالزبور كتب الأنبياء وبالذكر أم الكتاب أي اللوح المحفوظ وهو قول بن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وسفيان الثوري وزيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن ومقاتل بن سليمان ورجحه الطبري ، وقيل الزبور الكتب التي نزلت بعد التوراة والذكر التوراة وهو مرويٌ عن بن عباس والضحاك ، وقيل الزبور الكتاب الذي أنزل على داود عليه السلام ، والذكر التوراة وهو مروي عن بن عباس وقتادة والحسن وعامر الشعبي . والمقصود أن قوله تعالى ﴿ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ ﴾ المراد به البعديه وليس القبلية كما قاله بن خالويه وغيره ، وعليه فلا دليل لهم من القران على أن بعد تأتي بمعنى قبل .

القول الثالث / أن السماء خلقت قبل الأرض وهو قول قتادة ونقل الواحدي في البسيط عن مقاتل أنه قال : خلق الله السماء قبل الأرض وتأول قوله تعالى ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ ب ثم كان استوى إلى السماء ، أي قبل ذلك . ورجح الرازي هذا القول وإن كان قد اعترض على مقاتل بأن تأوله جمعٌ بين الضدين فثم للتراخي وكان للمضي فلا يصح ولكنه قال : والمختار عندي أن يقال خَلْقُ السماوات مقدمٌ على خلق الأرض ، بقي أن يقال :كيف تأويل هذه الآية ؟ فنقول : الخلق ليس عبارة عن التكوين والإيجاد ، بل هو عبارة عن التقدير ، والتقدير حق الله تعالى هو حكمه بأنه سيوجده وقضاؤه بذلك وإذا ثبت هذا فنقول قوله ﴿ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ معناه أنه قضى بحدوثه في يومين وقضاء الله بأنه سيحدث كذا في مدة كذا لا يقتضي حدوث ذلك الشيء في الحال ، فقضاء الله تعالى بحدوث الأرض في يومين قد تقدم على إحداث السماء ولا يلزم منه تقدم إحداث الأرض على إحداث السماء وحينئذٍ يزول السؤال ، فهذا ما وصلت إليه في هذا الموضع المشكل . انتهى من تفسيره لآيات سورة فصلت . وقال بن عاشور : وأرجح القولين هو أن السماء خلقت قبل الأرض لأن لفظ ﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ أظهر في

إفادة التأخر من قوله ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ ولأن أنظار علماء الهيئة ترى أن الأرض كرة انفصلت عن الشمس كبقية الكواكب السيارة من النظام الشمسي . انتهى من التحرير والتنوير . وكذلك رجحه الألوسي .

وهذا يرد عليه الاشكال المتقدم وهو أن الخلق والتقدير في لغة العرب بمعنىً واحد ، وكيف يقال إنه أراد أن يخلق الأرض في يومين ولكنه ما خلقها ، فهذا القول بعيد .

القول الرابع / أنهما خلقتا جميعاً وهو ظاهر قول مجاهد والسدي فإنهما فسرا قوله تعالى ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ ﴾ أي مع ذلك ، والعرب تقول : أنت كريم وأنت بعد هذا ذو نسب . أي مع ذلك ، وقال الشاعر :

فقلت لها عني إليك فإنني حرامٌ وإني بعد ذلك لبيب أي مع ذلك .

ويدل له قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ سورة الأنبياء من (٣٠) أي كانتا ملتصقتان ففرقتا وفصل بينهما مما يدل على أنهما خلقتا جميعاً ثم فرقتا ثم قسمتا إلى سبعٍ ثم كانت التهيئة لهما ، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال (خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق الجبال فيها يوم الأحد ، وخلق الشجر فيها يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة من آخر ساعةٍ من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل) وقد شَنَّعُوا على الإمام مسلم رواية هذا الحديث حتى قال بن كثير : هذا الحديث من غرائب صحيح مسلم وقد تكلم عليه علي بن المديني والبخاري وغير واحدٍ من الحفاظ وجعلوه من كلام كعب الأحبار وإنما اشتبه على بعض الرواة فجعلوه مرفوعاً وقد حرر ذلك البيهقي . انتهى من تفسيره عند قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ وقد رد المعلمي رحمه الله على هذا فقال : هذا الخبر رواه جماعة عن بن جريج قال أخبرني إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أخذ ... وفي الأسماء والصفات للبيهقي ص١٧٦ عن بن المديني أن هشام بن يوسف رواه عن بن جريج ، وقد استنكر بعض أهل الحديث هذا الخبر ويمكن تفصيل سبب الاستنكار بأوجه :

الأول / أنه لم يذكر خلق السماء وجعل خلق الأرض في ستة أيام .

الثاني / أنه جعل خلق الأرض في ستة أيام والقران يبين أن خلق السماوات والأرض كان في ستة أيام أربعة منها للأرض ويومان للسماء .

الثالث / أنه مخالف للآثار القائلة أن أول الستة يوم الأحد وهو الذي تدل عليه أسماء الأيام : الأحد – الاثنان – الثلاثاء – الأربعاء – الخميس .

فلهذا حاولوا إعلاله فأعله بن المديني بأن إبراهيم بن أبي يحي قد رواه عن أيوب ، قال بن المديني : وما أرى إسماعيل بن أمية أخذ هذا إلا عن إبراهيم بن أبي يحي انظر الأسماء والصفات ص٢٧٦ يعني وإبراهيم مرمي بالكذب فلا يثبت الخبر عن أيوب ولا من فوقه .

ويرد على هذا أن إسماعيل بن أمية ثقة عندهم غير مدلس ، فلهذا والله أعلم لم يرتض البخاري قول شيخه بن المديني وأعل الخبر بأمرٍ آخر فإنه ذكر طرفة في ترجمة أيوب من التاريخ (٤١٣/١/١) ثم قال : وقال بعضهم عن أبي هريرة عن كعب وهو أصح . ومؤدى صنيعه أن يحدس أن أيوب أخطأ ، وهذا الحدس مبني على ثلاثة أمور : استنكار الخبر لما مر . الثاني أن أيوب ليس بالقوي وهو مقل لم يخرج مسلم له إلا هذا الحديث لما يعلم من الجمع بين رجال الصحيحين ، وتكلم فيه الأزدي ولم ينقل توثيقة عن أحد من الأئمة إلا أن ابن حبان ذكره في ثقاته وشرط بن حبان في التوثيق فيه تسامح معروف والثالث الرواية التي أشار إليها بقوله (وقال بعضهم) وليته ذكر سندها ومتنها فقد تكون ضعيفة في نفسها وإنما قويت عنده للأمرين الآخرين . ويدل على ضعفها أن المحفوظ عن كعب وعبد الله بن سلام ووهب بن منبه ومن يأخذ عنهم أن ابتداء الخلق كان يوم الأحد وهو قول أهل الكتاب المذكور في كتبهم وعليه بنوا قولهم في السبت . انظر الأسماء والصفات ص٢٧٢ و٢٧٥ وأوائل تاريخ بن جرير ، وفي الدر المنثور ٩١/٣ أخرج بن أبي شيبة عن كعب قال : بدأ الله بخلق السماوات والأرض يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة وجعل كل يومٍ ألف سنة . وأسنده بن جرير في أوائل التاريخ ٢٢/١ ط الحسينية واقتصر على أوله ... فهذا يدفع أن يكون ما في الحديث من قول كعب ، وأيوب لا بأس به وصنيع بن المديني يدل على قوته عنده وقد أخرج له مسلم في صحيحه كما علمت وإن لم يكن حده أن يحتج به في الصحيح ، فمدار الشك في هذا الحديث على الاستنكار وقد يجاب عنه بما يأتي :

أما الوجه الأول فيجاب عنه بأن الحديث وإن لم ينص على خلق السماء فقد أشار إليه بذكره في اليوم الخامس النور وفي السادس الدواب وحياة الدواب محتاجة إلى الحرارة والنور ، والنور والحرارة مصدرهما الأجرام السماوية والذي فيه أن خلق الأرض نفسها كان في أربعة أيام كما في القران ، والقران إذ ذكر خلق الأرض في أربعة أيام لم يذكر ما يدل أن من جملة ذلك خلق النور والدواب ، وإذ ذكر خلق السماء في يومين لم يذكر ما يدل أنه في أثناء ذلك لم يحدث في الأرض شيئاً والمعقول أنه بعد تمام خلقها أخذت في التطور بما أودعه الله تعالى فيها ، والله لا يشغله شأنٌ عن شأن .

ويجاب عن الوجه الثاني بأنه ليس في هذا الحديث أنه خلق في اليوم السابع غير آدم ، وليس في القران ما يدل على أن خلق آدم كان في الأيام الستة ، ولا في القران ولا السنة ولا المعقول أن خالقية الله وقفت بعد الأيام الستة بل هذا معلوم البطلان وفي آيات خلق آدم أوائل البقرة وبعض الآثار ما يؤخذ منه أنه قد كان في الأرض عمَّارٌ قبل آدم عاشوا فيها دهراً فهذا يساعد القول بأن خلق آدم متأخر بمدة عن خلق السماوات والأرض فتدبر الآيات والحديث على ضوء هذا البيان يتضح لك إن شاء الله أن دعوى مخالفة هذا الحديث لظاهر القران قد اندفعت ولله الحمد .

وأما الوجه الثالث فالآثار القائلة أن ابتداء الخلق يوم الأحد ما كان منها مرفوعاً فهو أضعف من هذا الحديث بكثير ، وأما غير المرفوع فعامته من قول عبد الله بن سلام وكعب ووهب ومن يأخذ عن الإسرائيليات ، وتسمية الأيام كانت قبل الإسلام تقليداً لأهل الكتاب ، وجاء الإسلام وقد اشتهرت وانتشرت فلم ير ضرورةً إلى تغييرها ، لأن إقرار الأسماء التي قد عرفت واشتهرت وانتشرت لا يعد اعترافاً بمناسبتها لما أخذت منه أو بنيت عليه ، إذ قد أصبحت لا تدل على ذلك وإنما تدل على مسمياتها فحسب ، ولأن القضية ليست مما يجب اعتقاده أو يتعلق به نفسه حكمٌ شرعي ، فلم تستحق أن يحتاط لها بتغيير ما اشتهر وانتشر من تسمية الأيام ، وقد ذكر السهيلي في الروض الأنف ٢٧١/١ هذه القضية وانتصر لقول ابن إسحاق وغيره الموافق لهذا الحديث حتى قال : والعجب من الطبري على تبحره في العلم كيف خالف مقتضى هذا الحديث وأعنق في الرد على ابن إسحاق وغيره ومال إلى قول اليهود أن الأحد هو الأول . وفي بقية كلامه لطائف منها أن تلك التسمية خصت خمسة أيام لم يأت في القران منها شيء وجاء فيه اسما اليومين الباقيين الجمعة والسبت لأنه لا تعلق لهما بتلك التسمية المدخولة ، ومنها أنه على مقتضى الحديث يكون الجمعة سابعاً وهو وتر مناسب لفضل الجمعة كما ورد (إن الله وترٌ يحب الوتر) ويضاف إلى هذا يوم الاثنين فإنه على هذا الحديث يكون الثالث وهو المناسب لفضله وفي الصحيح (فيه ولدت وفيه أنزل علي) فأما الخميس فإنما ورد فضل صومه وقد يوجه ذلك بأنه لما امتنع صوم اليوم الفاضل وهو الجمعة لأنه عيد الأسبوع عوض عنه بصوم اليوم الذي قبله وفي ذلك ما يقوي شبه الجمعة بالعيد وفي الصحيحين في حديث الجمعة (نحن الآخرون السابقون ..) والمناسب أن يكون اليوم الذي للآخرين هو آخر الأيام . انتهى كلامه رحمه الله من الأنوار الكاشفة (ص١٨٨/١٩٢)

وقال الألوسي: وانتصر القفال من الشافعية لكون أوله الأحد بأن الخبر المذكور تفرد به مسلم وقد تكلم عليه الحفاظ علي ابن المدائني والبخاري وغيرهما وجعلوه من كلام كعب وأن أبا هريرة إنما سمعه منه ولكن اشتبه على بعض الرواة فجعله مرفوعا. وأجيب بأن من حفظ الرفع حجة على من لم يحفظه والثقة لا يرد حديثه بمجرد الظن ولأجل ذلك أعرض مسلم عما قاله أولئك واعتمد الرفع وخرج طريقه في صحيحه فوجب قبولها. وذكر أحمد بن أحمد المقرئ المالكي أن الإمام أحمد رواه أيضاً في مسنده عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ شبَّك بيدي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم وقال (خلق الله تعالى الأرض يوم السبت) الحديث . انتهى من روح المعاني .

وقال الألباني : ونقل تضعيفه عن بعض أئمة الحديث وأن ابن المديني أعله بأنه يرى أن إسماعيل ابن أمية أخذه عن إبراهيم بن أبي يحيى ، و هذا عن أيوب بن خالد ! ويعني أن إبراهيم هذا متروك . قلت : هذه دعوى عارية عن الدليل إلا مجرد الرأي وبمثله لا ترد رواية إسماعيل ابن أمية ، فإنه ثقة ثبت كما قال الحافظ في " التقريب " لاسيما و قد توبع ، فقد رواه أبو يعلى في " مسنده " (٢٨٨ / ١) من طريق حجاج بن محمد عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع به . لكن لعله سقط شيء من إسناده . و ذكره البخاري في ترجمة أيوب بن خالد بن أبي أيوب الأنصاري معلقا عن إسماعيل بن أمية به . و قال : (١ / ١ / ٤١٣ - ٤١٤) : " وقال بعضهم : عن أبي هريرة عن كعب ، و هو أصح " ! قلت : و هذا كسابقه فمن هذا البعض ؟ وما حاله في الضبط والحفظ حتى يرجح على رواية عبد الله بن رافع ؟ ! وقد وثقه النسائي وابن حبان ، واحتج به مسلم ، وروى عنه جمع ، ويكفي في صحة الحديث أن ابن معين رواه ولم يعله بشيء ! وليس الحديث بمخالف للقرآن كما يتوهم البعض ، فراجع

بيان ذلك فيما علقته عليه من" المشكاة " (٥٧٣٥) ثم على " مختصر العلو " للذهبي رقم الحديث (٧١) وله فيه طريق أخرى عن أبي هريرة فراجعه . ورواية إبراهيم بن أبي يحيى التي أشار إليها البيهقي ، قد أخرجها الحاكم في " علوم الحديث " (ص ٣٣) : قال إبراهيم : شبك بيدي صفوان بن سليم قال : شبك بيدي أيوب بن خالد الأنصاري قال : شبك بيدي عبد الله بن رافع قال : شبك بيدي أبو هريرة قال : شبك بيدي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم وقال : فذكره . و أشار الحاكم إلى تضعيفه هكذا مسلسلاً بالتشبيك ، وعلته إبراهيم ، فإنه متروك كما تقدم . وأما إعلال الدكتور أحمد محمد نور في تعليقه على " التاريخ " (٣ / ٥٢) للحديث بأيوب بن خالد وقوله : فيه لين . فإنما هو تقليد منه لابن حجر في تليينه إياه في " التقريب " ، وليس بشيء ، فإنه لم يضعفه أحد سوى الأزدي وهو نفسه لين عند المحدثين ، فتنبه . انتهى من السلسلة الصحيحة (٤٤٩/٤)

وقد يشكل على ذلك قوله تعالى﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ سورة البقرة وقوله ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ... ﴾ الآيات من سورة فصلت فإن (ثم) تفيد الترتيب الزمني .

وأجيب : بأن (ثم) قد لا تفيد الترتيب الزمني وإنما الترتيب الذكري كقوله تعالى ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ ﴾ فالإيمان يجب أن يكون مقدماً على هذه الأعمال حتى تقبل ومنه . ومنه قوله تعالى ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾ سورة التكاثر والسؤال عن النعيم يكون قبل دخول النار . ومنه قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ﴾ والأجل مقضي قبل الخلق أي أخبركم أني خلقته من طين ثم أخبركم أني قضيت الأجل ، ومنه قوله تعالى ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ الوصايا العشر ثم قال ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ سورة الأنعام والوصايا لأمة محمدٍ صلى الله عليه وسلم وهي بعد موسى عليه السلام ويكون معنى ثم أي ثم اذكروا إذ ءاتينا موسى الكتاب وقوله تعالى ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ ﴾ سورة البقرة والإفاضة من عرفات تكون قبل ذكر الله عند المشعر الحرام وهو مزدلفة وسببها أن قريش كانوا لا يذهبون لعرفة ويرون أنهم سكان الحرم لا يخرجون منه فأمرهم الله أن يخرجوا إلى عرفات ويفيضوا من حيث أفاض الناس .

وقالوا : إنما قدمت الأرض في الترتيب الذكري لأنها أقرب إلينا ومساسنا بها أقوى وحاجتنا إليها أكثر .

قال أبو حيان في البحر المحيط : ثم لترتيب الأخبار لا لترتيب الزمان والمهلة وكأنه قال فالذي أخبركم أنه خلق الأرض وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام ثم أخبركم أنه استوى إلى السماء فلا تعرض الآية لترتيب . انتهى .

وقال الرازي : يجوز أن يكون خلق الأرض قبل خلق السماء إلا أنه ما دحاها حتى خلق السماء لأن التدحية هي البسط ولقائلٍ أن يقول هذا أمر مشكل من وجهين : الأول : أن الأرض جسمٌ عظيم فامتنع انفكاك خلقها عن التدحية وإذا كانت التدحية متأخرة عن خلق السماء كان خلقها أيضاً لا محالة متأخراً عن خلق السماء . الثاني : أن قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ سورة البقرة يدل على أن خلق الأرض وخلق كل ما فيها متقدم على خلق السماء لكن خلق الأشياء في الأرض لا يمكن إلا إذا كانت مدحوة فهذه الآية تقتضي تقدم كونها مدحوة قبل خلق السماء وحينئذ يتحقق التناقض . والجواب : أن قوله تعالى ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ يقتضي تقديم خلق السماء على الأرض ولا يقتضي أن تكون تسوية السماء مقدمة على خلق الأرض ، وعلى هذا التقدير يزول التناقض ، ولقائل أن يقول : قوله تعالى ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ ﴾ يقتضي أن يكون خلق السماء وتسويتها مقدم على تدحية الأرض ولكن تدحية الأرض ملازمة لخلق ذات الأرض فإن ذات السماء وتسويتها متقدمة على ذات الأرض وحينئذ يعود السؤال ، وثالثها : وهو الجواب الصحيح أن قوله (ثم) ليس للترتيب هاهنا وإنما هو على جهة تعديد النعم ، مثاله قول الرجل لغيره : أليس قد أعطيتك النعم العظيمة ، ثم رفعت قدرك ، ثم دفعت الخصوم عنك ، ولعل بعض ما أخره في الذكر قد تقدم فكذا هاهنا والله أعلم . انتهى من مفاتيح الغيب .

ويشهد لذلك أن الآيات قد جاءت مرةً بتقديم خلق السماوات على الأرض كقوله تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ سورة الأعراف من (٥٤) وقوله ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ سورة ق ومرةً جاءت بتقديم خلق الأرض كقوله ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ﴾ مما يدل على أن الترتيب غير مرادٍ في الآيات وإنما بيان الوقت الذي تم فيه الخلق ، وفي قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ سورة البقرة وقوله ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ سورة فصلت نجد أن السماء كانت موجودة وأنه استوى إليها فجعلها سبع سماوات ولو كانت غير موجودة لقال ثم استوى فسوى السماء ، وبيَّن في الآية الثانية أنها كانت موجودة وأنها كانت دخاناً فجعلها سبع سماوات قال الطبري : إن قال لنا قائل أخبرنا عن استواء الله جل ثناؤه إلى السماء كان قبل خلق السماء أم بعده ؟ قيل : بعده وقبل أن يسويهن سبع سماوات كما قال جل ثناؤه ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ والاستواء كان بعد أن خلقها دخاناً وقبل أن يسويها سبع سماوات . انتهى من تفسيره لقوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ قال صاحب المنار : ولا مانع من الأخذ بظاهر الآية فإن الخلق غير التسوية ألا ترى أن الإنسان في طور النطفة والعلقة يكون مخلوقاً ولكنه لا يكون بشراً سوياً في أحسن تقويم كما يكون عند إنشائه خلقاً آخر ... إلى أن قال : وحاصل القول أن الله تعالى خلق هذه الأرض وهذه السماوات التي فوقنا بالتدريج وما أشهدنا خلقهن وإنما ذكر لنا ما ذكره

للاستدلال على قدرته وحكمته وللامتنان علينا بنعمته لا لبيان تاريخ تكوينهما لأن هذا ليس من مقاصد الدين فابتداء الخلق غير معروف ولا ترتيبه إلا أن تسوية السماء سبع سماوات يظهر أنه كان بعد تكوين الأرض ويظهر أن السماء كانت موجودة إلا أنها لم تكن سبعاً ولذلك ذكر الاستواء إليها وقال﴿ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ ﴾ فنؤمن بأنه فعل ذلك لحكمٍ يعلمها وقد عرض علينا ذلك لنتدبر ونتفكر . انتهى .

لكن يشكل على هذا القول تعداد الأيام في خلق السماوات والأرض وأنها أربعة للأرض ويومان للسماء فكيف يكون خلقهما جميعاً وقد أفرد كلاً منهما بأيامٍ تخصه . وقد ذكر الطبري أن من قال أن المعنى (والأرض مع ذلك دحاها) أرادوا أن الأرض خُلِقت ودُحِيت قبل السماء .

القول الخامس / التوقف ورد علمه إلى عالمه ، وهو ظاهر قول الماوردي في تفسيره النكت والعيون فإنه قال بعد ذكره لأقوال العلماء : والله أعلم بما فعل فقد اختلفت فيه الأقاويل وليس للاجتهاد فيه مدخل . وكذا قاله القرطبي في تفسيره ، وتقدم كلام الشيخ محمد رشيد رضا في المنار وقوله : وحاصل القول أن الله تعالى خلق هذه الأرض وهذه السماوات التي فوقنا بالتدريج وما أشهدنا خلقهن وإنما ذكر لنا ما ذكره للاستدلال على قدرته وحكمته وللامتنان علينا بنعمته لا لبيان تاريخ تكوينهما لأن هذا ليس من مقاصد الدين فابتداء الخلق غير معروف ولا ترتيبه . انتهى .

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿٣٤﴾ ﴾ من أسماء يوم القيامة ومعناه الداهية العظمى التي تعلو على كل داهية ، والطم الدفن والعلو . كقوله تعالى ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾ سورة القمر

﴿ يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ ﴾ أي ما عمل من خيرٍ أو شر في الدنيا . كما قال تعالى ﴿ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴾ من (٢٣) سورة الفجر

﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ أي أظهرت النار وجعلت بارزة لأنظار الناس .

﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ ﴾ تجاوز الحد وعصى ربه واستكبر عن عبادته وطاعته .

﴿ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٣٨﴾ ﴾ قدمها على الآخرة فعمل لها وترك العمل للآخرة .

﴿ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ أي النار مصيره ومرجعه ومنزله الذي يأوي إليه .

﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ ﴾ أي خاف مسألة الله إياه عند وقوفه بين يديه في يوم القيامة ، وقيل ﴿ مَقَامَ رَبِّهِۦ ﴾ أي جلاله وعظمته فهابه وعظمه وهذا حال العارفين كما قال تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ من (٢٨) سورة فاطر وقوله تعالى ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ أي زجر نفسه عما تشتهيه من المعاصي خشيةً من الله .

﴿ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ أي المصير والمرجع والمنزل الذي يأوي إليه .

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ ﴾ متى قيامها وظهورها وثبوتها . قال الفرّاء : إن قال قائل : إنما الإرساء للسفينة والجبال الراسية وما أشبههنّ ، فكيف وَصَفَ الساعة بالإرساء ؟ قلت : هي بمنزلة السفينة إذا كانت جارية فرست ، ورسوّها : قيامها ؛ قال : وليس قيامها كقيام القائم ، إنما هي كقولك : قد قام العدل ، وقام الحقّ : أي ظهر وثبت . ذكره الطبري .

﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ ﴾ قال بن كثير : أي: ليس علمها إليك ولا إلى أحد من الخلق ، بل مَردها ومَرجعها إلى الله عز وجل ، فهو الذي يعلم وقتها على التعيين . وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ سورة الأعراف

﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ ﴾ أي مخوفٌ من يخاف قيامها والحساب فيها . قال الطبري : يقول تعالى ذكره لمحمد : إنما أنت رسولٌ مبعوثٌ بإنذار الساعة من يخاف عقاب الله فيها على إجرامه ، ولم تكلف علم وقت قيامها ، يقول : فدع ما لم تكلف علمَه واعمل بما أمرت به من إنذار من أُمرت بإنذاره .

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا ﴾ أي الكفار أو الناس جميعاً يوم يشاهدون القيامة رؤيا العين ﴿ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ ﴾ في الحياة الدنيا ﴿ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾ ﴾ يرون المدة التي عاشوها في الحياة الدنيا قليلة جداً وهو كذلك . والعشية آخر النهار والضحى أوله . قال الفراء : ليس للعشية ضحى ، إنما الضحى لصدر النهار ، ولكن هذا ظاهرٌ من كلام العرب أن يقولوا : آتيك العشية أو غداتها ، إنما معناه آخر يومٍ أو أوله . ذكره البغوي .

من دروس سورة النازعات :

أولاً / أن الموت حقٌ على كل نفسٍ مخلوقة لكن شتان بين من تنزع روحه نزعاً وهي روح الكافر والمشرك وبين من تنشط روحه نشطاً وهي روح المؤمن ، فإن روح المؤمن تنشط للخروج حين تبشر بروحٍ وريحان وربٍ راضٍ غير غضبان فتسلها الملائكة من جسده سلاً خفيفاً فتخرج سريعاً معهم ، بينما روح الكافر حين تبشر بسخط الله وعقوبته تتفرق في جسده كراهية الخروج فتنزعها الملائكة نزعاً شديداً .

ثانياً / أن الله تعالى يقسم بما شاء من مخلوقاته وليس للمخلوق أن يقسم إلا بالله تعالى ، ويدل قسم الله بمخلوقٍ على فضل ذلك المخلوق وعلو منزلته عند الله تعالى ، وقد أقسم الله تعالى في هذه السورة بالملائكة مما يدل على فضلهم وعلو منزلتهم عند الله تعالى وهم كما أخبر الله عنهم ﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ سورة الأنبياء وقال

تعالى ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ سورة عبس وقال تعالى ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ من (٦) سورة التحريم فيجب الإيمان بهم ومحبتهم وتعظيمهم إجلالاً لمن يحبهم ويعظمهم فإن من تعظيم الله تعظيم رسله ومحبة عباده الصالحين.

ثالثاً / أن النفخ في الصور يكون مرتين الأولى نفخة الصعق وتكون للأحياء فيموتوا منها ولا تكون إلا على شرار الخلق والثانية نفخة البعث فتكون على الأموات فيحييهم الله ويبعثهم للجزاء والحساب .

رابعاً / أن الله يمهل ولا يهمل ، فإن فرعون طغى وتجبر وأفسد في الأرض وادعى الربوبية والألوهية ، ومع ذلك لم يعاجله الله جل وعلا بالعذاب بل أرسل إليه رسولاً كريماً وهو موسى عليه السلام وأظهر الله على يديه المعجزات ليوقن ويصدق . وابتلاه ببعض المصائب ليرتدع ويرجع ، فأصر على كفره وعناده فأغرقه الله ثم أحرقه وجعله عبرةً للناس .

سورة عبس مكية وآياتها (٤٢)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ۝١٦ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ۝١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝٢٣ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ۝٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ۝٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ۝٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ۝٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ۝٣٢ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ۝٣٧ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ۝٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ۝٣٩ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ۝٤٠ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ۝٤٢ ﴾

تفسير سورة عبس

وقد روى الترمذي عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : أنزل ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يقول : يا رسول الله أرشدني ، وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلٌ من عظماء المشركين فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول (أترى بما أقول بأساً) فيقال : لا . ففي هذا أنزل . ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي وصحح إسناده الألباني وقد روى بن جرير الطبري بسنده عن قتادة أنه كان يناجي أمية بن خلف من علية قريش ، وفي رواية أخرى أبي بن خلف ، وعند أبي يعلي بسنده (ويقبل على الآخرين فيقول : أترون بما أقول بأساً) فيقولون : كلا . بالجمع ، وصحح إسناده حسين سليم أسد . وروى الطبري بسنده عن بن عباسٍ قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يناجي عُتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وكان يتصدّى لهم كثيراً ويعرض عليهم أن يؤمنوا ، فأقبل إليه رجلٌ أعمى يقال له عبد الله بن أمّ مكتوم يمشي وهو يناجيهم فجعل عبد الله يستقرئ النبيّ صلى الله عليه وسلم آيةً من القرآن ، وقال : يا رسول الله علمني مما علَّمك الله . فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبس في وجهه وتولّى وكره كلامه وأقبل على الآخرين ، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ ينقلب إلى أهله أمسك الله بعض بصره ، ثم خَفَق برأسه ، ثم أنزل الله ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ الآيات قال ابن زيد : كان يقال لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كَتَمَ من الوحي شيئاً ، كتم هذا عن نفسه . ذكره الطبري

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ ﴾ قطَّب وأعرض عنه .

﴿ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ ﴾ يعني عبد الله ابن أم مكتوم وذلك بالإجماع وهو أحد السابقين إلى الإسلام ، ومؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم الثاني مع بلال ، بعثه النبي صلى الله عليه وسلم سفيراً مع مصعب بن عمير إلى المدينة فكانا أول سفيرين في الإسلام ، واستخلفه النبي صلى الله عليه وسلم مرتين على المدينة ، أراد الخروج للجهاد يوم القادسية فقيل له أنت معذور فأبى إلا الخروج وقال أعطوني الراية فإني لا أفر وقتل رضي الله عنه وأرضاه قال أنس رأيته يوم القادسية ومعه راية سوداء وعليه درعٌ له .

﴿ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾ يتطهر من ذنوبه وتزكو نفسه بسماع كلام الله .

﴿ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ ﴾ أو يتعظ فتنفعه الموعظة .

﴿ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ استغنى بماله أو استغنى فلم يرد سماع المواعظ والذكرى .

﴿ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ ﴾ تتعرض .

﴿ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ ﴾ أي لست محاسباً عنه إن لم يتزكى من كفره ، أي لا ترهق نفسك ولا تشغل بالك رجاء أن يسلم هذا وأمثاله ﴿ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ﴾ سورة الشورى من (٤٨) ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ سورة العنكبوت من (١٨)

﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ أي الأعمى ﴿ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ يخاف ربه ﴿ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ تتشاغل بغيره وتعرض عنه .

﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴿١١﴾ ﴾ أي حقاً إن هذه الآيات مواعظ ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ ﴾ أي اتعظ به . أي بالقرآن الذي حوى هذه الآيات والمواعظ فإنه ﴿ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ﴿١٣﴾ ﴾ أي معظمة موقرة ﴿ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ﴿١٤﴾ ﴾ عالية القدر مطهرة من الدنس والزيادة والنقصان ﴿ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ﴿١٥﴾ ﴾ الملائكة الكرام سفراء بين الله ورسله ينقلون كلامه عز وجل إلى رسله عليهم الصلاة والسلام ﴿ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ﴿١٦﴾ ﴾ امتدحهم الرب جل وعلا بأنهم كرام أي لهم قدر ومكانة وكرامة عنده وأنهم بررة أي مطيعين كما قال تعالى ﴿ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ سورة التحريم من (٦) ووجه الربط بين هذه الآيات وقصة الأعمى فيما نرى أنه جل وعلا لما ذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم ليس عليه إلا أن يبلغ الناس ويعظهم ، واتباعه من الدعاة وغيرهم مثله بيَّن هنا أفضل ما يوعظ به وهو كتاب الله جل وعلا فإنه حوى هذه المزايا والفضائل التي لا توجد في غيره ، وفي هذا ردٌ على القصاصين والوعاظ الذين اشتغلوا بقصصٍ ربما كان بعضها مكذوب ، وبأقاويل الناس ولم يلتفتوا إلى مواعظ هذا الكتاب المبارك الذي ﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾ ﴾ سورة فصلت

ويمكن أن يكون معنى ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ ﴾ أي لا تعد لمثل هذا من الإعراض عن تعليم الضعفاء والتصدي لدعوة الأغنياء فإن هذه الرسالة التي أرسلناك بها وهذا القران تذكرة لمن أراد أن يذكر ولا يلحقك ملامة من عدم إسلامهم. قال القاسمي في محاسن التأويل ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أي : أن المعاتبة المذكورة موعظة يجب الاتعاظ بها والعمل بموجبها . قال الشهاب وكون عتابه على ما ذكر عظة لأنه مع عَظَمَةِ شأنه ومنزلته عند الله إذا عُوتب على مثله . فما بالك بغيره ؟ وجوَّز عَود الضمير للآيات وللسورة ، والوصية بالمساواة بين الناس ، ولدعوة الإسلام . وقوله تعالى ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾ أي : حفظه . على أنه من الذِّكر خلاف النسيان : أو اتعظ به ، من : التذكير . قال الزمخشري : وذكّر الضمير لأن التذكرة في معنى الذكر والوعظ . وقيل : الضمير للقرآن . انتهى .

﴿ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾ أي لعن الإنسان الكافر ما الذي جعله يكفر بربه على عظيم إحسانه عليه . تعجب أو استفهام توبيخي أي أي شيءٍ أكفره ؟ . وقيل المعنى ما أشد كفره إذ كفر بربه الذي خلقه ، ثم بيَّن أطوار خلقه فقال ﴿ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ ألا يعلم هذا الكافر أن خلقه فيه عَجَبٌ وفيه حقارة ، فإنه مخلوقٌ من نطفةٍ وهي المني ثم قدَّره أطواراً في بطن أمه كما قال تعالى ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ سورة المؤمنون وقيل قدَّر عليه وهو في بطن أمه عمله ورزقه وأجله وشقي أو سعيد كما ثبت ذلك في الصحيحين والأول أولى لأن الكلام موجهٌ للكافر وهو لا يقر بالأخير ﴿ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ﴾ قيل يسر خروجه من بطن أمه وهو قول بن عباسٍ وقتادة وعكرمة والضحاك والسدي وأبو صالح ومقاتل ورجحه بن جرير ، وقيل يسر له سبيل الخير والشر كقوله تعالى ﴿ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ سورة الإنسان وهو قول مجاهد والحسن وابن زيد ورجحه بن كثير والأول أولى لأن سياق الآيات قبلها وبعدها تتحدث عن أطوار خلق الإنسان بدايته ونهايته فالأولى أن تكون هذه منها والعلم عند الله تعالى .

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ﴾ أي قبض روحه وصير له قبراً يواري جثته .

﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ ﴾ ثم إذا شاء أحياه وبعثه من قبره ولذلك سمي يوم القيامة يوم البعث والنشور .

﴿ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ ﴾ حقاً إن هذا الإنسان الكافر لم يؤد الواجبات والفرائض والحقوق التي أوجبتها عليه ، أو ليس الأمر كما يزعم من أنه قد قام بأمر الله . قال مقاتل : يعنى ما عهد الله إليه أمر الميثاق الأول ، يعنى التوحيد . وقال مجاهد : لا يقضي أَحدٌ أَبداً كل ما فُرِضَ عليه . قال القرطبي : كَلَّا ردع وزجر ، أي ليس الامر كما يقول الكافر ، فإن الكافر إذا أخبر بالنشور قال ﴿ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰ ﴾ سورة فصلت من (٥٠) ربما يقول قد قضيت ما أمرت به . فقال : كلا لم يقض شيئاً بل هو كافرٌ بي وبرسولي . وقال الحسن : أي حقاً لم يقض : أي لم يعمل بما أمر به. انتهى من تفسيره .

﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ ﴾ لما ذكر الله البعث والنشور أراد أن يبين دليلاً حسياً عليه وهو الطعام كيف تم خلقه وإخراجه من الأرض بعد أن لم يكن شيئاً فالذي فعل ذلك قادرٌ على إحياء الإنسان بعد أن صار تراباً ﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ ﴾ أي فلينظر هذا الإنسان الكافر أو الإنسان عموماً نظر تدبرٍ وتفكرٍ واتعاظ ﴿ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾ الذي يطعمه وبه قوام حياته كيف تم خلقه . قال مجاهد : مأكله ومشربه . وروي عنه أيضاً : مدخله ومخرجه . أي ليتعظ بذلك كله . قال القرطبي : لما ذكر جل ثناؤه ابتداء خلق الإنسان ذكر ما يسر من رزقه ، أي فلينظر كيف خلق الله طعامه . وهذا النظر نظر القلب بالفكر ، أي ليتدبر كيف خلق الله طعامه الذي هو قوام حياته ، وكيف هيأ له أسباب المعاش ليستعد بها للمعاد . وروى عن الحسن ومجاهد قالا ﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾ أي إلى مدخله ومخرجه . وروى ابن أبي خيثمة عن الضحاك بن سفيان الكلابي قال : قال لي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (يا ضحاك ما طعامك ؟ قلت : يا رسول الله اللحم واللبن ، قال: ثم يصير إلى ماذا ؟ قلت : إلى ما قد علمته ،

قال (فإن الله ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلاً للدنيا) وقال أبي بن كعب : قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إن مطعم ابن آدم جعل مثلاً للدنيا وإن قَزَّحَهُ وملَّحه فانظر إلى ما يصير) وقال أبو الوليد : سألت ابن عمر عن الرجل يدخل الخلاء فينظر ما يخرج منه ، قال : يأتيه الملك فيقول انظر ما بخلت به إلى ما صار؟. انتهى من تفسيره .

﴿ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ﴾ أي أنزلنا الغيث يصب على الأرض من العلو صباً ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ ﴾ ليدخل الماء من خلالها إلى باطن الأرض وليخرج النبات . قال بن كثير : أي: أسكناه فيها فدخل في تُخُومها وتَخَلَّل في أجزاء الحب المودعَ فيها فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض .

﴿ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ ﴾ حباً مفردها حبة وجمعها حب وحبوب كالبر والشعير والذرة وسائر الحبوب .

﴿ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ ﴾ العنب معروف ، والقضب القت المعروف وهو علف البهائم ، قال الحسن : سميَّ بالقضب لأنه يقضب أي يقطع بعد ظهوره مرة بعد مرة . قال القتبي وثعلب : أهل مكة يسمون القت القضب . وقيل هو جميع ما يقضب مثل القت والكراث وسائر البقول التي تقطع فينبت أصلها . وروي عن بن عباس أنه : الرُطَبْ لأنه يقضب من النخل ، ولأنه ذكر العنب قبله .

﴿ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ ﴾ شجرتان مباركتان يخرج منهما ثمر مبارك ﴿ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ ﴾ الحدائق جمع حديقة ، والحديقة هي البستان المحوط عليه ، وغلباً أي غلاظ الأشجار . قال القرطبي : قال ابن عباس : الغلب : جمع أغلب وغلباء وهي الغلاظ . وعنه أيضاً الطوال . قتادة وابن زيد : الغلب : النخل الكرام . وعن ابن زيد أيضاً وعكرمة : عظام الأوساط والجذوع . مجاهد : ملتفة . انتهى . وقيل ﴿ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ ﴾ أي طيبة ، وقيل التي ينبت فيها من جميع الشجر . وقيل ذات الظلال وكل هذا من اختلاف التنوع لا التضاد .

﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ ﴾ عامٌ بعد خاص فإن العنب والزيتون والنخل يعني ثمارها من الفواكه ، وسميت فواكه لأنه يتفكه بها الناس أي يتمتعون ، والأب ما تأكله الدواب والأنعام من الكلأ والمراعي ولا يأكله الناس ، وقيل ما يأكله الناس والدواب .

﴿ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ أي فعل ذلك منفعة لكم ولأنعامكم التي تستفيدون منها من الإبل والبقر والغنم مدة عيشكم في هذه الحياة الدنيا .

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ ﴾ من أسماء يوم القيامة سميت بذلك لأجل الصيحة لأنها تصخ الآذان أي تصمها من شدتها ، وقيل : بل لأنها تصيخ لها الاسماع ، أي تستمع استماع المرتقب الخائف الوجل . من قولهم : أصاخ إلى كذا : أي استمع إليه . ومنه حديث (ما من دابةٍ إلا وهي مصيخة يوم الجمعة من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقاً من الساعة إلا الجن والانس) رواه مالك وأبو داود وغيرهما وحسنه الألباني

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ قيل يفر منهم لثلاثة أمور : لاشتغاله بنفسه والبحث عن نجاتها وهو ما بينته الآية التي بعدها ، والثاني حذراً من مطالبتهم إياه شحاً بالحسنات أو خوفاً من التبعات التي بينه وبينهم في الدنيا ومنها إهمال الراعي لرعيته ، والثالث حتى لا يرو عذابه ، وأمر رابع لم يذكره المفسرون وهو ممكن وهو الحذر من أن يرون ما سطر عليه في صحيفة عمله من السيئات التي كان يعملها ويخفيها عنهم . وقد روي عن عكرمة رحمه الله أنه قال : إن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة فيقول يا بنيّ : أيُّ والدٍ كنت لك ؟ فيثنى خيراً فيقول له : يا بني إني قد احتجت إلى مثقال ذرةٍ من حسناتك أنجو بها مما ترى ، فيقول له ولده : يا أبت ما أيسر ما طلبت ، ولكني أتخوف مثل ما تتخوف ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً ، ثم يتعلق بزوجته فيقول يا فلانة : أيُّ زوج كنت لك ؟ فتثنى خيراً فيقول لها : إني أطلب إليك حسنةً واحدةً تهبينها لي لعلى أنجو بها مما ترين ، فتقول ما أيسر ما طلبت ، ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئاً ، إني أتخوف مثل الذي تتخوف ، وإن الرجل ليأتي إلى أباه فيقول له : يا أبتي ألم أكن بك باراً ، وعليك مشفقاً ، وإليك محسناً ، وأنت ترى ما أنا فيه فهب لي حسنةً من حسناتك أو احمل عني سيئةً . فيقول : إن الذي سألتني يسير ولكني أخاف مثل ما تخاف . انتهى . وعن الفضيل : إن المرأة لتلقى ولدها فتقول : يا ولدي ألم يكن بطني لك وعاء وثديي لك سقاء ، وحجري لك وطاء . فيقول : بلى يا أماه . فتقول : يا بني قد أثقلتني ذنوبي فاحمل عني منها ذنباً واحداً . فيقول : إليك عني فإني بذنبي عنك مشغول . انتهى . وروى بن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه أنه قال : إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى منادٍ : ألا من كانت له مظلمة فليجيء فليأخذ حقه . قال : فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجه ولو كان صغيراً . وذكر الضحاك عن ابن عباس قال : يفر قابيل من أخيه هابيل ، ويفر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أمه ، وإبراهيم عليه السلام من أبيه ، ونوح عليه السلام من ابنه ، ولوط من امرأته ، وآدم من سوأة بنيه . وقال الحسن : أول من يفر يوم القيامة من أبيه : إبراهيم ، وأول من يفر من ابنه نوح ، وأول من يفر من امرأته لوط . وفي الصحيحين عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يحشر الناس يوم القيامة حفاةً عراةً غرلاً) قلت : يا رسول الله النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض قال (يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض) هذا لفظ مسلم ولفظ البخاري (الأمر أشد من أن يهمهم ذاك)

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ مشرقة مضيئة يقال أسفر الصبح إذا أضاء ﴿ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ فرحة مسرورة بما أعطاها الله من النعيم والكرامة ، مستبشرةً بالخير المقبل عليها بما ترجوه من فضل الله وكرمه على أهل الجنة ، وهذه وجوه المؤمنين ، ثم ذكر الله حال الفريق الآخر في ذلك اليوم فقال ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ يعلوها الغبار والكدر ﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ ﴾ يغشاها السواد والظلمة والكسوف والذل ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾ أي الذين جمعوا بين الجحود والتكذيب ، وبين ارتكاب المحارم . قال بن كثير : أي : الكفرة قلوبهم ، الفجرة في أعمالهم . انتهى فجعل الكفر عمل القلب والفجور عمل الجوارح .

من دروس سورة عبس :

أولاً / أن طالب الهداية مقدم على من يرجى هدايته ، فتعليم الجاهل من المسلمين أولى من دعوة غير المسلمين ، وإن كان الكل خير ، لكن إذا تعارض الأمران قُدِّمَ طالب الهداية على من تطلب هدايته ، ويدل لذلك عتاب الله جل وعلا لنبيه صلى الله عليه وسلم لتقديمه دعوة الكفار على تعليم المسلم ، فدلَّ على أنه ترك الأفضل واشتغل بالمفضول فعوتب لذلك .

ثانياً / أن في خلق الإنسان عظةً وعبرة ، فإن الذي خلقه من نطفة ثم قدَّر خلقه في بطن أمه أطواراً علقةً فمضغةً فعظاماً فلحماً فعروقاً وعصباً فجلداً ثم يسر خروجه من بطن أمه فقلبه ليكون أول ما يخرج رأسه ليكون أيسر في الخروج ولا يختنق ثم دله ثدي أمه فلم يعلمه أحد كيف يرضع وإنما علمه الله جل وعلا ، ثم أفاض عليه النعم في حياته حتى إذا مات جعل له قبراً يواري جسده ويحفظ كرامته ، فالذي فعل هذا في الإنسان في حياته قادرٌ على إعادة خلقه بعد موته . وكان على الإنسان أن يشكر ربه الذي أنعم عليه بذلك .

ثالثاً / أن في طعام الإنسان الذي يطعمه عبرةً وعظة ، فإن الله تعالى أنزل المطر من السماء ثم شق له الأرض فدخل الماء إلى جوفها فجعل منه مخازن جوفية تستخرج بحفر الآبار وشق العيون ونحو ذلك ، ومنها ما أعاد إخراجه بالعيون والأنهار ونحو ذلك ، ومنه ما استقبلته الأرض فأنبتت منه مباشرة ، فخرج منها بأمر الله جل وعلا الحبوب بأنواعها والثمار والفواكه والحشائش وسائر النباتات فانتفع الناس فأكلوا وأطعموا أنعامهم ومواشيهم ، فالله القادر على إخراج هذه النباتات قادرٌ على إحياء الناس بعد موتهم للبعث والجزاء . وكان شكره لذلك واجباً عليهم .

رابعاً / أن يوم القيامة يوم عظيم مهيب تنقطع فيه الأسباب وتهمل فيه الأنساب في ذلك اليوم ﴿ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ أشغلهم الفزع عن النظر في الأهل والقرابات بل الفرار منهم خشيةً على حسناته أن يأخذوا منها أو يضعوا عليه من سيئاتهم .

خامساً / تكرار المواعظ في هذه السورة يجعلنا نوقن أن من الناس من لا تجدي معهم موعظة واحدة ، لكثرة ما ران على قلوبهم من السيئات ، فيحتاجون إلى تكرار المواعظ وتنوعها ، فإن لم تنفعهم موعظة ولم يتأثروا بها نفعتهم الأخرى ، فلا ييأس الداعي إذا لم تنجح موعظته مع شخصٍ أو قوم ، بل عليه أن يكرر المواعظ وينوعها فلرب كلمة ألقاها فنفع الله بها بعد زمن ، وقد ذكروا أن داعيةً مر بقومٍ هم من علية الناس يشربون الخمر فقال : ألا تخافون من الرقيب ؟ فقالوا وهم يتضاحكون : وأين الرقيب وليس عندنا إلا الكواكب . فقال : وأين مكوكبها ؟ ومضى . فجعلت هذه الكلمة تتردد في أذن أحدهم وهو اللواء محمود شيت خطاب حتى هداه الله وأعلن توبته ثم صار داعيةً فاهتدى على يديه الكثير ولربما لم يعلم ذلك الداعية بما كتب الله على يديه من هداية هذا الشخص وما حصل له من الأجر من بركة تلك الكلمة .

سورة التكوير مكية وآياتها (٢٩)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

تفسير سورة التكوير

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ و ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾ و ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ رواه أحمد والترمذي والحاكم وصححه وعن عمرو بن حوشب أن النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم قرأ في الفجر ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ رواه مسلم وعن عكرمة رحمه الله قال : قال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله : ما شيبك ؟ قال (شيبتني هود ، والواقعة ، والمرسلات ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت) وقال بن جرير الطبري : حدثنا الحسين بن الحريث ، قال: ثنا الفضل بن موسى ، عن الحسين بن واقد ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، قال : ثني أبيّ بن كعب ، قال : ستّ آيات قبل يوم القيامة : بينا الناس في أسواقهم ، إذ ذهب ضوء الشمس ، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم ، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحرّكت واضطربت واحترقت ، وفزِعت الجنّ إلى الإنس والإنس إلى الجنّ ، واختلطت الدوابّ والطير والوحش ، وماجوا بعضهم في بعض ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ قال : اختلطت ﴿ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ قال : أهملها أهلها ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ قال : قالت الجنّ للإنس : نحن نأتيكم بالخبر ، قال: فانطلقوا إلى البحار فإذا هي نار تأجج ؛ قال : فبينما هم كذلك إذ تصدّعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى ، وإلى السماء السابعة العليا ، قال: فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأماتتهم .

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ ﴾ قال بن عباس : أظلمت . وعنه : ذهبت . وعنه : ذهب ضوؤها وهو قول الضحاك والحسن وقتادة . وعنه : أغورت . وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد . وعن مجاهد : اضمحلت . وقال أبو صالح : نكست . وعنه : ألقيت . وقال الربيع بن خثيم : رمي بها . وعن أبي عبيدة : كورت مثل تكوير العمامة تلف فتمحى .

وقد جمع بن جرير بين الأقوال فقال : التكوير في كلام العرب : جمع بعض الشيء إلى بعض وذلك كتكوير العمامة وهو لفها على الرأس ، وكتكوير الكارة ، وهي جمع الثياب بعضها إلى بعض ولفها ، وكذلك قوله ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ إنما معناه جمع بعضها إلى بعضٍ ثم لفت فَرُمِي بها ، وإذا فُعِلَ ذلك بها ذهب ضوؤها . انتهى من تفسيره . وقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (الشمس والقمر مكوران يوم القيامة) قال بن حجر : زاد في رواية البزار ومن ذكر معه (في النار) فقال الحسن : وما ذنبهما ؟ فقال أبو سلمة : أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول ما ذنبهما .

وأخرج أبو يعلى معناه من حديث أنس وفيه (ليراهما من عبدهما) كما قال تعالى ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ قال الخطابي : ليس المراد بكونهما في النار تعذيبهما بذلك ولكن تبكيت لمن كان يعبدهما في الدنيا ليعلموا أن عبادتهم لهما كانت باطلاً ، وقيل : إنهما خلقتا من نارٍ فأعيدتا فيها . وقال الإسماعيلي : لا يلزم من جعلهما في النار تعذيبهما ، فإن لله في النار ملائكة وحجارة وغيرها لتكون لأهل النار عذاباً وآلةً من آلات العذاب وما شاء الله فلا تكون هي معذبة . انتهى من فتح الباري . قال بن قتيبة : ما مثل هذا إلا مثل رجلٍ سمع بقول الله تعالى ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ فقال : وما ذنب الحجارة . ذكره في موقع إسلام ويب . قال تعالى ﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ ﴾ سورة القيامة فالشمس والقمر كلاهما يذهب بضوئهما ويكوران ويلقيان في نار جهنم تبكيتاً لعابديهما .

﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ ﴾ قال أبي بن كعب ومجاهد والربيع بن خثيم والحسن البصري وأبو صالح وحماد بن أبي سليمان : تناثرت . وقال بن عباس : تغيرت . وقال الضحاك : تساقطت . وقال قتادة : تساقطت وتهافتت . والمعنى واحد .

﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ ﴾ عن أماكنها فصارت أثراً بعد عين . قال مجاهد : ذهبت . قال القرطبي : يعني قلعت من الأرض وسيرت في الهواء وهو مثل قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ من (٤٧) سورة الكهف . وقيل : سيرها تحولها عن منزلة الحجارة ، فتكون كثيباً مهيلاً أي رملاً سائلاً وتكون كالعهن ، وتكون هباءً منثوراً ، وتكون سراباً ، مثل السراب الذي ليس بشيء . انتهى من تفسيره .

﴿ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ ﴾ قال قتادة : سيبها أهلوها أتاهم ما شغلهم عنها فلم تصر ولم تحلب ولم يكن في الدنيا مال أعجب إليهم منها . وقال الربيع بن خثيم : لم تحلب ولم تصر وتخلى منها أهلها . والعشار هي النوق الحوامل لعشرة أشهر وحتى تلد وتحلب ، وهي أنفس مال العرب لكنهم عطلوها بتركها وترك حلبها وتصريتها ورعايتها وأهملوها لما دهمهم الأمر العظيم وهو يوم القيامة . قال البغوي : هي النوق الحوامل التي أتى على حملها عشرة أشهر ، واحدتها عُشَرَاء ، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع لتمام سنة ، وهي أنفس مال عند العرب ﴿ عُطِّلَتْ ﴾ تركت مهملةً بلا راعٍ أهملها أهلها وكانوا لازمين لأذنابها ، ولم يكن لهم مال أعجب إليهم منها ، لما جاءهم من أهوال يوم القيامة . انتهى من تفسيره . وقال القرطبي : أي النوق الحوامل التي في بطونها أولادها ، الواحدة عشراء أو التي أتى عليها في الحمل عشرة أشهر ، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع وبعدما تضع أيضاً... وقيل : العشار : السحاب يعطل مما يكون فيه وهو الماء فلا يمطر ، والعرب تشبه السحاب بالحامل . وقيل : الديار تعطل فلا تسكن . وقيل: الأرض التي يعشر زرعها تعطل فلا تزرع . والأول أشهر وعليه من الناس الأكثر . انتهى من تفسيره . قال بن كثير : وقد قيل في العشار : إنها السحاب يُعطَّل عن المسير بين السماء والأرض لخراب الدنيا . وقيل : إنها الأرض التي تُعشَّر . وقيل : إنها الديار التي كانت تسكن تُعَطَّل لذهاب أهلها . حكى هذه الأقوال كلها الإمام أبو عبد الله القرطبي في كتابه "التذكرة" ورجح أنها الإبل ، وعزاه إلى أكثر الناس . قلت : بل لا يعرف عن السلف والأئمة سواه ، والله أعلم . انتهى من تفسيره .

﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ ﴾ قال قتادة : إن هذه الخلائق موافيةً يوم القيامة فيقضي الله فيها ما يشاء . انتهى . فجعل الوحوش جميع الدواب . وقال البغوي والفيروز أبادي ﴿ ٱلْوُحُوشُ ﴾ يعني دواب البر . وقال بن منظور : الوحش كل شيءٍ من دواب البر مما لا يستأنس . انتهى . والوحوش جمع ومفردها وحش ووحشي يقال حمارُ وحشٍ وحمارٌ وحشي . وليس المراد بالوحوش الحيوانات المفترسة كما يعتقد البعض بل ربما يشمل جميع الدواب إذا كان المراد جمعها ليوم القيامة ليقتص لبعضها من بعض ، ولذلك قال المفسرون في معنى ﴿ حُشِرَتْ ﴾ أي جمعت في يوم القيامة للفصل بينها حتى أنه ليقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء كما ثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم . قال بن عباس : يحشر كل شيءٍ حتى الذباب . قال القرطبي : قال ابن عباس: تحشر الوحوش غداً أي تجمع حتى يقتص لبعضها من بعض ، فيقتص للجماء من القرناء ، ثم يقال لها كوني تراباً فتموت . وهذا أصح مما رواه عنه عكرمة ، وقد بيناه في كتاب" التذكرة" مستوفى ، ومضى في سورة" الانعام" بعضه . انتهى من تفسيره . وقيل معنى ﴿ حُشِرَتْ ﴾ أي اختلطت ، وهو قول أبي بن كعب وعليه يكون هذا الحشر في الدنيا عند النفخة الأولى ، قال أبو العالية : ست آيات من هذه السورة في الدنيا والناس ينظرون إليه وست في الآخرة ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ ﴾ إلى ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ ﴾ هذه في الدنيا والناس ينظرون إليه ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ ﴾ إلى ﴿ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ ﴾ هذه الآخرة . وعن ابن عباس وعكرمة والضحاك : حشرها موتها . وربما كان مرادهم أنه إذا اقتص لبعضها من بعض وقيل لها كوني تراباً فذلك موتها أي أنها بعد حشرها تموت . ورجح بن جرير أن معنى ﴿ حُشِرَتْ ﴾ أي جمعت لقوله تعالى ﴿ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ أي مجموعة .

﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ ﴾ قال بن عباس : تسجر حتى تصير ناراً . وقال شمر بن عطية : تسجر كما يسجر التنور . وقال مجاهد : أوقدت . وقال الحسن والضحاك : غار ماؤها فذهب . وقال قتادة : ذهب ماؤها ولم يبق منها قطرة . وقال الربيع بن خثيم وعكرمة : امتلأت وفاضت . وقال السدي : فتحت وسيرت . قال القرطبي : أي ملئت من الماء ، والعرب تقول : سجرت الحوض أسجره سجراً : إذا ملأته ، وهو مسجور ، والمسجور والساجر في اللغة : الملآن . وروي عن الربيع بن خيثم : سجرت : فاضت وملئت . وقاله الكلبي ومقاتل والحسن والضحاك . قال ابن أبي زمنين : سجرت : حقيقته ملئت فيفيض بعضها إلى بعض فتصير شيئاً واحداً . وهو معنى قول الحسن . وقيل : أرسل عذبها على مالحها ومالحها على عذبها حتى امتلأت . عن الضحاك ومجاهد : أي فجرت فصارت بحرا واحدا... وعن الحسن أيضاً وقتادة وابن حيان : تيبس فلا يبقى من مائها قطرة . القشيري : وهو من سجرت التنور أسجره سجراً : إذا أحميته ، وإذا سُلِطَ عليه الإيقاد نشف ما فيه من الرطوبة وتسير الجبال حينئذٍ وتصير البحار والأرض كلها بساطاً واحداً ، بأن يملأ مكان البحار بتراب الجبال . وقال النحاس : وقد تكون الأقوال متفقة ، يكون تيبس من الماء بعد أن يفيض بعضها إلى بعض فتقلب ناراً . انتهى من تفسيره . يعني أنها تفجر كقوله تعالى﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ ﴾ سورة الانفطار ويفتح بعضها على بعض حتى تمتلئ وتفيض على الأرض ثم تسجر وتوقد ناراً وحينئذٍ تتبخر حتى يغور ماءها ثم يذهب بالكلية حتى لا يبقى فيها قطرة وبذلك تجتمع الأقوال وتتفق الآيات .

﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ ﴾ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : يقرن بين الرجل الصالح مع الصالح في الجنة ، ويقرن بين الرجل السوء مع السوء في النار فذلك تزويج الأنفس . وقال عكرمة : يقرن الرجل في الجنة بقرينه الصالح في الدنيا ويقرن الرجل

الذي كان يعمل السوء في الدنيا بقرينه الذي كان يعينه في النار . وقال الربيع بن خثيم : كل رجلٍ مع صاحب عمله . وقال بن عباسٍ والضحاك وأبو العالية والشعبي : زوجت الأرواح بالأجساد . وقال قتادة والحسن : ألحق كل إنسانٍ بشيعته اليهودي باليهود والنصراني بالنصارى . وقيل : يقرن الغاوي بمن أغواه ، والمطيع بمن دعاه إلى الطاعة وهذا يشبه قول الربيع . وقيل : قرنت النفوس بأعمالها فصارت لاختصاصها به كالتزويج .

﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ ﴾ قال بن عباس : الموءودة هي المدفونة كانت المرأة في الجاهلية إذا هي حملت فكان أوان ولادها حفرت حفرةً فتمخضت على رأس تلك الحفرة فإن ولدت جاريةً رمت بها في تلك الحفرة وإن ولدت غلاما حبسته . قال القرطبي : الموءودة المقتولة ، وهي الجارية تدفن وهي حية ، سميت بذلك لما يطرح عليها من التراب فيؤودها أي يثقلها حتى تموت ، ومنه قوله تعالى ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ﴾ أي لا يثقله . انتهى من تفسيره . وسؤالها لتوبيخ قاتلها .

﴿ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ ﴾ قال قتادة : لا بذنب ، وكان أهل الجاهلية يقتل أحدهم ابنته ويغذو كلبه فعاب الله ذلك عليهم . قال القرطبي : وفية دليلٌ بيّن على أن أطفال المشركين لا يعذبون ، وعلى أن التعذيب لا يستحق إلا بذنب . انتهى . وقوله لا يعذبون يعني في الدنيا ، وأما في الآخرة فيمتحنون كما بيناه في كتابنا طريق الناجين فراجعه إن شئت .

﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ ﴾ النشر البسط والمد وهو خلاف الطي ، والصحف هي صحف الأعمال تنشر يوم القيامة فيرى كل إنسانٍ عمله . قال بن جريج : إذا مات الإنسان طويت صحيفته ثم تنشر يوم القيامة فيحاسب بما فيها . قال أبو الثوار العدوي : هما نشرتان وطية ، أما ما حييت يا ابن آدم فصحيفتك منشورةً فأملأ فيها ما شئت ، فإذا مت طويت ، حتى إذا بعثت نشرت .

﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ ﴾ قال مجاهد : اجتذبت . وقال السدي : كشفت . وقال الضحاك : ذهبت . قال البغوي : قال الفراء : نزعت فطويت . وقال الزجاج : قلعت كما يقلع السقف . وقال مقاتل : تكشف عمن فيها . ومعنى "الكشط" رفعك شيئاً عن شيءٍ قد غطاه ، كما يكشط الجلد عن السنام . انتهى من تفسيره معالم التنزيل . وقال القرطبي : الكشط : قلعٌ عن شدة التزاق ، فالسماء تكشط كما يكشط الجلد عن الكبش وغيره ، والقشط : لغةً فيه . وفي قراءة عبد الله (وإذا السماء قشطت) وكشطت البعير كشطاً : نزعت جلده ، ولا يقال سلخته ، لأن العرب لا تقول في البعير إلا كشطته أو جلدته وانكشط : أي ذهب ، فالسماء تنزع من مكانها كما ينزع الغطاء عن الشيء . وقيل : تطوى كما قال تعالى ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ من (١٠٤) سورة الأنبياء فكأن المعنى : قلعت فطويت . والله أعلم . انتهى من تفسيره . وقال القاسمي ﴿ كُشِطَتْ ﴾ أي : قلعت وأزيلت كما يكشط الإهاب عن الذبيحة ، كقوله تعالى ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ من (٤٨) سورة إبراهيم . انتهى من تفسيره محاسن التأويل . ولعل المراد والعلم عند رب العباد أنها تنزع وتقلع بسلخها عن هذه العوالم السفلية من الأرض والشمس والقمر والنجوم والكواكب والمجرات فإن السماء محيطة بها إحاطة السوار بالمعصم وإلا لما كانت سقفاً لها وحينئذٍ لابد عند قلعها

من سلخها عن هذه العوالم وهذا هو معنى قوله تعالى ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴾ ثم يكون بعد ذلك طيها لقوله تعالى ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ ثم بعد ذلك تزال بالكلية لقوله تعالى ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾

﴿ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ ﴾ قال قتادة والربيع بن خثيم : أوقدت . قال القرطبي : قال قتادة : سعرها غضب الله وخطايا بني آدم . وفي الترمذي عن أبي هريرة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال (أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت ، فهي سوداء مظلمة) وروي موقوفاً . انتهى من تفسيره .

﴿ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ ﴾ قال قتادة والربيع بن خثيم : قربت . وقال الحسن : إنهم يقربون منها لا أنها تزول عن موضعها .

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ ﴾ جواب القسم الأول إذا وقع ما ذكرنا حينئذٍ يعلم الإنسان عمله الذي قدمه في الدنيا فيفرح بالعمل الصالح ويتحسر من عمل السوء .

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ ﴾ اختلف فيها أهل العلم على أقوال :

القول الأول / أنها الكواكب والنجوم جميعاً تكنس بالليل وتخنس بالنهار فلا ترى ، وهو قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه والحسن وقتادة ومجاهد .

القول الثاني / أنها الكواكب الخمسة الدراري : زحل والمشتري وعطارد والمريخ والزهرة وهو قول بن عباسٍ رضي الله عنهما وبكر بن عبد الله المزني . قال القرطبي : وفي تخصيصها بالذكر من بين سائر النجوم وجهان : أحدهما : لأنها تستقبل الشمس ، قاله بكر بن عبد الله المزني . الثاني : لأنها تقطع المجرة ، قاله ابن عباس . انتهى من تفسيره .

القول الثالث / أنها بقر الوحش ، وهو قول بن مسعودٍ وجابر بن عبد الله وإبراهيم النخعي ورواية عن الحسن وقال أبو ميسرة وهو عمرو بن شرحبيل : قال لي عبد الله بن مسعود : إنكم قوم عرب فما الخنس ؟ قلت : هي بقر الوحش . قال : وأنا أرى ذلك . وعن بن عباسٍ رضي الله عنهما قال : هي البقر تكنس إلى الظل .

القول الرابع / أنها الظباء . وهو مروي عن ابن عباس وهو قول جابر بن زيد ورواية عن مجاهد .

القول الخامس / وهو قول عكرمة أن الخنس : البقر . والكنس : الظباء .

القول السادس / أنها الوحش تكنس لأنفسها في أصول الشجر تتوارى فيه . وهو مرويٌ عن ابن عباس .

وأصل الخنوس : يطلق على التأخر والانقباض والرجوع والتواري والمغيب وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم لقيه في بعض طرق المدينة وهو جنب قال : فانخنست منه . فذهبت فاغتسلت ثم جئت فقال (أين كنت يا أبا هريرة ؟ قال : كنت جنباً فكرهت أن أجالسك على غير طهارة . فقال : سبحان الله ! إن المؤمن لا ينجس) قال بن رجب :

أي : تواريت واختفيت منهُ ، وتأخرت عَنهُ ، ومنه : الوسواس الخناس وَهوَ الشيطان ، إذا غفل العبد عَن ذكر الله وسوس لَهُ ، فإذا ذكر الله خنس وتأخر . ومنه سميت النجوم خنساً ، والخناسها : رجوعها وتواريها تحت ضوء الشمس ، وقيل : اختفاؤها بالنهار . انتهى من فتح الباري . والمعنى واحد . وقال بعضهم سميت خنساً لتأخرها وهي الكواكب المتحيرة التي تجري ثم تتأخر وترجع . والظباء وبقر الوحش تخنس أيضاً .

وأصل الكنوس : المغيب والاستتار والتخفي ، والكنَّس جمع ومفردها كانِس وكانِسة ، يقال كنس الظبي أي دخل في كِناسه وهو موضعه في الشجر يكتن فيه من الحر ويستتر فيه عن الأنظار ومثله بقر الوحش ، ويطلق على الكواكب السيارة كُنَّس لأنها تكنس في المغيب أي تستتر . قال ابن منظور : قال الفراء في الخنس والكنس : هي النجوم الخمسة تخنس في مجراها وترجع ، وتكنس تستتر كما تكنس الظباء في المغار وهو الكِناس ، والنجوم الخمسة : بهرام وزحل وعطارد والزهرة والمشتري . وقال الليث : هي النجوم التي تستتر في مجاريها فتجري وتكنس في محاويها فيتحوى لكل نجمٍ حوي يقف فيه ويستدير ثم ينصرف راجعاً ، فكنوسه مقامه في حويه ، وخنوسه أن يخنس بالنهار فلا يرى . انتهى من لسان العرب . وبهرام هو المريخ .

فتبين أن الكواكب والنجوم وكذلك الظباء وبقر الوحش كلها تخنس وتكنس فلذلك حمل الآية على العموم أولى من حملها على البعض واطراح البعض الآخر ولذلك قال بن جرير الطبري : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب : أن يقال : إن الله تعالى ذكره أقسم بأشياء تخنس أحياناً : أي تغيب ، وتجري أحيانا وتكنس أخرى ، وكنوسها : أن تأوي في مكانسها ، والمكانس عند العرب : هي المواضع التي تأوي إليها بقر الوحش والظباء ... وغير مُنكرٍ أن يستعار ذلك في المواضع التي تكون بها النجوم من السماء ، فإذا كان ذلك كذلك ، ولم يكن في الآية دلالة على أن المراد بذلك النجوم دون البقر ، ولا البقر دون الظباء ، فالصواب أن يُعَمّ بذلك كلّ ما كانت صفته الخنوس أحياناً والجري أخرى ، والكنوس بآنات على ما وصف جلّ ثناؤه من صفتها . انتهى من تفسيره

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧ ﴾ اختلف أهل العلم في معنى هذه الآية فقيل : إذا أدبر . وهو قول علي بن أبي طالب وابن عباس وقتادة والضحاك وابن زيد ورجحه بن جرير للآية التي بعدها وأنه تعالى أقسم بإدبار الليل وإقبال النهار . وعن بن عباس : إذا أقبل . وعن مجاهد قال : إقباله ويقال : إدباره . وعن الحسن : إذا غشي الناس . وعن مقاتل : إذا أظلم . قال بن منظور: كان أبو حاتم وقطرب يذهبان إلى أن هذا الحرف من الأضداد ... وكان أبو عبيدة يقول عسعس الليل أقبل وعسعس أدبر ... وقال أبو إسحاق السري : عسعس الليل إذا أقبل وعسعس إذا أدبر ، والمعنيان يرجعان إلى شيءٍ واحد وهو ابتداء الظلام في أوله وإدباره في آخره . انتهى من لسان العرب .

﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨ ﴾ قال بن عباس : إذا بدا النهار حين طلوع الفجر .

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ﴾ جبريل عليه السلام قاله بن عباس وقتادة . والقرآن كلام الله جل وعلا أوحاه الله إلى جبريل عليه السلام وقاله له ، وجبريل أوحاه إلى النبي محمدٍ صلى الله عليه وسلم وقاله له ، فهو قوله على جهة البلاغ لا أنه هو الذي

تحدث به أولاً . وهذا مثل قوله تعالى ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ فجعل القرآن من قول النبي محمدٍ صلى الله عليه وسلم لكن على جهة البلاغ ولذلك تهدده فيما لو زاد شيئاً من عنده غير ما قاله الله له وحاشاه ذلك فقال ﴿ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴾ إلى آخر الآيات .

﴿ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ ﴾ جبريل عليه السلام قويٌ لا يعجز عن تنفيذ ما أُمِرَ به ، وله مكانة عند الله جل وعلا صاحب العرش ف﴿ ذِي ٱلۡعَرۡشِ ﴾ بمعنى صاحب ومالك العرش ، والعرش عند العرب سرير الملك ومنه قوله تعالى عن ملكة سبأ ﴿ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴾ سورة النمل لكن عرش الرحمن لم يرد لنا بيان شكله فلا نخوض فيما لا علم لنا به وقد ورد عن بن عباس أنه قال : الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدر أحد قدره . رواه بن خزيمة في التوحيد وابن أبي شيبة في العرش والدارمي في الرد على المريسي وعبد الله بن الإمام أحمد في السنة والحاكم في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي وصححه الألباني في مختصر العلو وأحمد شاكر في عمدة التفسير

﴿ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ ﴾ أي جبريل تطيعه الملائكة فهو سيد الملائكة ، وهو أيضاً أمين الله على وحيه فهو الملك الموكل بالوحي بين الله جل وعلا وبين رسله من البشر لا يغير ولا يبدل شيئاً مما أوحاه الله إليه .

﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ ﴾ أي محمد صلى الله عليه وسلم ليس بمجنون ، وليس كلامه بهذيان ، بل يقول الحق ، وذلك أن الكفار اتهموا النبي صلى الله عليه وسلم بأنه بمجنون لما رأوه يتكلم عن الله وعن جبريل وعن القرآن فأخبرهم الله جل وعلا بأن ما يقوله نبيه صلى الله عليه وسلم هو الحق وليس بهذيان المجانين بل هو الكامل في عقله وأخلاقه وصفاته صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ ﴾ رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام له ستمائة جناح قد سد الأفق قاله بن مسعود . وقال قتادة : كنا نتحدث أن الأفق من حيث مطلع الشمس . وقد روى الإمام مسلم عن مسروق قال : كنت متكئاً عند عائشة فقالت : يا أبا عائشة ثلاثٌ من تكلم بواحدةٍ منهن فقد أعظم على الله الفرية . قلت : ما هن ؟ قالت : من زعم أن محمداً صلى الله عليه و سلم رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية . قال : وكنت متكئاً فجلست فقلت : يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجليني ألم يقل الله عز وجل ﴿ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ ﴾ ﴿ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ سورة النجم فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض ... الخ) والسنة تفسر القرآن فالأفق هو ما بين السماء إلى الأرض .

﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ ﴾ عن ابن عباس ﴿ بِضَنِينٖ ﴾ ببخيل . وعنه : بمتهم . وعن بن مسعود : ما هو على القرآن بمتهم وعن إبراهيم النخعي : الظنين المتهم والضنين البخيل . وعن زر : في قراءتنا (بظنين) متهم وفي قراءتكم ﴿ بِضَنِينٖ ﴾ ببخيل وعن مجاهد : : ما كان يضن عليكم بما يعلم . وعن عكرمة : لم يضن بما أنزل الله عليه . وعن قتادة : كان هذا القرآن غيباً أعطاه الله تعالى محمداً فبذله وعلمه ودعا إليه وما ضنَّ به . وعن الزهري : لا يضن بما أوحي إليه . قال بن جرير : اختلفت القرّاء في قراءة ذلك ، فقرأته عامة قرّاء المدينة والكوفة (بِضَنِينٍ) بالضاد ، بمعنى أنه غير بخيل عليهم بتعليمهم ما علَّمه الله وأنزل

إليه من كتابه . وقرأ ذلك بعض المكيين وبعض البصريين وبعض الكوفيين (بِظَنِينٍ) بالظاء بمعنى أنه غير متهم فيما يخبرهم عن الله من الأنباء .

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ أي أن هذا القرآن هو قول الله جل وعلا وليس بقول شيطانٍ رجيم ، وذلك أن كفار قريش يزعمون أن الذي يأتي النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن هو شيطان ، ولذلك لما تأخر عنه الوحي مرةً قالوا : ما نرى شيطانك إلا قد تركك . فرد الله عليهم بأن القرآن هو قوله وليس بقول شيطان ، بل بيَّنَ في آياتٍ أخر أن الشياطين لا تستطيع أن تأتي بمثله كما قال تعالى ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾

والشيطان اسمٌ لإبليس وهو من شَطُنَ إذا بَعُدَ أو من شاط إذا احترق ويمكن أن يشمل ذلك فهو بعيدٌ عن الله وبعيدٌ عن كل خير وهو مخلوقٌ من نار وسيصلى النار ، والرجيم المرجوم المطرود من رحمة الله ومن كل خير .

﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ أي أين يُذهب بعقولكم ؟ لماذا تعدلون عن هذا القرآن مع اتضاح الحق فيه وبيان أنه من عند الله جل وعلا ؟ قال قتادة : أين تعدلون عن كتابي وطاعتي . وقال الزجاج : فأي طريقة تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بينت لكم .

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ أي هذا القرآن موعظة للخلق أجمعين

﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ ﴾ أن يتبع الحق ويستقيم عليه .

﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ وما تستطيعون أن تفعلوا ذلك ولو شئتم إلا بمشيئة الله ، فإن شاء وفقكم لذلك العمل الصالح والاستقامة وإن شاء خذلكم ، وذلك ناشئٌ عن علمه السابق بنيات العباد ، فمن كانت نيته طيبةً وفقه للعمل الصالح ، ومن كانت نيته خبيثة خذله ولم يوفقه لعمل الصالحات ، فنسأل الله أن يصلح نياتنا إنه جواد كريم .

من دروس سورة التكوير :

أولاً / عظم أهوال يوم القيامة وما يكون فيه من الأمور العظام التي تشيب لها الوالدان وتضع الحوامل ما في بطونها ، وإنما سيق ذكر ذلك لأخذ الحيطة والحذر ، فإنما تقوم على شرار الخلق أهل الكفر والمعاصي ، ولا تقوم على المؤمنين ولا يشعرون بشيءٍ من أهوالها ، فلذلك ينبغي المحافظة على الدين فهو رأس المال ومنجاة العبد في الدنيا والآخرة ، ولا يلتفت إلى زخرف الدنيا وشهواتها المحرمة فإنها زائلة وتعقبها الحسرات .

ثانياً / أن الله تعالى يقتص للمظلوم ممن ظلمه ، ومن أولئك المظلومين الموءودة وهي التي قتلت صغيرة بلا ذنبٍ جنته ولا جرمٍ اقترفته إلا خشية العار كما يزعمون ، وقد فعلوا والله العار بقتلهم لبناتهم ووجبت لهم بذلك النار إلا من أدركته رحمة العزيز الغفار فتاب وآمن فإن الله يتوب على من تاب ويعوض المظلوم بتعويضٍ من عنده جل وعلا يرضى به ولا يطالب بغيره .

ثالثاً / أن جبريل عليه السلام عظيم المنزلة عند الله جل وعلا ، كريم ، أمين ، قوي ، ذو مكانة عند ذي العرش أي صاحب العرش وهو الله جل وعلا ، فينبغي تعظيم من عظمه الله جل وعلا وتوقيره ومحبته ، ولا يكن كاليهود الذين يقولون إن جبريل عدونا من الملائكة ، فردَّ الله عليهم بقوله ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ سورة البقرة وهكذا بعض طوائف الشيعة الباطنية يسمونه الخائن ويزعمون أن الله أرسله بالرسالة لعلي فخالف أمر الله وأعطى الرسالة لمحمد وينشدون : خان الأمين وصدها عن حيدره .

رابعاً / أن للعبد مشيئة لكنها تابعة لمشيئة الله فلا يشاء إلا ما شاءه الله له ، فمثلاً الهداية والاستقامة على الدين بيد الله وحده وليست للعبد ، فمن أراد الله له الهداية والاستقامة فسيهتدي ويستقيم ولن يضله أحد مهما ذكر له من الشبهات أو أغراه بالشهوات ، ومن أراد الله إضلاله فلن يهتدي مهما كان طريق الهداية واضحاً بيناً أمامه فلن يسلكه ولن يستقيم عليه . وهداية الله للعبد أو إضلاله له كائنة عن علم الله السابق بالعبد فمن علم الله أنه سيختار طريق الهداية يسر له ذلك ، ومن علم أنه سيختار طريق الغواية يسر له ذلك فكلٌ ميسرٌ لما خلق له .

سورة الانفطار مكية وآياتها (١٩)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ﴿٤﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ﴿١٤﴾ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾

تفسير سورة الانفطار

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾ ﴾ يوم القيامة في النفخة الأولى تتفطر السماء وكانت قبل ذلك محبوكةً لا فطور فيها كما قال تعالى ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴿٤﴾ ﴾ سورة الملك لكن لما أراد الله فناء الدنيا تفطرت السماء وتشققت ثم نزعت وطويت وذُهِبَ بها وجيء بسماءٍ جديدةٍ للدار الآخرة كما قال تعالى ﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ سورة إبراهيم

﴿ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ ﴾ تساقطت بعد أن كانت زينةً للسماء الدنيا ، لكن الملك الجبار قد أذن برحيل الدنيا وزوالها وزوال ما فيها .

﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ ﴾ بعضها على بعض حتى امتلأت بها الأرض ثم أوقد عليها حتى صارت ناراً تتأجج ثم تبخرت وتلاشت حتى ذهب ماؤها بالكلية لما أذن الله بزوال الدنيا وما فيها .

﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ ﴾ بحثت واستخرج من فيها من الموتى أحياء وهذا هو البعث عند النفخة الثانية . قال بن جرير : وإذا القبور أُثيرت فاستخرج من فيها من الموتى أحياء ، يقال: بعثر فلانٌ حوض فلانٍ : إذا جعل أسفله أعلاه . انتهى من تفسيره .

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ ﴾ وحين يبعث الإنسان ويناول صحيفة عمله يعلم ما قدم من العمل وما أخر ، واختلف في ذلك فقيل : ما قدم من عمل الخير الذي عمله ، وما أخر من عمل الخير الذي تركه وضيعه فلم يعمل به ، وقيل : ما قدم أي ما عمل من الخير والشر ، وما أخر ما ترك من الخير والشر ، وقيل : ما قدم أي ما عمله بنفسه من الخير والشر ، وما أخر ما سنه من سنةٍ عُمِلَتْ بعده فله أجرها وعليه وزرها وهو الذي رجحه الطبري والجزائري لأن ما عمله من خيرٍ أو شر كان مما قدمه ، وما ترك من الخير الواجب كان شراً قدمه ، وما ترك من الشر المحرم كان خيراً قدمه ، فكل ما عمل أو ترك في حياته كان مما قدمه لنفسه ، وأما ما سنه من خيرٍ أو شرٍ عُمِلَ بعده فهو مما أخر لنفسه .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ﴾ أي من الذي خدعك وجرأك أيها الإنسان حتى تكفر وتعصي ربك الكريم وكان الواجب أن تحسن العمل لله كما أحسن الله إليك فإن الله هو ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾ خلقك من عدم وجعلك سوي الخلقة كما قال تعالى ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ وقوله ﴿ فَعَدَلَكَ ﴾ اختلف المفسرون في معناها بناءً على اختلاف القراءة فعلى قراءة عامة أهل المدينة ومكة والشام والبصرة بالتشديد (فعدَّلك) أي جعلك معتدلاً سوياً . وعلى قراءة عامة أهل الكوفة ومنهم حفص بالتخفيف ﴿ فَعَدَلَكَ ﴾ يكون المعنى صرفك وأمالك إلى أي صورة شاء ، إن شاء جعلك في صورةٍ حسنة ، وإن شاء جعلك في صورةٍ قبيحة ، وإن شاء جعلك تام الخلقة ، وإن شاء جعلك ناقص الخلقة ، من العدول أي أن الأصل في خلقة الله للإنسان أن يكون تام الخلقة سويها لكن قد يعدل الرب عن ذلك فيجعل بعض الناس ناقص الخلقة أو قبيحها لحكمةٍ يعلمها ولا نعلمها وقد يكون منها الابتلاء والامتحان . وعلى قراءة من قرأ بالتشديد (فعدَّلك) يكون معنى قوله تعالى ﴿ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾ أي على صورة الأب أو الجد أو الخال أو العم أو أي صورةٍ أخرى شاءها سواءً كان لها نظير في البشر أو ليس لها نظير . وهذا المعنى الأخير هو الأصح عند الأكثر لأن الآيات سيقت في بيان الامتنان على الإنسان فلا يناسب أن يذكر له قبيح الخلقة وناقصها . وقد تكون الآيات سيقت للامتنان من جهة ، والتخويف من جهة أخرى ، أي أن الله الذي صورك على هذه الصورة قادرٌ أن يغير صورتك فيجعلك في صورة حمارٍ أو قردٍ أو خنزير ، وقد فعل ذلك بأقوام عصوه فمسخهم إلى قردة وخنازير وقال النبي صلى الله عليه وسلم (أما يخشى أحدكم إذا رفع رأسه قبل الإمام أن يجعل الله رأسه رأس حمار أو يجعل الله صورته صورة حمار) رواه البخاري ومسلم

وقد قيل إن الذي غر الإنسان بربه هو الشيطان كما قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦ ﴾ سورة فاطر وقيل غرته الدنيا بزخرفها ، وقيل غره الجهل ، وقيل غره الحمق ، وقيل غره إمهال الله له ، والصحيح أنه يشمل ذلك كله ، فكل سببٍ حال بين الإنسان وبين ربه فقد غُرَّ به .

﴿ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ ﴾ قد يكون كلا بمعنى حقاً أي حقاً إن الذي يحملكم على الغرور والتمادي في الكفر والعصيان هو تكذيبكم بالدين وهو البعث والجزاء والحساب ، أو يكون كلا بمعنى لا أي ليس الأمر أنكم تنكرون أن الله هو الذي خلقكم وسواكم وعدلكم بل الذي غركم وجعلكم تتمادون في الكفر والعصيان هو التكذيب بالبعث والجزاء والحساب .

﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ۝١٢ ﴾ هؤلاء هم الملائكة الموكلون بكتب أعمال ابن آدم وتدوينها في صحيفة عمله وحفظها وقد وُكِّلَ بكل شخصٍ ملكان أحدهما عن يمينه ويكتب الحسنات والآخر عن شماله ويكتب السيئات كقوله تعالى ﴿ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ۝١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ۝١٨ ﴾ سورة ق وقد اختلف فقيل يعلمون كل شيءٍ يفعله الإنسان بناءً على هذه الآية ، وقيل لا يعلمون إلا ما ظهر دون ما حدَّثَ به نفسه ، ولا شك أن حديث النفس ليس بعملٍ ولا يحاسب عليه العبد حتى يعمل به .

بعد أن ذكر الله جل وعلا الملائكة الحفظة الكرام الكاتبين بيَّن أن الناس بحسب أعمالهم المدونة عليهم ينقسمون إلى قسمين : القسم الأول ﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝١٣ ﴾ الأبرار جمع بَرٍّ وهو المؤمن التقي المطيع ، فالأبرار هم الذين يعملون الطاعات ويجتنبون المنكرات فأولئك يكون جزاؤهم جنات يتنعمون فيها . وقيل يكونون في نعيمٍ في الدنيا والآخرة فأما في الآخرة ففي الجنة يتنعمون ، وأما في الدنيا فهم في راحةٍ وطمأنينةٍ وسعادةٍ لو علم بها الملوك وأبناء الملوك لجالدوهم عليها بالسيوف .

والقسم الآخر ﴿ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ۝١٤ ﴾ الفجار جمع فاجر والفاجر الفاسق المنبعث في المعاصي ويطلق على الكذب فيقال يمين فاجرة أي كاذبة ويطلق على الكافر فاجر لفسوقه وتكذيبه بالحق . قال بن منظور : الفجور أصله الميل عن الحق ... والكاذب فاجر والمكذب فاجر والكافر فاجر لميلهم عن الصدق والقصد ، وقول الأعرابي لعمر فاغفر له اللهم إن كان فجر أي مال عن الحق وقيل في قوله ﴿ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ﴾ أي ليكذب بما أمامه من البعث والحساب والجزاء ، وقول الناس في الدعاء : ونخلع ونترك من يفجرك . فسره ثعلب فقال : من يفجرك من يعصيك ومن يخالفك . انتهى من لسان العرب . فالفجار هم الكفرة المكذبون الخارجون عن طاعة الله فأولئك مصيرهم إلى الجحيم . والجحيم اسمٌ من أسماء جهنم ، ومعنى الجحيم في اللغة أي النار الشديدة التأجج قال تعالى في قصة إبراهيم ﴿ قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ۝٩٧ ﴾ سورة الصافات

﴿ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ ﴾ وسوف يصلون هذه الجحيم في اليوم الآخر يوم الجزاء والحساب .

﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ أي لا يخرجون منها أبداً فيغيبون عنها ، ولكن سيكونون حاضرين فيها دوماً يذوقون أليم حرها وشديد عذابها . وهذا من الأدلة على عدم فناء النار وأنها أبدية .

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ﴾ أي وما أشعرك يا محمد ما يوم الجزاء والحساب تعظيماً لشأنه وتهويلاً لأمره ﴿ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ ﴾ كرره للتأكيد على عظيم شأنه .

﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾ في ذلك اليوم لا يستطيع أحد أن ينفع أحداً أو يضره فقد ذهبت المناصب والرئاسات وجعل الله الأمر هنالك له وحده ، ولا يأذن لأحدٍ بتصرف كما كان يأذن لهم في الدنيا كما قال تعالى ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ سورة الحج من (٥٦) والأمر والملك لله في الدنيا والآخرة ، ولكن لما كان في الدنيا ملوك وأصحاب رئاساتٍ ومناصب يأمرون وينهون ويحكمون في الناس ، خصَّ الله جل وعلا نفسه في الآخرة بالملك والأمر فلم يشاركه أحدٌ هنالك . قال قتادة : الأمر والله اليوم لله ولكن يومئذٍ لا ينازعه أحد . وعنه : ليس ثم أحدٍ يومئذٍ يقضي شيئاً ولا يصنع شيئاً إلا ربّ العالمين . ذكرهما الطبري في تفسيره .

من دروس سورة الانفطار :

أولاً / عظم هول يوم القيامة حيث تتفطر السماء وتتناثر الكواكب وتتفجر البحار فهو مشهدٌ مهيبٌ عظيمٌ تشيب منه الولدان ، وتضع الحوامل ما في بطونها ، غير أنه لا يكون إلا على شرار الناس ، والمؤمنون منه في غفلة لا يشعرون به .

ثانياً / أن الله يطلع العباد في الدار الآخرة على أعمالهم التي عملوها في الدنيا بأنفسهم أو الأعمال التي حثوا الناس عليها وكانوا سبباً في إيجادها منهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وهذا يدعوا الإنسان إلى الحذر من أن يخلف أمر سوءٍ يجري عليه وزره بعد مماته ، ويدعوه إلى أن يخلف عملاً صالحاً يجري عليه أجره بعد مماته . قال عليه الصلاة والسلام (إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثةٍ : إلا من صدقةٍ جارية أو علمٍ ينتفع به أو ولدٍ صالح يدعو له) رواه مسلم

ثالثاً / أن على الإنسان أن يتفكر في نفسه ، وأن الله أكرمه إذ خلقه بهذه الصورة السوية ، وميزه عن غيره فقلَّ أن تجد متشابهين في الصورة من كل الوجوه على كثرة البشر وانتشارهم في الأرض ، فالواجب عليه أن يشكر ربه على هذه النعمة فيعبده وحده ولا يشرك معه غيره ، لكن الذي منع أكثر الناس من شكر المنعم جل وعلا وجعلهم يكفرون به إنكارهم للبعث ، ولو تفكروا قليلاً لعلموا أن الذي خلقهم بهذه الصورة قادرٌ على إعادة خلقهم للبعث والجزاء .

رابعاً / أن على الإنسان حفظةً من الملائكة الكرام يكتبون كل ما يقوله الإنسان ويعمله حتى يوفاه يوم القيامة ، فإن كان ممن عمل الصالحات وترك المنكرات كان من الأبرار وهو في نعيم ، وإن كان عكس ذلك كان من الفجار وهو في جحيم فليخش الإنسان أن يسجل عليه عمل سوءٍ فيحشر مع الفجار ، وليكثر من العمل الصالح لعله يكتب من الأبرار فيفوز برضى العزيز الغفار .

خامساً / في يوم القيامة تنتهي الأمارات والولايات ، فلا يأمر أحد من البشر أحداً ولا ينهي ، وإنما الآمر الناهي هو الله جل وعلا ، وإن كان هو الآمر الناهي في الدنيا لكنه جعل لبعض البشر سلطة الأمر والنهي ، وأما في الآخرة فلا آمر ولا ناهي ولا حكم إلا الحكم العدل جل في علاه .

سورة المطففين مكية وآياتها (٣٦)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ

﴿ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

تفسير سورة المطففين

﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ﴾ ويلٌ كلمة تهديدٍ ووعيد ، وقيل اسمٌ لوادٍ في جهنم توعد الله به المطففين ، وقد فسر الله المطففين بقوله ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ أي إذا اكتالوا لأنفسهم استوفوا فأخذوا حقهم وافياً . وإذا كالوا للناس أو وزنوا لهم ينقصون في الكيل والوزن فلا يوفونهم حقهم كاملاً .

﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥﴾ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ ألا يعتقد هؤلاء المطففين أنهم سيبعثون من قبورهم أحياءً ليومٍ عظيم وهو يوم القيامة ، في ذلك اليوم يقف الناس في أرض المحشر هيبةً وخوفاً وتعظيماً لله رب العالمين في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة ، وتدنو الشمس من الناس حتى تكون كمقدار ميل ، فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق ، فمنهم من يكون إلى كعبيه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً . وقيل ﴿ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ ليقضي بينهم . وهذا التهديد للمطففين يدل على خطورة التطفيف ، وأنه أمرٌ لا ينبغي أن يستهان به .

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ﴿٧﴾ ﴾ قد تكون كلا كلمة ردعٍ وزجر أي لا تفعلوا ذلك التطفيف فإن كتاب الفجار لفي سجين ، أي أن الذي يفعل التطفيف من الفجار وهو في سجين ، أو تكون كلا بمعنى حقاً ، أي حقاً إن كتاب الفجار لفي سجين ، والفجار هم الكفرة المكذبون الخارجون عن طاعة الله ، وسجين فعيلٌ من السجن ، كما يقال : فسِّيق وشرِّيب وسكِّير . وهذا السجن في الأرض السفلى ففي حديث البراء بن عازب الطويل في عذاب القبر ونعيمه (فيقول الله عز وجل اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى فتطرح روحه طرحاً) وإنما وضعت كتبهم هناك ، لأن الكافر لا يرفع له عمل ولا يستحق أن تكون كتبهم عند الله في العلو ، وكذا أرواحهم في السفل .

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ﴿٨﴾ ﴾ أي وما أعلمك ما سجين ؟ على جهة التعظيم والتهويل لأمره .

﴿ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٩﴾ ﴾ كتاب مسطور واضح الكتابة أو معلمٌ بعلامة ، يقال ثوبٌ مرقوم أي قد وشَّاه وطرَّزه وخطَّطه . قال بن منظور : الرقم والترقيم : تعجيم الكتاب . ورقم الكتاب يرقمه رقماً : أعجمه وبينه . وكتابٌ مرقوم أي قد بينت حروفه بعلاماتها من التنقيط وقوله عز وجل ﴿ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴾ كتاب مكتوب . انتهى من لسان العرب . قال القرطبي : قال قتادة : مرقوم أي مكتوب ، رُقِمَ لهم بشرٍ : لا يزادُ فيهم أحد ، ولا ينقصُ منهم أحد . وقال الضحاك : مرقوم : مختوم بلغة حمير . وأصل الرقم الكتابة ، قال : سأرقم في الماء القراح إليكم ... على بعدكم إن كان للماء راقم . انتهى من تفسيره . أي سأكتب .

قال بن كثير والبغوي : ليس هذا تفسيراً للسجّين ، وإنما هو تفسيرٌ لكتاب الفجار ، أي أن كتاب الفجار مكتوبٌ فيه أعمالهم مثبتة عليهم كالرقم في الثوب لا يمحى ولا ينسى .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ ويلٌ كلمة تهديدٍ ووعيد تعني الهلاك والدمار ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم القيامة ﴿ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ ﴾ يوم الجزاء والحساب ﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ ﴾ وما يكذب باليوم الآخر إلا كل ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ الاعتداء التجاوز عن الحد ويشمل التعدي في حق الله تعالى وهو اتخاذ الأنداد مع الله والشركاء والشفعاء ، ويشمل التعدي في حق العباد وهو الظلم لهم و﴿ أَثِيمٍ ﴾ مبالغ في الإثم بارتكاب القبائح والموبقات . قال مقاتل : معتد شك في نعمة الله وتعبد غيره وأثيم بقلبه . وقال بن كثير : معتد في أفعاله وأثيم في أقواله . وروى بن جرير عن قتادة : معتد في قوله أثيم بربه . وقال بن زمنين : معتد ظالم وأثيم آثم وهو المشرك . وقال القرطبي: معتد على الخلق في معاملته إياهم وعلى نفسه وهو أثيم في ترك أمر الله . وقال السعدي : معتدٍ على محارم الله ، أثيم كثير الإثم . انتهى . ونلاحظ أن أكثر المفسرين في هذه الآية جعلوا المعتدي والآثم كله على حق الله تعالى ، بينما في سورة القلم في قوله تعالى ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ ﴾ جعلوا المعتدي على حق العباد أي الظالم ، ولعلهم أخذوا ذلك من سياق الآيات ، ففي سورة القلم تتحدث الآيات عن شخصٍ كثير الحلف ولعله في البيع ونحوه يهمز الناس ويمشي بالنميمة وكل ذلك من حقوق الناس قال تعالى ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ ﴾ فناسب أن يكون معنى الاعتداء في الآية منصباً على حقوق الناس ، بينما الآيات في سورة المطففين تتحدث عن اليوم الآخر والحساب والعذاب وكله لله ، فناسب أن يكون معنى الاعتداء في الآية منصباً على حقوق الله ، وإنما رجحنا شمول المعنيين لأن من اعتدى على حقوق الله تعالى فهو حريٌ أن يعتدي على حقوق الناس . ومن اعتدى على حقوق الناس فقد اعتدى على حق الله تعالى فإن الله تعالى قد حرم الظلم .

﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ إذا تليت على هذا المكذب بالدين المعتدي الأثيم آيات الله أي القرآن قال كبراً وعناداً ﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي ما سطره الأولون وكتبوه وتحدثوا به من القصص والأخبار التي لا حقيقة لها .

﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ أي ليس الأمر كما يزعمون من أنه أساطير الأولين ولكن ﴿ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ يعني من السيئات أي غطت على قلوبهم وحجبتهم عن الله وعن الاتعاظ بكتابه وتصديق رسله كما يقال رانت الخمر على عقله أي غطت عليه وغلبت على عقله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب واستغفر صقل قلبه ، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه ، فذلكم الران الذي ذكر الله تعالى ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ رواه أحمد والترمذي وابن ماجه . ويمكن أن يكون كلا بمعنى حقا أي حقاً قد ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون من السيئات .

﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ أي حقاً إن هؤلاء المكذبين بالدين الذين يعتقدون في الله وفي كتابه ورسله الاعتقاد الباطل جزاؤهم أن يحجبوا عن الله جل وعلا في الدار الآخرة فلا يرونه ، وإنما يتنعم المؤمنون برؤيته ، وهذا من أوضح الأدلة في

الرد على منكري الرؤية من نفاة الصفاة ، فإنه لما حجب أولئك عن رؤيته في حال السخط ، دلَّ على أن أوليائه يرونه في حال الرضا . كما قال ذلك الشافعي رحمه الله .

﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ﴾ وأيضاً يصلون النار شديدة التأجج وهي نار جهنم .

﴿ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ وهم في النار يصلون حرها يقال لهم هذه هي النار التي كنتم تكذبون بها كقوله تعالى ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ سورة الطور وقوله ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ سورة يس

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ ﴾ يخبر تعالى عن الصنف الثاني وهم أولياءه الذين امنوا بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر وبروا أنفسهم فرفعوها ولم يوقعوها في المهالك ، وبروا الله بأداء فرائضه واجتناب محارمه ، فأولئك يكون كتابهم في عليين جمع عِلِّي أي أعلى مكان ، قيل أعلى الجنة ، وقيل أعلى سماءٍ وهي السماء السابعة وأن كتاب الأبرار في موضعٍ في السماء السابعة ، وقيل عند سدرة المنتهى ، وقيل عند قائمة العرش اليمنى ، قال الطبري : والصواب أن يقال في ذلك كما قال جلّ ثناؤه : إن كتاب أعمال الأبرار لفي ارتفاعٍ إلى حدٍّ قد علم الله جلّ وعزّ منتهاه ولا علم عندنا بغايته ، غير أن ذلك لا يقصر عن السماء السابعة لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك . انتهى من تفسيره

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ ﴾ أي وما أعلمك ما عليون ؟ على جهة التعظيم والتشويق .

﴿ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ كتابٌ مختوم أو بيّن الكتابة أو معلمٌ بعلامة أو يشمل ذلك كله .

﴿ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ أي الملائكة الذين هم مقربون من الله جل وعلا يشهدون على ذلك الكتاب ، قيل هم الملائكة الكائنون في ذلك المكان العالي في عليين رفعهم الله جل وعلا وقربهم منه جل وعلا لعلو مكانتهم عنده وشهد لهم بالقربى . وقيل هم المقربون من كل سماءٍ يشيعون كتاب الأبرار ويشهدون عليه إلى السماء التي فوقهم حتى يبلغ به إلى عليين ، ويمكن أن يكون المقربون لفظ يشمل جميع الملائكة ، وقيل هم الملائكة وأرواح الأنبياء والصديقين والشهداء ، والمقصود أن هذا من كرامة الأبرار على الله جل وعلا أن يشهد على كتابهم المقربون منه جل وعلا .

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ نعيم الجنة ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ على السرر المزينة بالفرش الحسان يتكئون عليها كما قال تعالى ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ من (٣١) سورة الكهف وقال تعالى ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ﴾ من (٢٠) سورة الطور وقال تعالى ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ من (٥٤) سورة الرحمن وقال تعالى ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ سورة الرحمن ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ ينظرون إلى نعيم الجنة وما أعد الله لهم فيها مما يبهج الأنظار كما قال تعالى ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ

﴿ ٱلْأَعْيُنُ ﴾ من (٧١) سورة الزخرف وأعظم نعيم الجنة النظر إلى وجه الرب جل وعلا كما قال تعالى ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ سورة القيامة

﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ ﴾ يعلق في وجوههم فلا يخفى على الناظر إليهم ما هم فيه من النعيم فإنه يظهر على وجوههم وملامحهم ﴿ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أي بهجتة وتلألأه وحسنه من النعمة والفرح والغبطة .

﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ ﴾ من نعيمهم أنهم يسقون الرحيق وهو الخمر لا كخمر الدنيا الذي هو كريه الرائحة مزيلٌ للعقل لكنه خمر الجنة طيب الطعم طيب الريح ولذا قال ﴿ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ﴾ أي يجدون في آخره طعم المسك ، يتلذذون به ولا يُذْهِبُ عقولهم كما قال تعالى ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ لا تصيبهم بصداعٍ وأوجاعٍ في رؤوسهم كخمر الدنيا ، ولا تنزف عقولهم فتذهبها ، أو لا ينزفونها بكثرة الشراب فتذهب بل هي باقية ما بقي أهل الجنة فيها . وقال تعالى ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ سورة الصافات والغول قيل هو وجع البطن ، وقيل هو الأذى والمكروه ، وقيل لا تغتال عقولهم فتذهبها ، ثم قال ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ أي لأجل هذا النعيم فليتسابق المتسابقون وليتبادر العاملون إلى الفوز به ، وأصل التنافس من الشيء النفيس الذي تحرص عليه نفوس الناس ويريده كل أحد لنفسه ، ولا أنفس من رضوان الله وجنته .

﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ تسنيم هو أشرف شراب أهل الجنة كما قاله أبو صالح والضحاك وهذا الشراب لا يشربه صرفاً إلا المقربون كما قال تعالى ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ قال بن عباسٍ : هذا مما قال الله فيه ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ لكنه يمزج به الخمر لبقية أهل الجنة ليلذذها لهم . قال بن كثير : أي : يشربها المقربون صِرْفًا ، وتُمزَجُ لأصحاب اليمين مَزجاً . قاله ابن مسعود وابن عباس ومسروق وقتادة وغيرهم . انتهى من تفسيره .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ إن الذين أجرموا في حق أنفسهم بالكفر والشرك كانوا في الدنيا يضحكون استهزاءً وسخريةً بالمؤمنين ﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ أي مروا بالمؤمنين جعل بعضهم يغمز لبعض ، والغمز الإشارة بالجفن والحاجب ، أي يشيرون إليهم بالأعين استهزاءً . قاله البغوي ﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ وإذا رجعوا إلى أهلهم لم يتركوا المؤمنين وشأنهم بل جعلوا يتفكهون في أعراض المؤمنين عند أهليهم ، وقيل المعنى رجعوا متنعمين وما شكروا الله على هذه النعمة . قال بن زيد : انقلب ناعماً في الدنيا ، ثم أعقب النار في الآخرة . ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ وإذا رأوا المؤمنين قالوا : إن هؤلاء المؤمنين ضآلون منحرفون عن الطريق المستقيم وليسوا على شيء ﴿ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ أي ليسوا بموكلين بحفظ أعمال المؤمنين حتى يتكلموا في دينهم وعملهم ، وهذا من باب التهكم بالكفار ، أي أننا نحن الذي نرسل من يحفظ الأعمال على العباد وليس هذا من اختصاصكم ، والرشد والضلال يعرفه ويحكم به من أرسل من قبلنا لا من تحكمون عليه بأهوائكم . ﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ أي اليوم الآخر يكون الجزاء من جنس

العمل فكما كانوا يضحكون من المؤمنين في الدنيا ففي الدار الآخرة المؤمنون يضحكون منهم قال أبو صالح : وذلك أنه يفتح للكفار في النار أبوابها ويقال لهم : اخرجوا ، فإذا رأوها مفتوحة أقبلوا إليها ليخرجوا والمؤمنون ينظرون إليهم فإذا انتهوا إلى أبوابها غلقت دونهم يفعل ذلك بهم مرارًا والمؤمنون يضحكون . وقال كعب : بين الجنة والنار كُوَى ، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدوٍ له كان في الدنيا اطلع عليه من تلك الكوى كما قال تعالى ﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ ﴾ سورة الصافات فإذا اطلعوا من الجنة إلى أعدائهم وهم يعذبون في النار ضحكوا . ذكره البغوي في تفسيره . فتقرَّ أعين المؤمنين بانتقام الله من أعدائهم ويفرحهم ذلك فيضحكون لذلك . وقول أبي صالح كان عند تفسير قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ وقوله تعالى ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ أي على المتاكي والسرر ينظرون إلى الكفار وهم يعاقبون في النار . وقيل ينظرون إلى نعيم الجنة . وقيل ينظرون إلى الله عز وجل ، وسياق الآيات يدل على الأول وإن كان الكل سيحصل للمؤمنين في الجنات .

﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ أي هل عوقب الكفار على ما كانوا يفعلون من السخرية والاستهزاء بالمؤمنين وهو سؤال تقرير أي قد فعل بهم ذلك . وقيل إن هذا السؤال وقع من الله تعالى للمؤمنين في الجنة ، أي هل فعلنا بأعدائكم ما كانوا يفعلون بكم . أي قد انتقمنا لكم . قال الألوسي : كأنه تعالى يقول للمؤمنين هل أثبنا هؤلاء على ما كانوا يفعلون كما أثبناكم على ما كنتم تعملون ، فيكون هذا القول زائداً في سرورهم لما فيه من تعظيمهم والاستخفاف بأعدائهم . انتهى من روح المعاني . وقيل هذا السؤال وقع من المؤمنين أي يقول بعضهم لبعضٍ ﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ أي هل كان هذا العقاب للكفار إلا جزاء ما كانوا يفعلون في الدنيا .

من دروس سورة المطففين :

أولاً / أن الله جل وعلا لم يهمل شيئاً من أمر الدين والدنيا بل بينه ووضحه في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم حتى قال أبو ذر رضي الله عنه : ما ترك النبي صلى الله عليه وسلم طائراً يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً رواه أحمد وقال رجل من المشركين لسلمان الفارسي : لقد علمكم نبيكم صلى الله عليه وسلم كل شيء حتى الخراءة ؟ فقال : أجل , لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط أو بول , أو أن نستنجي باليمين , أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار , أو أن نستنجي برجيع أو بعظم) رواه مسلم

ثانياً / أن الظلم محرم حتى في الكيل والوزن ، فإن زاد لنفسه ولو قليلاً بلا علم صاحبه ولا رضاه ، كان مرتكباً كبيرةً من كبائر الذنوب توجب التوبة وتوجب رد المظلمة وهو الزائد أو التعويض بالثمن ، وفي هذا دليلٌ على كمال الدين ، وأنه يدعوا إلى مكارم الأخلاق وحسن التعامل مع الناس ، ويحذر من الظلم والتعدي عليهم حتى ولو باليسير ، قال صلى الله عليه وسلم (من

اقتطع حق امرئٍ مسلمٍ بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة) فقال له رجل : وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله ؟ قال (وإن قضيباً من أراك) رواه مسلم

ثالثاً / التحذير من التمادي في العصيان ، وأن كثرة الذنوب تطبع على القلب فلا يبصر الحق بعد ذلك إلا أن يتداركه الله بتوبة تمحو عنه تلك الذنوب ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب واستغفر صقل قلبه ، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه ، فذلكم الران الذي ذكر الله تعالى ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ رواه أحمد والترمذي وابن ماجه .

رابعاً / أن في السورة دليلاً على رؤية المؤمنين لربهم جل وعلا في الآخرة وهي قوله تعالى عن المشركين ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ فلما حجب هؤلاء في حال السخط ، دلَّ على أن المؤمنين يرونه في حال الرضا ، وإلا لكانوا متساوين مع المشركين في الحجب ، فلا فائدة من التهديد بهذه العقوبة ، وهذا ينزه عنه كلام الرب جل وعلا .

خامساً / أن في السورة دليلاً على علو الله جل وعلا ، فإذا كان الأبرار في عليين أي أعلى مكان وهي الجنة العالية ، وكانت الجنة سقفها عرش الرحمن ، وكان الرحمن على العرش استوى ، دلَّ ذلك على علو ذات الله جل وعلا .

سادساً / أن الجزاء من جنس العمل ، فكما أن الكفار كانوا يضحكون من المؤمنين في الدنيا عاقبهم الله جل وعلا في الآخرة بأن يجعلهم يتصرفون تصرفات تجعل المؤمنين يضحكون منهم ، قال أبو صالح : وذلك أنه يفتح للكفار في النار أبوابها ويقال لهم : اخرجوا ، فإذا رأوها مفتوحةً أقبلوا إليها ليخرجوا والمؤمنون ينظرون إليهم ، فإذا انتهوا إلى أبوابها غلقت دونهم ، يفعل ذلك بهم مرارًا والمؤمنون يضحكون .

سورة الانشقاق مكية وآياتها (٢٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

عن أبي رافع رضي الله عنه قال : صليت مع أبي هريرة العتمة فقرأ ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ فسجد . فقلت له ، فقال : سجدت خلف أبي القاسم صلى الله عليه وسلم فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه . رواه البخاري ومسلم وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سجدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ و ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ رواه مسلم

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ ﴾ تصدعت وتقطعت وذلك يوم القيامة ، وذلك أن السماء في ذلك اليوم تفتح أبوابها كما قال تعالى ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ ﴾ سورة النبأ بعد أن كانت أبوابها مغلقةً لا تفتح إلا بإذن ، ثم بعد ذلك تتفطر وتتشقق كما في هذه الآية وكما في أول الانفطار ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾ وكما في قوله تعالى ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ ﴾ سورة المزمل وقال تعالى ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾ سورة الحاقة أي ضعيفة بعد أن كانت قويةً متينة ، وتتلون وهي في تلك الحال من الضعف والتشقق ، فتارةً تكون سوداء كعكر الزيت كما قال تعالى ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ ﴾ سورة المعارج وتارةً تكون حمراء كما في قوله تعالى ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ ﴾ سورة الرحمن قيل تكون كالوردة في حمرتها وكالدهن في ذوبانه . وقيل : كلون الفرس الورد يكون في الربيع أصفر وفي أول الشتاء أحمر فإذا اشتد الشتاء كان أغبر فشبه السماء في تلونها عند انشقاقها بهذا الفرس في تلونه . وقال الكلبي : كالدهان أي كالأديم الأحمر . وقال قتادة: إنها اليوم خضراء ، ويكون لها يومئذٍ لون آخر يضرب إلى الحمرة . وقال بن كثير : أي تذوب كما يذوب الدّرْدي والفضة في السبك ، وتتلون كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها ، فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء . انتهى . والمقصود أنها تكون في حالةٍ من الضعف والتلون والتشقق ثم بعد ذلك تطوى وتزال بالكلية كما قال تعالى ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ سورة الأنبياء ثم تبدل بسماءٍ جديدة كما قال تعالى ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ سورة إبراهيم

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ ﴾ أي استمعت لربها استماع المطيع ، وحق لها أن تسمع لربها وتطيع .

﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ ﴾ فرشت وبسطت ووسعت وأزيل ما عليها من نتوءات كالبنيان والجبال والهضاب ونحو ذلك .

﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ ﴾ أخرجت ما في بطنها من الأموات والكنوز ونحو ذلك وتخلت فلم يبقى في بطنها شيء .

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ ﴾ أي استمعت لربها في أمره لها بذلك وأطاعت وحق لها أن تطيع خالقها سبحانه .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ٦ ﴾ أي عاملٌ عملاً إلى ربك سواءً كان عمل خيرٍ أو عمل شر فملاقي عملك ، يعني حين يعطى صحيفته كما قال تعالى ﴿ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩ ﴾ سورة الكهف أو ملاقي ربك فيجازيك على عملك .

﴿ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ٧ ﴾ هذا يؤيد القول الأول وأن المراد فملاقي عمله في كتابه ، فمن كان عمله صالحاً فيعطى كتاب عمله في يمينه ، وحينئذٍ ﴿ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ٨ ﴾ وهو العرض ، فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحساب اليسير قال (الرجل تعرض عليه ذنوبه ثم يتجاوز له عنها) رواه البزار وعنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من حوسب يوم القيامة عُذِّبْ) فقلت : أليس قد قال الله عز وجل ﴿ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ٨ ﴾ فقال (ليس ذاك الحساب ، إنما ذاك العرض من نوقش الحساب يوم القيامة عُذِّب) رواه البخاري ومسلم وقال صلى الله عليه وسلم (إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره فيقول : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : نعم أي رب . حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هلك قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم) رواه البخاري ومسلم فهذا هو العرض وهو الحساب اليسير ، وقد قال العلماء ينبغي أن يكون هذا دافعاً إلى ترك المعاصي ولو صغرت فبأي وجهٍ تلاقي ربك وأنت تعصيه وكيف سيكون حالك حين يقررك بذنوبك ومعصيتك له ولو صغر الذنب لا شك أنه سيسقط وجهك خوفاً وحياءً وخجلاً من الرب جل وعلا ولذلك اسع جاهداً أن تكون مع الذين يدخلون الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب بترك الذنوب صغيرها وكبيرها .

﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ٩ ﴾ حين يعطى كتابه بيمينه ويعلم أنه مع الناجين يرجع إلى أهله فرحاً مسروراً وحق له ذلك فلا فرح أعظم من ذلك الفرح ، ولا سرور أكمل من ذلك السرور ﴿ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨ ﴾ سورة يونس

﴿ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ١٠ ﴾ والصنف الثاني وهم من كان عملهم سيئاً فيعطون كتابهم بشمالهم ومن وراء ظهورهم قيل لأن أيديهم مغلولةً من وراء ظهورهم . وقيل تغل يده اليمنى إلى عنقه وتلوى يده الشمال وراء ظهره فيأخذ كتابه من وراء ظهره كما نبذ كتاب الله وراء ظهره .

﴿ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ١١ ﴾ أي يدعو على نفسه بالويل والهلاك وهو حال من اشتدت خسارته وعظمت مصيبته . والثبور الهلاك كما قال موسى لفرعون ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ﴾ من (١٠٢) سورة الإسراء أي هالك .

﴿ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ١٢ ﴾ أي يلاقي حر نارٍ تستعر . قال الطبري : اختلفت القرّاء في قراءة ذلك ، فقرأته عامة قرّاء مكة والمدينة والشام (وَيُصَلَّى) بضم الياء وتشديد اللام ، بمعنى : أن الله يُصليهم تصليةً بعد تصلية ، وإنضاجةً بعد إنضاجة ، كما قال

تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ ﴾ من (٥٦) سورة النساء واستشهدوا لتصحيح قراءتهم ذلك كذلك بقوله ﴿ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ﴾ سورة الحاقة وقرأ ذلك بعض المدنيين وعامة قرّاء الكوفة والبصرة ﴿ وَيَصۡلَىٰ ﴾ بفتح الياء وتخفيف اللام ، بمعنى : أنهم يَصْلونها ويَرِدونها فيحترقون فيها ، واستشهدوا لتصحيح قراءتهم ذلك كذلك بقول الله ﴿ يَصۡلَوۡنَهَا ﴾ و ﴿ إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ ﴾ سورة الصافات . والصواب من القول في ذلك عندي أنهما قراءتان معروفتان صحيحتا المعنى فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب . انتهى من تفسيره .

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ﴿١٣﴾ ﴾ كان الكافر حين كان عند أهله في الدنيا مسروراً يأكل كما تأكل الأنعام ويشرب ويلهو ويلعب ، لا يتقيد بالأوامر ، ولا ينتهي عن المناهي ، ولا يعبد الله ، وذلك بسبب انكاره للدار الآخرة ، ولذلك قال تعالى ﴿ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ ﴾ أي اعتقد أنه لن يرجع إلى الله فيحاسبه على أعماله تلك . وهذا الذي جعل حياته كحياة البهيمة أكل وشرب ونوم ونكاح ولهو ولعب لا يفعل معروفاً ولا يرتدع عن منكر . قال ابن زيد : وصف الله أهل الجنة بالمخافة والحزن والبكاء والشفقة في الدنيا فأعقبهم به النعيم والسرور في الآخرة وقرأ قول الله تعالى ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ سورة الطور . قال : ووصف أهل النار بالسرور في الدنيا والضحك فيها والتفكه .

﴿ بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾ بلى سيرجع إلى ربه ويحاسبه على عمله فإنه كان به بصيراً أي عليماً خبيراً بعمله من مولده إلى مماته ، وكذلك فإن الله يبصره ويرى عمله وسيجازيه عليه .

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ ﴾ الفاء استئنافية ، واللام زائدة لتأكيد القسم كقولك (لا والله ما قلت كذا) ولو أنك قلت (والله ما قلت كذا) لكان قسماً كافياً لكنك أتيت باللام لتأكيد القسم . وقيل مزيدة للتنبيه ونظيره قوله تعالى ﴿ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ ﴾ من (٨) سورة هود وقوله ﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ﴾ سورة هود وقيل (لا) للرد على الكفار في أكاذيبهم أي (لا ، ليس الأمر كما يقولون) ثم استأنف فقال (أقسم بالشفق) وقيل هي للنفي أي الأمر أوضح من أن يحتاج إلى أن أقسم على شيءٍ فضلاً عن أن أقسم بهذا الأمر العظيم وهو الشفق ، وقيل هي لام القسم نفسها (فلأقسم) لكن أشبعت فتحتها فتولدت منها ألف (فلا أقسم)

والشفق الحمرة التي تكون بعد الغروب قال صلى الله عليه وسلم (وَوَقْتُ صَلاَةِ الْمَغْرِبِ مَا لَمْ يَغِبِ الشَّفَقُ) رواه مسلم

﴿ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ ﴾ أي جمع ، يقال طعام موسق أي مجموع ، ومنه سمي الوسق وهو ستون صاعاً لأنه يجمع طعاماً كثيراً ، وإبل مستوسقة أي مجتمعة ، ومنه قول الراجز : إن لنا قلائصاً حقائقاً مستوسقاتٍ لو يجدن سائقاً . أي مجتمعات .

قيل المراد ما يجمعه الليل من الدواب والطيور التي كانت منتشرةً في النهار فإذا أتى الليل اجتمعت في مأواها . وقيل الليل يجلل بظلامه الأرض وجبالها وأنهارها وبحارها وشجرها ودوابها وجميع من فيها فتكون قد اجتمعت فيه . وقال قتادة : ما جمع من

نجم ودابة . قال القرطبي : والليل يجلل بظلمته كل شيء فإذا جللها فقد وسقها ، ويكون هذا القسم قسماً بجميع المخلوقات لاشتمال الليل عليها ، كقوله تعالى ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩ ﴾ سورة الحاقة انتهى من تفسيره .

﴿ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨ ﴾ استوى وأكتمل بدراً منيراً .

﴿ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩ ﴾ قال بن عباسٍ : حالاً بعد حال قال هذا نبيكم صلى الله عليه وسلم . رواه البخاري قال بن كثير : كذا رواه البخاري بهذا اللفظ ، وهو محتمل أن يكون ابن عباس أسند هذا التفسير عن النبي صلى الله عليه وسلم كأنه قال : سمعت هذا من نبيكم صلى الله عليه وسلم ، فيكون قوله : نبيكم مرفوعاً على الفاعلية من (قال) وهو الأظهر والله أعلم كما قال أنس : لا يأتي عام إلا والذي بعده شَرٌّ منه ، سمعته من نبيكم صلى الله عليه وسلم... ويحتمل أن يكون المراد ﴿ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴾ حالا بعد حال . قال : هذا ، يعني المراد بهذا نبيكم صلى الله عليه وسلم ، فيكون مرفوعاً على أن "هذا" و "نبيكم" يكونان مبتدأ وخبرا ، والله أعلم . ولعل هذا قد يكون هو المتبادر إلى كثير من الرواة كما قال أبو داود الطيالسي وغُنْدَر : حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴾ قال: محمد صلى الله عليه وسلم . ويؤيد هذا المعنى قراءةُ عمر وابن مسعود وابن عباس وعامة أهل مكة والكوفة (لَتَرْكَبَنّ) بفتح التاء والباء. انتهى من تفسيره . وقال الطبري : اختلفت القرّاء في قراءته ، فقرأه عمر بن الخطاب وابن مسعود وأصحابه وابن عباس وعامة قرّاء مكة والكوفة (لَتَرْكَبَنَّ) بفتح التاء والباء... وقرأ ذلك عامة قرّاء المدينة وبعض الكوفيين (لَتَرْكَبُنَّ) بالتاء وبضم الباء على وجه الخطاب للناس كافة أنهم يركبون أحوال الشدّة حالا بعد حال . انتهى من تفسيره . وذكر اختلاف المفسرين في الأول هل الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أو المراد به السماء وأنها تتغير من حالٍ إلى حال . وقال القرطبي : قرأ أبو عمر وابن مسعود وابن عباس وأبو العالية ومسروق وأبو وائل ومجاهد والنخعي والشعبي وابن كثير وحمزة والكسائي (لَتَرْكَبَنَّ) بفتح الباء خطاباً للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أي لتركبن يا محمد حالاً بعد حال قاله ابن عباس. الشعبي : لتركبن يا محمد سماء بعد سماء ، ودرجة بعد درجة ، ورتبه بعد رتبة ، في القربة من الله تعالى . ابن مسعود : لتركبن السماء حالاً بعد حال ، يعني حالاتها التي وصفها الله تعالى بها من الانشقاق والطي وكونها مرة كالمهل ومرة كالدهان... وقرا الباقون (لَتَرْكَبُنَّ) بضم الباء خطاباً للناس ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، قال: لأن المعنى بالناس أشبه منه بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لما ذكر قبل هذه الآية فمن أوتى كتابه بيمينه ومن أوتى كتابه بشماله . أي لتركبن حالاً بعد حال من شدائد القيامة ، أو لتركبن سنة من كان قبلكم في التكذيب واختلاق على الأنبياء . قلت : وكله مراد . انتهى من تفسيره . ولعل قوله : قرأ أبو عمر . فيه تصحيف والظاهر أنه أراد عمر بن الخطاب لأنه ذكره قبل بن مسعود وابن عباس كما فعل ذلك الطبري وبن كثير والعلم عند الله .

وقال الحسن البصري : حالاً بعد حال ، رخاءً بعد شدة ، وشدةً بعد رخاء ، وغنىً بعد فقر ، وفقراً بعد غنى ، وصحةً بعد سقم ، وسَقَماً بعد صحة . انتهى . وقال مقاتل بن سليمان : حالاً بعد حال ، يقول : خلقاً من نطفة ، ثم صارت النطفة علقة ، ثم صارت العلقة مضغة ، ثم صارت إنساناً ميتاً في بطن أمه حتى نفخ فيه الروح ، ثم صار إنساناً حياً ، ثم أخرجه الله تعالى من بطن أمه فكان طفلاً ، ثم يبلغ أشده ، ثم شاخ وكبر ، ثم مات ولبث في قبره حتى صار تراباً ، ثم أنشأه الله عز وجل

بعد ذلك يوم القيامة . انتهى . وعن مكحولٍ قال : في كل عشرين عاما تحدثون أمرا لم تكونوا عليه . وقال سعيد بن جبير : منزلة بعد منزلة ، قوم كانوا في الدنيا متضعين فارتفعوا في الآخرة ، وقوم كانوا في الدنيا مرتفعين فاتضعوا في الآخرة.

﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ أي يصدقون أو يوحدون وهو سؤال تعجب أي اعجبوا منهم كيف لا يؤمنون مع قيام الحجج والبينات الدالة على وحدانية الله وصدق رسله . أو سؤال إنكار أي ما الذي يمنعكم من الإيمان مع اتضاحه .

﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ ﴾ لا يخضعون ولا ينقادون لأوامر الله ونواهيه ، أو لا يسجدون إعظاماً واحتراماً لكلام الله .

﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ استكباراً وعناداً ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ يضمرون في صدورهم من التكذيب والعناد ومحادة الله ورسوله ، أو بما يجمعون من الأعمال السيئة من الوعاء الذي تُجمعُ فيه الأشياء ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ جزاء ما أضمروا وما أظهروا من السيئات والكفر والتكذيب والاستكبار والمعاندة للحق .

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ قيل الاستثناء منقطع ، لأن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه فالكفار لهم العذاب وأهل الإيمان لهم الأجر كقوله تعالى ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ ﴾ فالحميم والغساق ليس من جنس البرد والشراب . وقيل بل الاستثناء متصل ويكون المراد إلا من ءامن منهم قبل مماته فلا يشمله العذاب الأليم بل ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي غير مقطوع . قال الماوردي : ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ فيه أربعة تأويلات : أحدها : غير محسوب ، قاله مجاهد . الثاني : غير منقوص ، قاله السدي . الثالث : غير مقطوع ، قاله ابن عباس . الرابع : غير مكدّرٍ بالمن والأذى ، وهو معنى قول الحسن . انتهى من تفسيره النكت والعيون .

من دروس سورة الانشقاق :

أولاً / أن كل إنسانٍ سيلاقي عمله الذي عمله في كتابٍ قد كتبته عليه الملائكة في حياته ، فإن كان من أهل الصلاح سيأخذ كتابه بيمينه ، وإن كان من أهل الشقاء فسيأخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره ، ثم يقرأه فيتعجب من بعض الأعمال التي عملها ثم نسيها وهي مسطرة عليه في هذا الكتاب كما قال تعالى ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾

ثانياً / في قوله تعالى عن الكافر ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ ﴾ هو السرور بالشهوات البهيمية كالزنا وشرب الخمر والرقص والغناء ونحو ذلك فإنهم لا يأتمرون بأمرٍ ولا يجتنبون نهياً وهو ما يسمى في عصرنا بالليبرالية أو الحرية المطلقة وهو ما يتنادى بها

بعض من يدعي الإسلام تقليداً لأعداء الله ورغبةً في تحصيل مثل هذه الشهوات المحرمة ، وما علم هؤلاء المساكين أن الحياة الدنيا قصيرة جداً بالنسبة للآخرة ، وأن هذه الشهوات ستفنى ويبقى بعدها الهم والحزن والعار والنار .

تفنى اللذاذة ممن ذاق صفوتها من الحرام ويبقى الإثم والعار

تبقى عواقب سوءٍ في مغبتها لا خير في لذةٍ من بعدها النار

ثالثاً / في قوله تعالى ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ قد قيل أن من معاني الآية لتركبن سنة من كان قبلكم وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (لتتبعن سَنَنَ من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضبٍ لاتبعتموهم) قلنا : يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال (فمن) متفق عليه وورد أن الذين يتبعونهم في طريقتهم هم شرار الأمة كما أخرج أحمد والطبراني وابن عدي وحسنه الألباني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (ليحْملَنّ شرار هذه الأمّة على سَنَنِ الذين خلَوا من قبلهم أهل الكتاب حذو القُذَّةِ بالقُذَّة) وقال (أنتم أشبه الأمم ببني إسرائيل ، لتركبن طريقتهم حذو القُذة بالقذة حتى لا يكون فيهم شيء إلا كان فيكم مثله ، حتى إن القوم لتمر عليهم المرأة فيقوم إليها بعضهم فيجامعها ثم يرجع إلى أصحابه يضحك إليهم ويضحكون إليه) أخرجه الطبراني وقال صلى الله عليه وسلم (والذي نفسي بيده لا تفنى هذه الأمة حتى يقوم الرجل إلى المرأة فيفترشها في الطريق فيكون خيارهم يومئذٍ من يقول : لو واريتها وراء هذا الحائط) رواه أبو يعلى وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح . وقال حسين سليم أسد : إسناده قوي . وعن عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تقوم الساعة حتى يتسافدوا في الطريق تسافد الحمير) قلت : إن ذلك لكائن ؟ قال (نعم ليكونن) رواه البزار وصحح إسناده الألباني . وقد كنت في الصغر اسمع مثل هذا الكلام فأتعجب منه وأرى أنه بعيد وليس في زماننا هذا ، وأما اليوم وأنا في الخامسة والأربعين من العمر ونحن في سنة ١٤٤١ للهجرة أصبحت أكاد أن أجزم أن الأمر بات وشيكاً لما أرى من تسارع الفساد وانتشاره وقلة المنكرين له ، وأرى عظائم باتت تفعل علناً في بلاد المسلمين مثلما يفعل الأوروبيون والأمريكيون تماماً من شرب الخمور واتخاذ بيوت الدعارة وظهور عبدة الشياطين والملاحدة وغير ذلك . وَأُخْبِرْتُ أن في بعض بلاد الغرب يفعل الزنا في الطرقات علناً فعلمت أن قومنا على إثرهم قريباً ، فإذا كان ذاك حصل العذاب من الخسف والمسخ والقذف قال صلى الله عليه وسلم (ليكونن من أمتي أقوامٌ يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف ولينزلن أقوام إلى جنب علم يروح عليهم بسارحةٍ لهم يأتيهم – يعني الفقير – لحاجة فيقولوا ارجع إلينا غداً فيبيتهم الله ويضع العلم ، ويمسخ آخرين قردةً وخنازير إلى يوم القيامة) رواه البخاري في صحيحه وقال صلى الله عليه وسلم (ليشربن ناسٌ من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها يضرب على رؤوسهم بالمعازف والقينات يخسف الله بهم الأرض ويجعل منهم القردة والخنازير) رواه البخاري في التاريخ وقال حذيفة رضي الله عنه : لتركبن سنن بني إسرائيل حذو القذة بالقذة وحذو الشراك بالشراك حتى لو فعل رجل من بني إسرائيل كذا وكذا فعله رجل من هذه الأمة . فقال له رجل : قد كان في بني إسرائيل قردة وخنازير؟! قال : وهذه الأمة سيكون فيها قردة وخنازير. رواه عبد الرزاق في مصنفه .

سورة البروج مكية وآياتها (٢٢)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾ ﴾

تفسير سورة البروج

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج والسماء والطارق. رواه أحمد

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ ﴾ أي ذات الكواكب والنجوم العظام وقيل هي البروج المعروفة عند الفلكيين وهي اثني عشر برجاً : الحمل وبعضهم يسميه الكبش ، والثور ، والجوزاء وبعضهم يسميه التوأمان ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة وبعضهم يسميه

العذراء ، والميزان ، والعقرب ، والقوس وبعضهم يسميه الرامي ، والجدي وبعضهم يسميه التيس ، والدلو وبعضهم يسميه الساقي ، والحوت وبعضهم يسميه السمكة . يسير القمر في كل واحد منها ليلتين وثلث ليلة فذلك ثمانية وعشرون يوماً ويستسر ليلتين يعني يختفي فيهما فذلك شهر ، وتسير الشمس في كل برجٍ منها شهراً فذلك سنة .

﴿ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ﴿٢﴾ ﴾ يوم القيامة وُعِدَ الناس أن يبعثوا فيه وأن يجمعوا فيه .

﴿ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ﴿٣﴾ ﴾ قيل الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة وهو قول علي وابن عباس وابن عمر وأبو هريرة رضي الله عنهم وهو قول الحسن ، وقيل الشاهد يوم عرفة والمشهود يوم النحر وهو قول إبراهيم النخعي ، وقيل الشاهد يوم عرفة والمشهود يوم القيامة ، وقيل الشاهد يوم التروية والمشهود يوم عرفة ، وقيل الشاهد الله كما قال تعالى ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ من (٧٩) سورة النساء والمشهود الإنسان وقيل يوم القيامة ، وقيل الشاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ ﴾ سورة الأحزاب والمشهود أمته ، وقيل الشاهد الرسل ﴿ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴿٤١﴾ ﴾ سورة النساء والمشهود أممهم ، وقيل الشاهد الحفظة والمشهود الإنسان وقيل غير ذلك والصحيح أنه يشمل كل شاهدٍ وكل مشهود ، فالأرض تشهد بما عمل عليها ، والجوارح تشهد ، والملائكة يشهدون والليالي والأيام تشهد ، والعمر يشهد ، وهكذا ، وما قاله السلف ليس من اختلاف التضاد بل من اختلاف التنوع فكلٌ يذكر نوعاً مما يكون شاهداً ومشهوداً .

﴿ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ﴿٤﴾ ﴾ أي لعن أصحاب الأخدود كقوله تعالى ﴿ قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ سورة الذاريات وقوله ﴿ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾ سورة عبس أي لعن ، والأخدود الشق في الأرض ، وجمعه أخاديد ، وأما قول من قال أن الآية جاءت خبراً وليست دعاءً فقولٌ معارضٌ بسياق الآيات فإنه قال بعدها ﴿ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ﴿٦﴾ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ﴾ فتبين أنها دعاء على القتلة وليست خبراً عن المقتولين ، إلا أن يريد بالخبر أن الله أخبر أنه لعن القتلة فصحيح ، وأما قصة أصحاب الأخدود فقد بوب لها الإمام مسلم في صحيحه باباً وذكر فيه قصة الغلام والملك والراهب والساحر ونصها : عن صهيب رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر ، فلما كبر قال للملك إني قد كبرت فابعث إليَّ غلاماً أعلمه السحر ، فبعث إليه غلاماً يعلمه ، فكان في طريقه إذا سلك راهب فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه ، فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه فإذا أتى الساحر ضربه ، فشكا ذلك إلى الراهب فقال إذا خشيت الساحر فقل حبسني أهلي ، وإذا خشيت أهلك فقل حبسني الساحر ، فبينما هو كذلك إذ أتى على دابةٍ عظيمةٍ قد حبست الناس فقال اليوم أعلم آلساحر أفضل أم الراهب أفضل ؟ فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس . فرماها فقتلها ومضى الناس ، فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب : أي بني أنت اليوم أفضل مني ، قد بلغ من أمرك ما أرى ، وإنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدل علي ، وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء ، فسمع جليسٌ للملك كان قد عمي فأتاه بهدايا كثيرة فقال : ما ههنا لك أجمع إن أنت شفيتني ، فقال : إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله ، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك ، فآمن بالله فشفاه الله ، فأتى

الملك فجلس إليه كما كان يجلس ، فقال له الملك : من رد عليك بصرك ؟ قال ربي . قال : ولك ربٌ غيري ؟ قال : ربي وربك الله . فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام ، فجئ بالغلام فقال له الملك : أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل ، فقال إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب ، فجئ بالراهب فقيل له ارجع عن دينك ، فأبى ، فدعا بالمئشار فوضع المئشار على مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه ، ثم جيء بجليس الملك فقيل له ارجع عن دينك فأبى ، فوضع المئشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه ، ثم جيء بالغلام فقيل له ارجع عن دينك فأبى ، فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه فقال : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه ، فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت . فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك ، فقال له الملك ما فعل أصحابك ؟ قال :كفانيهم الله . فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه فقال : اذهبوا به فاحملوه في قرقور فتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه . فذهبوا به فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت . فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك ، فقال له الملك ما فعل أصحابك ؟ قال :كفانيهم الله فقال للملك إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به . قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس في صعيدٍ واحد ، وتصلبني على جذعٍ ثم خذ سهماً من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس ثم قل : باسم الله رب الغلام . ثم ارمني ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني . فجمع الناس في صعيدٍ واحد ، وصلبه على جذعٍ ثم أخذ سهماً من كنانته ثم وضع السهم في كبد القوس ثم قال : باسم الله رب الغلام . ثم رماه فوقع السهم في صدغه فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات . فقال الناس : آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام ، فأتى الملك فقيل له : أرأيت ما كنت تحذر ؟ قد والله نزل بك حذرك ، قد آمن الناس ، فأمر بالأخدود في أفواه السكك فخدت وأضرم النيران وقال من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها أو قيل له اقتحم ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام يا أمه اصبري فإنك على الحق) وذكر مقاتل بن سليمان أن اسم ذلك الملك يوسف بن ذي نواس وأن الواقعة كانت في نجران .

﴿ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ ﴾ أي ذات التوقد والاشتعال ، أو ذات الحطب الكثير كقوله تعالى ﴿ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ من (٦) سورة التحريم أي حطبها ﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ ﴾ على شفيرها ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ ﴾ حضور يشهدون الواقعة ولم تأخذهم رحمة ولا شفقة ، وهذا يدل على شدة عداوة الكفار للمؤمنين وقسوة قلوبهم ﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ﴾ أي ما عابوا عليهم ، وما كان لهم ذنبٌ عندهم ، وما فعلوا بهم ذلك إلا بسبب إيمانهم بالله ﴿ ٱلْعَزِيزِ ﴾ أي ذي القوة والغلبة والرفعة والامتناع . ﴿ ٱلْحَمِيدِ ﴾ المستحق للحمد بما أولاه من جزيل الفضل والإنعام على عباده . ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي مالكهما والمتصرف فيهما .﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ ﴾ أي لا يغيب عنه شيء . فمن كانت هذه صفاته فكيف يكون الإيمان به ذنباً يعاقب عليه ، ويمكن أن يكون ذكر هذه الصفات ليبين أنه قادرٌ على منع أولئك المؤمنين من إعدائهم والانتصار لهم في الدنيا لو شاء ، لكن حكمته اقتضت أن يؤخر ذلك إلى الدار الآخرة ليكون أولئك النفر الذين قتلوا في تلك المحرقة شهداء عنده ، ولتكون قصتهم سلوةً لمن ابتلي بعدهم بالأعداء أن يصبر ويحتسب ، ولا يبيع دينه بالدنيا ، ولا يعترض على قضاء الله وقدره وما اقتضته حكمته وعلمه في تسيير أمور العباد . وفي البخاري عن خباب بن الأرت

رضي الله عنه قال : شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسدٌ بردةً له في ظل الكعبة قلنا له : ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا. قال (كان الرجل فيمن كان قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه فيجاءُ بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظمٍ أو عصب وما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ أي عذبوهم وأحرقوهم وأرادوا صدهم عن دينهم ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ ﴾ قال الحسن البصري : انظر إلى هذا الكرم والجود ، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة .﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ ﴾ عقوبةً لهم على صدهم عن دين الله وتعذيب أولياءه . وعذاب الحريق في جهنم وإنما كرره للتأكيد وليبين أن عذابهم من جنس ما عذبوا به المؤمنين ، وقال البغوي﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ بكفرهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ بما أحرقوا المؤمنين . وقيل ﴿ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ في الدنيا ، وذلك أن الله أحرقهم بالنار التي أحرقوا بها المؤمنين ، ارتفعت إليهم من الأخدود ، قاله الربيع بن أنس والكلبي . انتهى من تفسيره .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ ولما ذكر مصير الكفار في الآخرة وأنهم في النار يحترقون ، أعقبه بذكر مصير المؤمنين وأنهم في بساتين تتخللها الأنهار قد فازوا برضى الله ودار كرامته وذلك هو الفوز الكبير لأنه فوزٌ في دار البقاء ، فلئن خسروا دنياً فانية فلقد ربحوا الدار الباقية دار الخلود ، بينما الكفار وإن تنعموا وتملكوا وانتصروا في الدنيا فإنما هي دار الفناء ، ولقد خسروا الدار الآخرة التي هي دار البقاء وذلك أعظم الخسران .

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾ أي عقوبته وانتقامه كقوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ سورة هود ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ ﴾ أي هو المتفرد بابتداء الخلق في الدنيا وإعادته في الآخرة . ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ﴾ الغفور الذي يغفر الذنوب ، والودود الذي يحبه أولياؤه ويحبهم كما قال تعالى ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ من (٥٤) سورة المائدة والمودة هي المحبة الصافية ، وقد ذكر هذين الاسمين ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾ بعد قوله ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ ليجمع المؤمن بين الخوف والرجاء والمحبة في عبادته لربه .

﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ أي صاحب العرش ، وهذا يدل على عظمة العرش حيث امتدح الله نفسه بأنه صاحبه وقد روى بن حبان وصححه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (ما السماوات السبع مع الكرسي الا كحلقةٍ ملقاةٍ بأرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة) والكرسي هو موضع قدمي الرب جل وعلا كما قال بن عباسٍ رضي الله عنهما ، وهذا يدل على عظم العرش وأنه أعظم المخلوقات ويكفيه شرفاً أن ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ وقد وصفه الله بالكريم في قوله تعالى ﴿ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ من (١١٦) سورة المؤمنون ووصفه بالمجيد في قراءة من قرأ بالجر في هذه الآية قال الطبري : اختلفت القرّاء في قراءة قوله ﴿ ٱلْمَجِيدُ ﴾ فقرأته عامة قرّاء المدينة ومكة والبصرة وبعض الكوفيين رفعًا ، ردًّا على قوله ﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ﴾ على أنه من صفة الله تعالى ذكره . وقرأ ذلك عامه قرّاء الكوفة خفضاً ، على أنه من صفة العرش . والصواب من القول

في ذلك عندنا أنهما قراءتان معروفتان ، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب . انتهى من تفسيره . وقال القرطبي : قرأ الكوفيون إلا عاصماً (المجيدِ) بالخفض نعتاً للعرش . وقيل : ل رَبِّكَ ، أي إن بطش ربك المجيدِ لشديد ، ولم يمتنع الفصل لأنه جارٍ مجرى الصفة في التشديد. الباقون بالرفع نعتاً ل ذُو وهو الله تعالى . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ، لأن المجد هو النهاية في الكرم والفضل ، والله سبحانه المنعوت بذلك ، وإن كان قد وصف عرشه بالكريم في آخر (المؤمنون) . انتهى من تفسيره . وماجد ومجيد وهي صيغة مبالغة من ماجد ، معناه في اللغة : الرفيع العالي والكريم والشريف والكثير الخير والحسن الخلق . والله جل وعلا هو المجيد لكمال صفاته وسعة رحمته وبركاته وكثرة خيره وإنعامه . قال في معجم اللغة العربية المعاصر : المجيد اسم من أسماء الله الحسنى ، ومعناه : العظيم في ذاته ، الكثير الخير والإحسان . وقال السعدي : المجد هو عظمة الصفات وسعتها . انتهى . فكل وصفٍ من أوصافه عظيمٌ شأنه ، فهو العليم الكامل في علمه ، الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء ، القدير الذي لا يعجزه شيء ...الخ

﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾ إن شاء عاقب ، وإن شاء غفر ، لا يمنعه مانع ، ولا يعجزه شيء .

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ ﴾ أي أخبار الأمم المكذبة الذين تجندوا لحرب الله ورسله ماذا فعلنا بهم وكيف انتقمنا منهم وهم ﴿ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ ﴾ أي فرعون وقومه وهم حكام مصر الذين آذوا بني إسرائيل وكذبوا موسى عليه السلام فانتقم الله منهم وأغرقهم كما قال تعالى ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ وأما ثمود فهم قوم صالح عليه السلام وقد جاءهم بالحق فما قبلوه وكذبوا به وعقروا الناقة فعاقبهم الله بالصيحة .

﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ ﴾ أي قد علم الكفار أخبار الأمم السابقة وما فعل الله بهم ولكنهم مع ذلك ما زالوا مستمرين في التكذيب عناداً واستكباراً وجحوداً .

﴿ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ قادرٌ عليهم مطلعٌ على أعمالهم وسيحاسبهم عليها .

﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ ﴾ أي ليس بشعرٍ ولا كهانة كما يقول الكفار ولكنه ﴿ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴾ أي كريمٌ شريفٌ مبارك .

﴿ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ مثبتٌ في اللوح المحفوظ عند الله عز وجل وهو أم الكتاب كما قال تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ سورة الزخرف وقيل معنى الآية : مكتوبٌ في لوحٍ وهو محفوظٌ من الشياطين والكهان والزيادة والنقصان كقوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ سورة الحجر

من دروس سورة البروج :

أولاً / أن الله تعالى قد جعل في السماء بروجاً وهي الكواكب والنجوم والعظام لثلاثة أمور : زينةً للسماء ، ورجوماً للشياطين ، وعلاماتٍ يهتدى بها في معرفة الاتجاهات والأوقات ، أوقات البذر والزرع والحر والبرد والمطر ونحو ذلك ويسمى علم التسيير ، وأما علم التأثير وهو ادعاء أن للكواكب تأثيراً على الحوادث الأرضية من السعود والنحوس ونحو ذلك فهو علم باطل ، وادعاء

لعلم الغيب وهو محض حق الله تعالى ، فلذلك كان كفراً أكبر إن ادعى أنها المؤثرة بذاتها وكفر أصغر إن ادعى أنها أسباب والفاعل هو الله .

ثانياً / قصة أصحاب الأخدود فيها عبر ودروس كثيرة منها : سعة حلم الله تعالى حيث أشار إلى أن القتلة لو تابوا لتاب الله عليهم ولم يعذبهم ، ومنها أن الدين الحق ينتشر مهما حاربه أعداءه وكادوا له ، بل يزداد مع المحاربة انتشاراً وهذا من خصائص هذا الدين ، ومنها الصبر على الابتلاء وجواز التضحية بالنفس فداءً للدين وأن ذلك من أعلى المقامات للعبد ومنها أن الله يثبت أوليائه على الحق في المواقف العصيبة وعند الفتن . وغير ذلك .

ثالثاً / أن الفوز الحقيقي هو الفوز بجنات عدن ، وأما تحصيل الجوائز الدنيوية والشهادات والوظائف العلية في الدنيا فليس بفوزٍ حقيقي ، لأن الدنيا وما فيها متاع زائل ، فينبغي على المؤمن الحرص على تحصيل الفوز في الآخرة بالجنات والمسابقة إلى الدرجات العلية فيها كما يحرص أهل الدنيا على الفوز فيها ونيل أعلى الدرجات الدنيوية .

سورة الطارق مكية وآياتها (١٧)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾ ﴾

تفسير سورة الطارق

﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ ﴾ أقسم سبحانه بالسماء والطارق ، ثم بيَّن الطارق فقال ﴿ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴾ أي المضيء . قالت هند بنت عتبة : نحن بنات طارق نمشي على النمارق . أي أن أبانا في الشرف كالنجم المضيء . والطارق لغةً : الآتي ليلاً ، وفي الحديث عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم لاَ يَطْرُقُ أَهْلَهُ ، كَانَ لاَ يَدْخُلُ إِلاَّ غُدْوَةً أَوْ عَشِيَّةً . متفق عليه قال بن حجر : قال أهل اللغة : الطُروق بالضم المجيء بالليل من سفرٍ أو من غيره على غفلة ، ويقال لكل آتٍ بالليل طارق ... وقال بعض أهل اللغة : أصل الطروق الدق والضرب وبذلك سميت الطريق لأن المارة تدقها بأرجلها ، وسمي الآتي بالليل طارقاً لأنه يحتاج غالباً إلى دق الباب ، وقيل أصل الطروق السكون ، ومنه أطرق رأسه ، فلما كان الليل يسكن فيه سمي الآتي فيه طارقاً . انتهى من فتح الباري . قال الطبري : أقسم ربنا بالسماء وبالطارق الذي يطرق ليلاً من النجوم المضيئة ، ويخفى نهارًا ، وكل ما جاء ليلاً فقد طرق. انتهى من تفسيره.

وقيل ﴿ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴾ أي الذي يثقب السماء بضوئه أو الذي يثقب الشياطين الذين يسترقون السمع كما قال تعالى ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾ سورة الصافات

﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ ﴾ من الملائكة يحفظها من الشرور حتى يجيء القدر بأمر الله كما قال تعالى ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ سورة الرعد أي يحفظونه من الشر بأمر الله . وقيل : حافظ يحفظ عليه أعماله التي يعملها من خيرٍ أو شر ويسجلها عليه كما قال تعالى ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ سورة ق وقال تعالى ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ سورة الانفطار . وقال القرطبي : وقيل : الحافظ هو الله سبحانه ، فلولا حفظه لها لم تبق . وقيل : الحافظ عليه عقله يرشده إلى مصالحه ، ويكفه عن مضاره . قلت : العقل وغيره وسائط ، والحافظ في الحقيقة هو الله عز وجل . قال الله عز وجل ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ﴾ من (٦٤) سورة يوسف وقال ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ من (٤٢) سورة الأنبياء . انتهى من تفسيره . قال البغوي : قرأ أبو جعفر ، وابن عامر ، وعاصم ، وحمزة (لما) بالتشديد ، يعنون : ما كل نفسٍ إلا عليها حافظ ، وهي لغة هذيل يجعلون (لما) بمعنى (إلا) يقولون : نشدتك الله لما قمت ، أي إلا قمت . وقرأ الآخرون بالتخفيف ، جعلوا (ما) صلة ، مجازه : إن كل نفس لعليها حافظ من ربها . انتهى من تفسيره .

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ ﴾ فلينظر الإنسان إلى نفسه نظر تفكرٍ واعتبار من أي شيءٍ خلقه الله ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ ﴾ خلقه من ماءٍ دافق أي مندفق أي منصبٍ بقوةٍ في الرحم وهو المني ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ ﴾ وهذا المني يخرج من بين صلب الرجل وهو ظهره وترائب المرأة وهو صدرها قيل من موضع القلادة وقيل ما بين ثدييها وقيل غير ذلك . وقيل يخرج من بين صلب الرجل وترائبه وصلب المرأة وترائبها . والأول الأشهر وعليه الأكثر ويرجع في هذا إلى أهل الطب والعلم بذلك .

﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ ﴾ فالذي خلقه من هذا الماء المهين قادرٌ على إعادة خلقه للبعث والحساب .

﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ ﴾ أي يوم يظهر ما كان قد خبأه الإنسان من أعماله وذلك في يوم القيامة كما جاء في الحديث (إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادرٍ لواء فقيل هذه غدرة فلان بن فلان) رواه البخاري ومسلم واللفظ له

﴿ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ ﴾ فليس عنده من القوة ما يستطيع به رد عذاب الله عن نفسه ، ولا أحد يستطيع أن ينصره ويمنعه من الله .

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ ﴾ أي المطر . قال القرطبي : ترجع كل سنة بمطرٍ بعد مطر . كذا قاله عامة المفسرين . انتهى من تفسيره . وقال قتادة : ترجع رزق العباد كل عام ، ولولا ذلك لهلكوا وهلكت مواشيهم . انتهى . يعني المطر يكون معه الرزق . ويمكن أن يكون هذا تصديقاً للقائلين بأن السحاب ناتج عن تصاعد بخار مياه البحار ونحوها فإنه كان ماءً مالحاً في الأرض ثم تبخر فصار سحاباً في السماء ثم رجع إلى الأرض ماءً عذباً بالمطر ، ويؤيده قول بن عباس : هو السحاب يرجع بالمطر . وقيل ﴿ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴾

أي الشمس والقمر والنجوم يرجعن في السماء ، تطلع وتغيب وتطلع مرةً أخرى . وقيل : ذات الملائكة لرجوعهم إليها بأعمال العباد .

﴿ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾ ﴾ أي النبات لأن الأرض تتصدع عند خروجه ، وقيل ذات الأموات لأنها تتصدع عنهم عند البعث.

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴿١٣﴾ ﴾ أي القران الكريم قول حقٍ يفصل الله به بين الحق والباطل .

﴿ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴿١٤﴾ ﴾ أي ليس هو كلام لعبٍ وباطل ، بل هو قول حقٍ وجد ، فينبغي أخذه بجدٍ واتباع أوامره واجتناب نواهيه لتحصيل سعادة الدارين والنجاة من عذاب الله .

﴿ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴿١٦﴾ ﴾ قال في المعجم الوسيط : الكيد إرادة مضرة الغير خفيةً ، وهو من الخلق الحيلة السيئة ومن الله التدبير بالحق مجازاة أعمال الخلق . انتهى . وزاد في معجم اللغة العربية المعاصر : أو إبطال خطة الخصم . انتهى . قال بن منظور : والكيد : التدبير بباطلٍ أو حق . انتهى . ومعلومٌ أن تدبير الكفار بباطل ، وتدبير الله بحق ، وهو معنى قول أهل المعاجم : ومن الله التدبير بالحق مجازاة أعمال الخلق . أي مجازاةً لهم وعقوبةً على إرادتهم السوء بالمؤمنين وبدين الله تعالى وذلك عين الحق والعدل .

﴿ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴿١٧﴾ ﴾ مهل وأمهل من الإمهال وهو الإنظار والتأخير أي أنظرهم ولا تستعجل عليهم وأعطهم مهلةً من الوقت ، ورويداً : قليلاً . أي أعطهم مهلةً قليلة ، وهذا تهديدٌ ووعيد ، أي أنه بعد هذه المهلة القليلة سوف يأتيهم العذاب والنكال . وهذا هو الكيد الذي كاده الله لهم وهو الاستدراج وهو معنى قوله تعالى ﴿ فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ سورة القلم بأن أعطاهم من النعيم في الدنيا على كفرهم وتكذيبهم واستكبارهم ولم يعجل عليهم بالعقوبة حتى استمروا في كفرهم ولم يرجعوا عن غيهم فجاءهم العذاب فجأةً فلم يستطيعوا الامتناع منه ولم يستطيعوا التوبة ولا الرجوع فخسروا الدنيا والآخرة وذلك أعظم الخسران ، وكان كيد الله أعظم من كيدهم ، وعقوبته عدلاً منه بهم . فنسأل الله العظيم أن يعاملنا بعفوه إنه جواد كريم .

من دروس سورة الطارق :

أولاً / أن الله جل وعلا قد أوكل ببني آدم ملائكةً يحفظونهم من الشرور حتى يأتي القدر الذي قدَّره الله على العبد فيتخلف الحفظ لذلك القدر المقدور ، وهذا من نعمة الله على بني آدم حيث أن الأنفس الشريرة كثيرة ما بين شياطين الانس والجن والحيوانات المفترسة والزواحف والحشرات السامة والجراثيم والميكروبات وغير ذلك لكن الله جل وعلا حفظ الإنسان منها كلها وإنما يصيب بعض الناس بعض هذه الشرور لحكمة يعلمها الله جل وعلا .

ثانياً / أن على المؤمن أن يحذر من يومٍ تبلى فيه السرائر ، ويخرج ما في الضمائر، فيطَّلِع الناس على ما كنت تخفيه عنهم من السيئات التي كنت تعملها في الدنيا تتخفى بها عن أعين الناس ولم تخش نظر الرقيب وجعلت ربك أهون الناظرين إليك ولذلك

كان بعض السلف يقول : خوفك من الريح إذا حركت ستر بابك وأنت على الذنب أعظم من الذنب نفسه . وذلك أنك خشيت من المخلوق ولم تخش من الخالق ، فسيعاقب الله أولئك بأن يفضحهم على رؤوس الخلائق إلا من تاب تاب الله عليه ، فأسرع بالتوبة ولا تعد لمثل ذلك أبداً ، فإن غُلِبْتَ فعاود التوبة حتى ييأس الشيطان منك ولا تجعله يغلبك فيقنطك من رحمة الله فإن باب التوبة مفتوح حتى تأتي المنية .

ثالثاً / أنه مهما كاد الكافرون بالدين ، وأرادوا تدميره وصد الناس عنه ، فإن كيدهم في خسار ومكرهم منقلب عليهم والله ناصر دينه ومعلٍ كلمته ف (إن هذا الدين منصورٌ وممتحنٌ فلا تعجب فهذي سنة الرحمن) ربما مرَّ بحالات ضعفٍ وانهزامٍ في المسلمين ، لكن الله سيظهر هذا الدين على الدين كله ، بعز عزيزٍ أو بذل ذليل ، عزاً يعز الله به الدين وأهله وذلاً يذل به أعداء الدين ، ولا تزال طائفة من المؤمنين منصورة ظاهرة باقية إلى قيام الساعة ، وهذا وعد الله ووعده الحق .

سورة الأعلى مكية وآياتها (١٩)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾

تفسير سورة الأعلى

عن جابرٍ رضي الله عنه أن معاذ بن جبل رضي الله عنه كان يصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم ثم يأتي قومه فيصلي بهم الصلاة فقرأ بهم البقرة قال : فتجوز رجلٌ فصلى صلاةً خفيفةً ، فبلغ ذلك معاذاً فقال : إنه منافق . فَبَلَغَ ذلك الرجل ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إنا قومٌ نعمل بأيدينا ونسقي نواضحنا ، وإن معاذاً صلى بنا البارحة فقرأ البقرة فتجوزت فزعم أني منافق ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم (يا معاذ أفتانٌ أنت – ثلاثاً — اقرأ ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴾ و ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ ونحوها . رواه البخاري ورواه مسلم بزيادة سورتي ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴾ ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ . وعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ أَنَّ النبي صلى الله عليه وسلم كَانَ يَقْرَأُ فِي الظُّهْرِ بِ ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ وَفِي الصُّبْحِ بِأَطْوَلَ مِنْ ذَلِكَ . رواه مسلم وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ

قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ وَفِي الْجُمُعَةِ بِ ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ وَ ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴾ قَالَ وَإِذَا اجْتَمَعَ الْعِيدُ وَالْجُمُعَةُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ يَقْرَأُ بِهِمَا أَيْضًا فِي الصَّلاَتَيْنِ . رواه مسلم وعَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ : سَمِعْتُ الْبَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : أَوَّلُ مَنْ قَدِمَ عَلَيْنَا مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ ، وَابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ وَكَانَا يُقْرِئَانِ النَّاسَ ، فَقَدِمَ بِلاَلٌ وَسَعْدٌ وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ ثُمَّ قَدِمَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي عِشْرِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ثُمَّ قَدِمَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَمَا رَأَيْتُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ فَرِحُوا بِشَيْءٍ فَرَحَهُمْ بِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم حَتَّى جَعَلَ الإِمَاءُ وفي لفظٍ حتى جعل الولائد والصبيان يقولون هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فَمَا قَدِمَ حَتَّى قَرَأْتُ ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ فِي سُوَرٍ مِنَ الْمُفَصَّلِ . رواه البخاري وعن ابن عباسٍ قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في الوتر ب ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ و ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ و ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ في ركعةٍ ركعة . رواه الترمذي وروى عن عبد العزيز بن جريج قال : سألنا عائشة بأي شيءٍ كان يوتر رسول الله صلى ا لله عليه وسلم ؟ قالت : كان يقرأ في الأولى ب ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ وفي الثانية ب ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ وفي الثالثة ب ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ والمعوذتين . قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وقال السيوطي في الدر المنثور : أخرج سعيد بن منصور وأحمد وأبو داود وَابن ماجة وَابن حبان والحاكم وصححه وَابن مردويه والبيهقي في سُنَنِه عن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه قال : لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ قال : اجعلوها في ركوعكم ولما نزلت ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ قال : اجعلوها في سجودكم .

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ﴾ عن سعيد بن جبير قال :كان بن عباسٍ إذا قرأ ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ قال : سبحان ربي الأعلى وهو مروي عن علي وابن عمر وعن قتادة قال : ذُكر لنا أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأها قال : سبحان ربي الأعلَى . وقيل أن معنى الآية أي نزه اسم ربك أن تدعوا به الالهة والأوثان كما يفعل المشركون حين يشتقون لمعبوداتهم أسماء من أسماء الله تعالى كاللات من الإله والعزى من العزيز ومناة من المنان ونحو ذلك . وقيل المعنى عظم ربك الأعلى ونزه عما لا يليق به ، والاسم صلة أريد بها تعظيم المسمى ، ويؤيده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (اجعلوها في سجودكم) فكانوا يقولون في السجود (سبحان ربي الأعلى) ولم يقولوا (سبحان اسم ربي الأعلى) قال القاسمي : الاسم صلة . وسِرُّ إيراده أن المنوَّه به إذا كان في غاية العظمة كثيراً ما تضاف ألفاظ التفخيم إلى اسمه ، فيقال : سبح اسمه ومجد ذكره ، كما يقال : سلام على المجلس العالي . هذا ما ذكروه . وثمة وجهٍ آخر وهو أن الحق تعالى إنما يعرف بأسمائه الحسنى لاستحالة اكتناه ذاته العلية ، فأقحم تنبيهاً على ذلك . انتهى من تفسيره محاسن التأويل .

والأعلى من أسماء الله الحسنى ، ويدل على كمال العلو ، علو الذات ، وعلو الصفات ، وعلو القدر ، وعلو القهر ، وأنه لا شيء أعلى وأرفع من الله سبحانه وتعالى .

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ ﴾ خلق كل شيءٍ سوياً معتدل الخلقة .

﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ قيل : أي قدَّر أرزاق الخلائق وأقواتهم وأرشدهم إلى تحصيل ما قدَّر لهم من الأرزاق . وقيل : قدَّر الشقاوة والسعادة ، وهداهم لسلوك سبيل ما قدَّر عليهم . ولذلك قال الفراء : أي فهدى وأضل . وقيل : أي دلهم على طريق الإيمان لمن أراد سلوكه . وقيل : قدر المنافع في الأشياء وهدى الناس لوجه استخراجها منها ، وقيل غير ذلك . والمختار أنه يشمل كل شيء ، فإن الله تعالى قد كتب مقادير كل شيء ، ثم هدى الخلائق لتحصيل ما قد قدره عليهم .

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ أي أخرج وأنبت ما ترعاه الدواب من أصناف الأعشاب والنباتات ﴿ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ أي جعله من بعد الخضرة والبهجة ﴿ غُثَآءً ﴾ يابساً هشيماً بالياً . وغثاء السيل ما يقذفه السيل على جنبات الوادي من الزبد والحشيش والأوساخ وما لا نفع فيه ﴿ أَحْوَىٰ ﴾ متغيراً إلى السواد . وفي هذا تشبيهٌ لحال الدنيا فبينما الإنسان في زهرة شبابه يلهو ويمرح إذ لحقه الكبر فانحنى ظهره وقربت خطاه ولحقته الأسقام ثم مات .

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ ﴾ أي سنعلمك القران فلا تنساه إما خبراً وهو الأرجح وعليه يكون خاصاً بالنبي صلى الله عليه وسلم وإما نهياً عن تركه أي استذكره ولا تتركه فتنساه . ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ما شاء الله أن تنساه منه فستنساه وهو المنسوخ منه .

﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ أي يعلم ما يجهر به الناس ويظهرونه ، ويعلم ما يسرونه ويخفونه ، فلا يخفى عليه شيء .

﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ قيل اليسرى الجنة ، وقيل عمل الخير ، وقيل نيسرك للحنيفية السمحة ملة إبراهيم عليه السلام ، وقيل نيسر عليك تلقي الوحي وحفظ القران . والأرجح أنه يشمل ذلك كله أي سنوفقك للأيسر من الأمور لك ولأمتك ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول (اعملوا فكلٌ ميسرٌ لما خلق له) وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما .

﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ فذكر بالقران وعظهم به سواءً نفعتهم الذكرى والموعظة أم لم تنفعهم ، والقران من عادته الاختصار فيما يفهم من السياق كقوله تعالى ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ ﴾ من (٨١) سورة النحل أي والبرد . وفي هذه السورة في قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ قال الفراء : أي فهدى وأضل . ولذلك قال ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ أي سينتفع بالذكرى والموعظة من يخشى الله تعالى ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ﴾ أي يتجنب سماعها بحيث يتباعد عن أماكن الوعظ والتذكير ، أو يكون المراد لا ينتفع بها ولو سمعها الأشقى أي الذي كتب عليه الشقاء وهو ﴿ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾ نار جهنم يؤتى بها تجر بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها لعظم خلقها ﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ أي لا يموت فيرتاح من العذاب ، ولا يحي حياة راحةٍ وسعادة ، وإنما في العذاب السرمدي في هذه النار الكبرى والعياذ بالله .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ أي تطهر من الشرك ، وقيل : تطهر من الأخلاق الرذيلة . وقيل : قام بعملٍ صالح . وقيل : أدى زكاة ماله . وقيل : زكى عمله بأن طهره من الرياء وحفظه من التقصير . ﴿ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ أي سبح ودعا فالصلاة هنا بمعنى الدعاء ، وقيل ﴿ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ ﴾ أي قال لا إله إلا الله ﴿ فَصَلَّىٰ ﴾ أي أقام الصلوات المفروضة أي حافظ عليها . وقيل ﴿ قَدْ أَفْلَحَ

مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ أي أخرج زكاة الفطر ﴿ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ أي التكبير وصلاة العيد . ولا شك أن هذا القول بعيد لأن السورة كلها مكية وفرضية صيام رمضان كانت في السنة الثانية من الهجرة والنبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وإن كان قد قال بهذا القول جمعٌ من الصحابة والتابعين منهم بن عباسٍ وابن عمر وأبو سعيد الخدري ومن التابعين قتادة وأبو العالية وعطاء والضحاك وغيرهم فليس مرادهم أنها نزلت لأجل ذلك ولكن أرادوا أن زكاة الفطر والتكبير وصلاة العيد تدخل في معنى هذه الآيات لا أنها نزلت بسببها والعلم عند الله تعالى . وقال البغوي : يجوز أن يكون النزول سابقاً على الحكم كما قال ﴿ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ ﴾ سورة البلد فالسورة مكية وظهر أثر الحل يوم الفتح حتى قال عليه الصلاة والسلام (أُحِلَّت لي ساعة من نهار) وكذلك نزل بمكة ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ سورة القمر قال عمر بن الخطاب : كنت لا أدري أي جمعٍ يهزم ، فلما كان يوم بدر رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يثب في الدرع ويقول ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ انتهى من تفسيره .

وقال الطبري ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ أي قد نجح وأدرك طلبته من تطهَّر من الكفر ومعاصي الله وعمل بما أمره الله به فأدّى فرائضه .

﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ ﴾ أي تقدمون الحياة الدنيا على الآخرة وقد روي عن ابن مسعود أنه قرأ هذه الآية فقال : أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة ؟ لأن الدنيا حضرت وعجلت لنا طيباتها وطعامها وشرابها ولذاتها وبهجتها . والآخرة غيبت عنا ، فأخذنا العاجل ، وتركنا الآجل . قال الطبري : واختلفت القرّاء في قراءة قوله ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ فقرأ ذلك عامَّة قرّاء الأمصار ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ﴾ بالتاء ، إلا أبا عمرو فإنه قرأه بالياء ، وقال : يعني الأشقياء . والذي لا أوثر عليه في قراءة ذلك التاء ، لإجماع الحجة من القرّاء عليه . انتهى من تفسيره . وزاد البغوي مع أبا عمروٍ يعقوب . وزاد القرطبي : نصر بن عاصم . ويمكن أن يكونا ورثا هذه القراءة من أبي عمرو .

﴿ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾ خيرٌ في جنس ما فيها وكثرته وبركته والمقصود أهل الإيمان ، وأما أهل الكفر والشرك فهي شرٌ عليهم لأنهم سيصلون فيها النار الكبرى . ﴿ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ أدوم ، فهو خير لا ينقطع لمن صلح عمله ودخل جنة ربه .

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ قال قتادة وابن زيد : يريد قوله ﴿ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾ وقال الكلبي أي من قوله ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ إلى آخر السورة ، ورجحه الطبري . وروي عن بن عباس أي السورة كلها . وقال الضحاك أي القرآن كله . وهذا بعيد ، لأن في القرآن قصص ووقائع لم تكن قد وقعت في زمن إبراهيم وموسى . ولأن القران هو المهيمن على الكتب السابقة فهو أكبر منها وأشمل .

من دروس سورة الأعلى :

أولاً / في قوله تعالى ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ﴾ إثبات العلو لله جل وعلا علو الذات وعلو القدر وعلو القهر فهو الأعلى العلو المطلق ، ودينه الأعلى على الأديان ، وعباده الأعلى على الناس عزةً وكرامة ، فلا يساوى المؤمن بالكافر في الدنيا ولا في

الآخرة ، فشتان بين عباد الرحمن وعباد الشيطان ، فينبغي أن يستعز المؤمن بربه ودينه ويعلي نفسه فلا يستذل لأعداء الله ، ولا يداهنهم في دين الله ، فإنه المنصور مهما ابتلي .

ثانياً / في قوله تعالى ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ تسليةً للدعاة وأنه ليس المهم أن يستجيب الناس لكن المهم الاستمرار في الدعوة واحتساب الأجر من الله ، سواءً انتفع الناس بتلك الدعوة أو لم ينتفعوا ، فإنما ينتفع بها من أراد الله له الهداية وكتب في قلبه الخشية ، ولا ينتفع بها الشقي الذي طبع الله على قلبه . فالهداية والإضلال بيد الله وإنما على الدعاة الإرشاد والدلالة .

ثالثاً / أن الناس يؤثرون الحياة الدنيا فلا يريدون فراقها ، ويجمعون لها كجمع المقيم الذي لن يفارقها ، ولو تيقنوا يقين المعاينة ما في الآخرة من النعيم المقيم لأهل الإيمان لما آثروا الدنيا ولسعوا إلى الآخرة سعياً حثيثاً ، فشتان بين دار المصائب والابتلاءات والأعداء والأمراض والنصب والموت ، وبين دارٍ لا نصب فيها ولا صخب ولا موت ولا مرض ولا جوع ولا عطش ولا فراق للأحباب ولا مصائب ولا ابتلاءات بل نعيم دائم لا يزول ، فينبغي على المؤمن أن يسعى للفوز بالدار الآخرة ، ولا يبيع حظه من الآخرة بثمنٍ بخسٍ متاع زائل وشهوة ذاهبة .

سورة الغاشية مكية وآياتها (٢٦)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾

تفسير سورة الغاشية

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنهما قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ وَفِي الْجُمُعَةِ بِ ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ وَ ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴾ قَالَ : وَإِذَا اجْتَمَعَ الْعِيدُ وَالْجُمُعَةُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ يَقْرَأُ بِهِمَا أَيْضًا فِي الصَّلاَتَيْنِ رواه مسلم

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ ﴾ هل جاءك يا محمد خبر الغاشية ؟ قيل : هي القيامة تغشى الناس بأهوالها ، وقيل : هي النار تغشى الكفار ، ورجح الطبري شمولها للأمرين لعموم اللفظ .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ ﴾ ذليلة وهي وجوه الكفار .

﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ ﴾ قيل في الدنيا تعمل وتنصب أي تتعب في العبادة لكنها لا تقبل لأنها على ضلالةٍ أو من مشركٍ وكافر . ﴿ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ ﴾ في الآخرة ، تشوى في النار التي قد حميت من شدة حرها . قال السيوطي : أخرج عبد الرزاق وَابن المنذر والحاكم عن أبي عمران الجوني قال : مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه براهبٍ فوقف ، ونودي الراهب فقيل له : هذا أمير المؤمنين ، فاطَّلَعَ فإذا إنسانٌ به من الضر والاجتهاد وترك الدنيا ، فلما رآه عمر بكى فقيل له : إنه نصرانيٌ ، فقال : قد علمت ولكني رحمته ، ذكرت قوله الله ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ ﴾ فرحمت نصبه واجتهاده وهو في النار . انتهى قال الطبري : واختلفت القرّاء في قراءة ذلك ، فقرأته عامة قرّاء الكوفة (تَصْلَى) بفتح التاء بمعنى : تصلى الوجوه . وقرأ ذلك أبو عمرو (تُصْلَى) بضم التاء اعتبارًا بقوله ﴿ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ ﴾ والقول في ذلك أنهما قراءتان صحيحتا المعنى فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب . انتهى من تفسيره .

وقيل ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ ﴾ في الآخرة يعملون وينصبون في النار . قال قتادة : تَكَبَّرَتْ في الدنيا عن طاعة الله فاعملها وانصبها في النار . انتهى . أي يُكَلَّفون بعملٍ يعملونه في النار يتعبهم عقوبةً لهم على تركهم العمل لله في الدنيا . كما في قوله تعالى ﴿ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ ﴾ سورة المدثر قال المفسرون : أي سأكلفه بأعمالٍ يلحقه منها مشقة وتعب . وقيل هو جبلٌ في النار يكلَّف صعوده . والآية الأخيرة وإن كانت نزلت في الوليد بن المغيرة إلا أنها تدل على أن أهل النار يكلَّفون بأعمالٍ يلحقهم منها مشقة ونصب ، وذلك زيادةً على ما هم فيه من عذاب النار .

وقيل : ﴿ عَامِلَةٌ ﴾ بالمعاصي في الدنيا ﴿ نَّاصِبَةٌ ﴾ في العذاب في الآخرة .

﴿ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ ﴾ بلغت من الحرارة غايتها ومنتهاها .

﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ ﴾ قال بن عباس ومجاهد وقتادة وعكرمة : الضريع الشبرق وهي شجرة ذات شوك ، وتسميها قريش الضريع إذا يبست . وقال أبو الجوزاء : الضريع السلم وهو الشوك . وقال سعيد بن جبير : هي شجرة الزقوم . وعن بن عباس : أنه شجرٌ من نار . وقال بن زيد : شوكٌ من نار . وهو أولى عندي لأن الشجر ذا الشوك يغني الدواب من الجوع وربما أسمنها ، اللهم إلا أن يكون الله قد سلب منها تلك الخاصية في النار وجعل أكلها مجرد عذابٍ على الكفار تتقطع منه أيديهم وتتقرح منه أفواههم ولا ينفعهم شيئاً ، والله على كل شيءٍ قدير .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ ﴾ وجوه المؤمنين ﴿ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ ﴾ رضيت عملها في الدنيا لأنه أوصلها إلى رضا الله ودار كرامته ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ ﴾ أي رفيعة المكان والصفات ﴿ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ ﴾ أي لا تسمع كلمةً لاغيةً من اللغو . وقد ذكر أهل اللغة للغو معانٍ عدة منها :

الأول / أنه القول الساقط الذي لا يعتد به ولا يحصل منه على فائدة ولا نفع . قاله في لسان العرب وفي تاج العروس وفي المحكم .

الثاني / أنه ما قيل بغير رويةٍ ولا فكر ولم يعقد عليه القلب كقوله تعالى ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ ﴾ من (٢٢٥) سورة البقرة وهو قول : لا والله ، وبلى والله . وهو قول الراغب كما نقله في تاج العروس وهو قول الأزهري وصاحب الصحاح . وعليه يكون من معاني اللغو : الخطأ ، وقد صرح به في لسان العرب .

الثالث / الإثم ، وهو قول الفيروز أبادي في القاموس المحيط ومعنى قوله تعالى ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ ﴾ عنده أي : لا يؤاخذكم الله بالإثم في الحلف إذا كَفَّرتُم . وذكره في تاج العروس وقال : كما في المحكم . وقال : وفي النهايةِ : اللَّغْوُ سُقوطُ الإثْمِ عن الحالِفِ إذا كفَّرَ يَمِينَه .

الرابع / اللغط ، ومنه قوله تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦ ﴾ أي أكثروا اللغط عند قراءته . ذكره ابن منظور في لسان العرب .

الخامس / الكلام الفاحش أو القبيح ومنه قوله تعالى ﴿ لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ١١ ﴾ وهو قول الأزهري كما نقله في تاج العروس وقال في القاموس المحيط : وكلِمةٌ لاغِيةٌ أي : فاحِشةٌ . انتهى .

السادس / الباطل ، ومنه قوله تعالى ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ٧٢ ﴾ سورة الفرقان أي إذا مروا بالباطل قيل بأهل الشرك وقيل بأهل المعاصي ومنه الغناء ﴿ مَرُّواْ كِرَامٗا ٧٢ ﴾ لم يلتفتوا إلى ما هم عليه . ولم يستمعوا لهم . وقيل : مروا منكرين . قال في تاج العروس : واللَّغْوُ : الباطِلُ عن الإمام البُخارِي وبه فَسَّر الآيَةَ ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ ﴾ وأَلْغَى هذه الكَلِمَة : رآها باطلاً وفضْلاً ، وكذا ما يُلْغَى مِن الحِسابِ . وأَلْغاهُ : أَبْطَلَه وأَسْقَطَه وأَلْقَاهُ . ورُوِي عن ابنِ عبَّاس : أَنَّه أَلْغَى طَلاقَ المكْرَه . انتهى

السابع / الأذى والسب والشتم ومنه قوله تعالى ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ٥٥ ﴾ سورة القصص أي سمعوا الأذى من الكفار .

والمذكور عن السلف في تفسير اللغو في هذه الآية سبعة أقوال : الأول : الكذب ، قاله بن عباس . الثاني : الإثم ، قاله قتادة الثالث : الشتم ، قاله مجاهد . الرابع : الباطل ، قاله يحيى بن سلام . الخامس : المعصية ، قاله الحسن . السادس : الحلف فلا تسمع في الجنة حالف يمين برة ولا فاجرة ، قاله الكلبي . السابع : لا يسمع في كلامهم كلمة تلغى ، لأن أهل الجنة لا يتكلمون إلا بالحكمة وحمد الله على ما رزقهم ، قاله الفراء . ذكر هذا الماوردي في النكت والعيون وذكر القرطبي نحوه وليس هذا من اختلاف التضاد بل من اختلاف التنوع فكل واحدٍ ذكر نوعاً من أنواع اللغو ومعنىً من معانيه ، وكل الكلام المذموم من اللغو كما قال الطبري .

قال الطبري : واختلفت القرّاء في قراءة ذلك ، فقرأته عامة قرّاء الكوفة وبعض قرّاء المدينة وهو أبو جعفر (لا تَسْمَعُ) بفتح التاء ، بمعنى : لا تسمع الوجوه . وقرأ ذلك ابن كثير ونافع وأبو عمرو (لا تُسْمَعُ) بضم التاء ، بمعنى ما لم يسمّ فاعله ويؤنَّث تسمع

لتأنيث لاغية . وقرأ ابن محيصن بالضم أيضاً غير أنه كان يقرؤها بالياء على وجه التذكير . والصواب من القول في ذلك عندي أن كلّ ذلك قراءات معروفات صحيحات المعاني فبأيّ ذلك قرأ القارئ فمصيب . انتهى .

﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾ اسم جنس أي فيها عيونٌ تجري كقوله تعالى ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ سورة الشعراء أي من جنس الرسل الذين أرسلهم رب العالمين .

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ ﴾ السرر جميع سرير ، والسرير عند العرب هو المضطجع ، والذي يجلس عليه ، والنعش قبل أن يحمل عليه الميت . قاله في المعجم الوسيط . قال البغوي : قال ابن عباس : ألواحها من ذهبٍ مكللة بالزبرجد والدر والياقوت مرتفعةً ما لم يجيء أهلها ، فإذا أراد أن يجلس عليها تواضعت له حتى يجلس عليها ثم ترتفع إلى مواضعها. انتهى من تفسيره . وقيل : رُفِعَتْ ليتنعم ولي الله برؤية ما أعدَّ الله له في الجنة ، وليشرف على ذلك من علو .

﴿ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ ﴾ جمع كوب وهو الإناء الذي يشرب فيه ﴿ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ قال السعدي : قد وضعت بين أيديهم ، وأعدت لهم ، وصارت تحت طلبهم واختيارهم ، يطوف بها عليهم الولدان المخلدون. انتهى . وقال الطبري : موضوعة على حافة العين الجارية ، كلما أرادوا الشرب وجدوها ملأى من الشراب. انتهى . قال الفخر الرازي : في قوله ﴿ مَّوْضُوعَةٌ ﴾ وجوه أحدها : أنها معدة لأهلها كالرجل يلتمس من الرجل شيئاً فيقول هو هاهنا موضوع بمعنى معد . وثانيها : موضوعة على حافات العيون الجارية كلما أرادوا الشرب وجدوها مملوءة من الشرب . وثالثها : موضوعة بين أيديهم لاستحسانهم إياها بسبب كونها من ذهب أو فضة أو من جوهر ، وتلذذهم بالشراب منها . ورابعها : أن يكون المراد موضوعة عن حد الكبر أي هي أوساط بين الصغر والكبر كقوله ﴿ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ من (١٦) سورة الإنسان . انتهى . قلت ولا يمنع أن يشمل ذلك كله وزيادة فإن اللفظ عام ولا مخصص له .

﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ ﴾ أي وسائد . وقيل : مرافق . من الترفق وهو الاتكاء ، أي متاكي مصفوفة بعضها بجانب بعض . والاتكاء في زماننا يكون إلى الخلف على الوسائد الكبيرة وإلى الجنب على المراكي وعلى الوسائد الصغيرة . ولا شك أن نعيم الجنة أكمل وأفضل .

﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾ الزرابي : البسط الفاخرة . ومبثوثة يعني في أماكن متفرقة من المجالس ، من البث وهو التفريق كما قال تعالى ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾ من (١٦٤) سورة البقرة أي فرّق ، ويقال : بث الأمير سراياه ، يعني فرّق .

وقد ذكر الله جل وعلا هاهنا بعض نعيم أهل الجنة وذكر أصنافاً وأنواعاً أخر في مواضع كثيرة من كتابه الكريم كما قال تعالى ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ سورة البقرة وقال تعالى ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾

﴿ سورة ال عمران وقال تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾ سورة الكهف وقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ سورة الكهف وقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ سورة الحج وقال تعالى ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ سورة فاطر وقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ ﴾ سورة الدخان وقال تعالى ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ من (١٥) سورة محمد وقال تعالى ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ ﴾ سورة النبأ في آياتٍ كثيرات ، وأما من السنة فيقول النبي صلى الله عليه وسلم (يقول الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، واقرءوا إن شئتم ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ سورة السجدة وقال صلى الله عليه وسلم (أول زمرةٍ يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ثم الذين يلونهم على أشد كوكبٍ دريٍ في السماء إضاءة لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يمتخطون ، أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ومجامرهم الألوة ، أزواجهم الحور العين على خلق رجلٍ واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا في السماء) وفي رواية (آنيتهم فيها الذهب ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم قلب واحد يسبحون الله بكرةً وعشيا) وقال صلى الله عليه وسلم (إن للمؤمن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة طولها في السماء ستون ميلاً للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً) وسأل الصحابة رضي الله عنهم النبي صلى الله عليه وسلم عن بناء الجنة فقال (لبنةٌ من ذهب ولبنةٌ من فضة ملاطها المسك وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت وترابها الزعفران من يدخلها ينعم فلا يبأس ويخلد ولا يموت لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه) وقال صلى الله عليه وسلم (ألا هل من مُشَمِّر للجنة ، فإن الجنة لا خَطَر لها ، هي ورب الكعبة ، نور يتلألأ ، وريحانة تهتز وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وثمرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحُلَل كثيرة ، ومقام في أبد في دارٍ سليمة ، وفاكهة وخضرة ، وحبرة ونعمة ، في محلة عالية بهية ؟. قالوا : نعم يا رسول الله ، نحن المشمرون لها. قال (قولوا : إن شاء الله) قال القوم : إن شاء الله . وأعظم نعيم أهل الجنة رؤية الملك الجبار جل جلاله كما تعالى ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ سورة القيامة وعن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر وقال (إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته) في

أحاديث كثيرة لكن هذا النعيم لا ينال بالأماني بل لابد من عملٍ وجهاد حتى يحصِّل المرء هذا النعيم فقد حجبت الجنة بالمكاره قال بن القيم :

يا سلعة الرحمن لست رخيصة بل أنت غالية على الكسلان

يا سلعة الرحمن ليس ينالها في الألف إلا واحداً لا اثنان

يا سلعة الرحمن أين المشتري فلقد عرضت بأيسر الأثمان

يا سلعة الرحمن هل من خاطبٍ فالمهر قبل الموت ذو إمكان

يا سلعة الرحمن لولا أنها حجبت بكل مكاره الإنسان

ما كان عنها قط من متخلفٍ وتعطلت دار الجزاء الثاني

لكنها حجبت بكل كريهةٍ لِيُصد عنها المبطل المتواني

وتنالها الهمم التي تسموا إلى ذرر العلى بمشيئة الرحمن

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ ﴾ قيل : لما نعت الله ما في الجنة عجب من ذلك الكفار فأنزل الله ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ ﴾ الآيات الأربع ، فالذي خلق هذا في الدنيا قادرٌ على أن يخلق هذا النعيم للمؤمنين في الجنة . ولم يأمرهم الله جل وعلا أن ينظروا في المريخ أو زحل أو ما هو في باطن الأرض أو فوق السماء من المخلوقات العجيبة وإنما أمرهم بالنظر فيما تدركه عقولهم ويرونها بأبصارهم ويعايشونها في حياتهم اليومية ، وفي هذا درسٌ للدعاة أن يعلموا الناس ويعظونهم بما يستطيعون إدراكه من المعلومات ، ولذلك قال علي بن أبي طالبٍ رضي الله عنه : حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذَّبَ اللهُ ورسولهُ . رواه البخاري . وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة . رواه مسلم ولذلك قال الله تعالى ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ ﴾ أي هذه الإبل التي تعايشونها في حياتكم اليومية وتستفيدون منها ، انظروا إلى عجيب خلقها ، فإنها خلقت قويةً شديدة ، تحمل الأثقال ، وتفري الرمال ، وتقطع الأميال ، وتتحمل العطش والمصاعب والأهوال ، وهي مع ذلك تنقاد للأطفال ، وينتفع بها النساء والرجال . إن عطشوا شربوا من لبنها ، وإن جاعوا أكلوا من لحمها ، وإن تعبوا ركبوا فوق ظهرها ، ويصنعون من أوبارها ما يتوقون به من حرارة الشمس ولفع البرد ، فيا لها من مخلوقٍ عجيب .

﴿ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ ﴾ في العلو فكانت سقفاً بلا عمد .

﴿ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ ﴾ على الأرض فكانت وتداً لها لئلا تميد الأرض بأهلها .

﴿ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ أي جعلت مسطحةً أي مبسوطة ، يراها الناظر كذلك وإن كانت في حقيقتها كروية لكن لا يشعر بكرويتها لكبر حجمها ، وفي ذلك من إبداع صنع الخالق ما لا يقدر قدره أحد .

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ ﴾ أي واعظ ومعلم ومبلغ عن الله تعالى ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ أي مسلط ، تجبرهم على الإيمان كما قال تعالى ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾ سورة آل عمران

﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ ﴾ إلا هنا بمعنى لكن لأن الاستثناء منقطع فهو ليس من جنس المستثنى منه وإلا لكان المعنى ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ ﴾ فأنت عليه مصيطر ، وليس هذا هو المراد من الآية في قول الأكثر ، لكن الآية تتحدث عن معنىً آخر ﴿ مَن تَوَلَّىٰ ﴾ أي أعرض ﴿ وَكَفَرَ ﴾ أي جحد واستكبر ، بعدما حصل له التذكير والبلاغ فيكون له العذاب الأكبر وهو عذاب جهنم . قال الماوردي : وفي ﴿ تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴾ وجهان : أحدهما : تولى عن الحق وكفر بالنعمة . الثاني : تولى عن الرسول وكفر بالله تعالى ، قاله الضحاك . انتهى . وقال السعدي : لكن من تولى عن الطاعة وكفر بالله . انتهى . وقيل الاستثناء متصل والمعنى ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ ﴾ فأنت مسلطٌ عليه بالجهاد ثم الله يعذبه العذاب الأكبر . ذكره القرطبي في تفسيره .

﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾ أي رجوعهم في الدار الآخرة .

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾ أي جزاءهم ، فنحن الذين نحاسبهم على أعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

من دروس سورة الغاشية :

أولاً / أن يوم القيامة يوم عظيم شديد يغشى الناس بأهواله وشدائده ، فينبغي التجهز والاستعداد له بالأعمال الصالحات المنجيات من عذاب الله وسخطه حتى يأمن الإنسان من العذاب في ذلك اليوم فيزول عنه الرعب والخوف .

ثانياً / أن من أساليب القران الترغيب والترهيب ، فيذكر النار وأهوالها وما يصيب أهلها فيها للترهيب ، ويذكر الجنة ونعيمها وحال أهلها فيها للترغيب ، فهو أسلوب ربانيٌ ناجح ينبغي أن يجعله المؤمن أسلوب حياة في دعوته للناس وتعامله معهم وفي تربيته لأولاده وتلاميذه ونحو ذلك .

ثالثاً / أنه ينبغي النظر إلى المخلوقات نظر تفكرٍ واعتبارٍ واتعاظ ، فعظمة هذه المخلوقات وما فيها من العجائب والغرائب وإبداع صنعها يدل على عظمة الخالق جل وعلا .

سورة الفجر مكية وآياتها (٣٠)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ﴾

تفسير سورة الفجر

﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ ﴾ يقسم تعالى بالفجر وهو الصبح أو صلاة الفجر المعروفة .

﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ ﴾ العشر من ذي الحجة .

﴿ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ ﴾ قيل الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة وهو قول بن عباس وعكرمة والضحاك ، وقيل الشفع يومي التشريق الحادي عشر والثاني عشر والوتر يوم الثالث عشر وهو قول عبد الله بن الزبير وابن زيد ، وقيل الوتر الله والشفع الخلق أزواج ذكرٌ وأنثى وهو قول بن عباس ومجاهد وأبو صالح ، وقال مجاهد : الخلق شفع : الْكُفْرَ وَالإِيمَانَ ، وَالسَّعَادَةَ وَالشَّقَاوَةَ وَالْهُدَى وَالضَّلاَلَةَ ، وَاللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، وَالسَّمَاءَ وَالأَرْضَ ، وَالْجِنَّ وَالإِنْسَ ، والوتر : الله . وقيل المراد الخلق منه شفعٌ ومنه وترٌ وهو قول

الحسن ومجاهد وابن زيد ، وقيل المراد الصلاة فيها شفعٌ وفيها وتر وهو قول عمران بن حصين والربيع بن أنس وقتادة ذكر هذه الأقوال الطبري ورجح شمول الآية لكل شفعٍ ووتر .

وقوله تعالى﴿ وَٱلْوَتْرِ ﴾ قرأها عامة قراء مكة والمدينة والبصرة وبعض أهل الكوفة بفتح الواو ، وقرأها عامة أهل الكوفة بكسر الواو ، وهما قراءتان صحيحتان كما قال الطبري .

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ ﴾ أي يذهب ، وقيل المراد ليلة مزدلفة . قال البغوي : قرأ أهل الحجاز والبصرة (يسري) بالياء في الوصل ، ويقف ابن كثير ويعقوب بالياء أيضاً ، والباقون يحذفونها في الحالين ، فمن حذف فلِوِفَاق رؤوس الآي ، ومن أثبت فلأنها لام الفعل ، والفعل لا يحذف منه في الوقف نحو قوله : هو يقضي وأنا أقضي . وسئل الأخفش عن العلة في سقوط الياء ؟ فقال : الليل لا يسري ولكن يسرى فيه ، فهو مصروف ، فلما صرفه بخسه حقه من الإعراب ، كقوله ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ من (٢٨) سورة مريم ولم يقل (بغية) لأنها صرفت من باغية . انتهى من تفسيره .

﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ ﴾ أي أن هذا القسم فيه كفاية لمن كان له عقل يتفكر به ، وسمي العقل بالحجر لأنه يحجر صاحبه عن السفه والطيش .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾ ﴾ أي ألم تر يا محمد ما فعل الله بعاد ؟ والمراد الرؤية القلبية فإنه لم يدركهم حتى يشاهد ما حدث لهم بعينه ولكن الخبر اليقين كالمشاهدة ، فإن قصة عادٍ مع كونها ذكرت في القرآن مراراً وتكراراً وكفى بالقران خبراً يقينياً ، فإن أخبار عادٍ قد تواترت عند العرب وقصصهم مشهورة معروفة عندهم حتى أصبحت كالمشاهدة ، ولذلك عبَّر عنها القران بالرؤية كقصة أصحاب الفيل حيث كانت قصتهم من تواترها وشهرتها كأنها رأي العين ولذلك قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَـٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾ سورة الفيل وهكذا أخبار عاد . واختلفوا في المراد بقوله تعالى ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾ ﴾ على عدة أقوال :

القول الأول / أن إرم اسمٌ لمدينةٍ من حواضر عاد ، واختلفوا فيها فقال عكرمة وخالد الربعي وسعيد المقْبُري هي دمشق . وقال القرظي هي الإسكندرية . وقيل حضر موت . قال الطبري : فإن بلاد عاد التي وصفها الله في كتابه فقال ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ ﴾ وَالأَحْقَافُ : هِيَ جَمْعُ حِقْفٌ ، وَهُوَ مَا انْعَطَفَ مِنَ الرَّمْلِ وَالْحَنَى ، وَلَيْسَتِ الإِسْكَنْدَرِيَّةُ وَلاَ دِمَشْقُ مِنْ بِلاَدِ الرِّمَالِ ، بَلْ ذَلِكَ الشِّحْرُ مِنْ بِلاَدِ حَضْرَمَوْتَ وَمَا وَالاَهَا . انتهى . وقيل أنها مدينة بناها شداد بن عاد من الذهب والفضة والجواهر ، وأجرى فيها الأنهار ، وزرع البساتين ، قيل لأنه سمع بجنة عدنٍ فأقسم ليصنعن مثلها قرب عدن اليمن لتكون هي جنة عدنٍ المذكورة وهي التي يقول فيها صاحب مرثية الأندلس :

وأين ما شاده شداد من إرمٍ وأين ما ساسه للفرس ساسان

وغير ذلك من الأقاويل التي لا مستند لها .

قال القرطبي : واختار ابن العربي أنها دمشق ، لأنه ليس في البلاد مثلها . ثم أخذ ينعتها بكثرة مياهها وخيراتها. ثم قال : وإن في الإسكندرية لعجائب ، لو لم يكن إلا المنارة فإنها مبنية الظاهر والباطن على العمد ولكن لها أمثال ، فأما دمشق فلا مثل لها. وقد روى معن عن مالك أن كتاباً وجد بالإسكندرية ، فلم يدر ما هو؟ فإذا فيه : أنا شداد ابن عاد ، الذي رفع العماد بنيتها حين لا شيب ولا موت. قال مالك : إن كان لتمر بهم مائة سنة لا يرون فيها جنازة . وذكر عن ثور بن زيد أنه قال: أنا شداد بن عاد ، وأنا رفعت العماد ، وأنا الذي شددت بذراعي بطن الواد ، وأنا الذي كنزت كنزاً على سبعة أذرع لا يخرجه إلا أمة محمد صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وروي أنه كان لعاد ابنان : شداد وشديد ، فملكا وقهرا ، ثم مات شديد وخلص الامر لشداد فملك الدنيا ، ودانت له ملوكها ، فسمع بذكر الجنة ، فقال : أبنى مثلها. فبنى إرم في بعض صحاري عدن في ثلاثمائة سنة ، وكان عمره تسعمائة سنة . وهي مدينة عظيمة ، قصورها من الذهب والفضة ، وأساطينها من الزبرجد والياقوت ، وفيها أصناف الأشجار والأنهار المطردة . ولما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته ، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة ، بعث الله عليهم صيحةً من السماء فهلكوا . وعن عبد الله بن قلابة : أنه خرج في طلب إبلٍ له ، فوقع عليها فحمل ما قدر عليه مما ثم ، وبلغ خبره معاوية فاستحضره ، فقص عليه ، فبعث إلى كعبٍ فسأله ، فقال: هي إرم ذات العماد ، وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك ، أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عقبه خال يخرج في طلب إبل له ثم التفت فأبصر ابن قلابة ، وقال : هذا والله ذلك الرجل . انتهى من تفسيره .

قال بن كثير : ومن زعم أن المراد بقوله ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ مدينة إما دمشق كما روي عن سعيد بن المسيب وعكرمة أو اسكندرية كما رُوي عن القُرَظي أو غيرهما ففيه نظر ، فإنه كيف يلتئم الكلام على هذا ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ﴾ إن جعل ذلك بدلاً أو عطف بيان فإنه لا يتسق الكلام حينئذٍ . ثم المراد إنما هو الإخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعاد ، وما أحل الله بهم من بأسه الذي لا يُرَد ، لا أن المراد الإخبار عن مدينة أو إقليم . وإنما نبهت على ذلك لئلا يُغْتَرَّ بكثيرٍ مما ذكره جماعة من المفسرين عند هذه الآية من ذكر مدينة يقال لها ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ مبنية بلبن الذهب والفضة قصورها ودورها وبساتينها ، وإن حصباءها لآلئ وجواهر ، وترابها بنادق المسك ، وأنهارها سارحة ، وثمارها ساقطة ودورها لا أنيس بها ، وسورها وأبوابها تصفر ، ليس بها داع ولا مجيب . وأنها تنتقل فتارةً تكون بأرض الشام ، وتارة باليمن وتارةً بالعراق ، وتارةً بغير ذلك من البلاد ، فإن هذا كله من خرافات الإسرائيليين من وضع بعض زنادقتهم ليختبروا بذلك عقول الجهلة من الناس أن تصدقهم في جميع ذلك . وذكر الثعلبي وغيره أن رجلاً من الأعراب وهو عبد الله بن قِلابة في زمان معاوية ذهب في طلب أباعرٍ له شردت ، فبينما هو يتيه في ابتغائها ، إذ طلع على مدينةٍ عظيمةٍ لها سورٌ وأبواب فدخلها فوجد فيها قريبًا مما ذكرناه من صفات المدينة الذهبية التي تقدم ذكرها ، وأنه رجع فأخبر الناس ، فذهبوا معه إلى المكان الذي قال فلم يروا شيئاً. وقد ذكر ابن أبي حاتم قصة ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ هاهنا مطولة جداً . فهذه الحكاية ليس يصح إسنادها ، ولو صح إلى ذلك الأعرابي فقد يكون اختلق ذلك ، أو أنه أصابه نوع من الهَوَس والخبال فاعتقد أن ذلك له حقيقة في الخارج وليس كذلك . وهذا مما يُقْطَع بعدم صحته . وهذا قريبٌ مما يخبر به كثيرٌ من الجهلة والطامعين والمتحيلين من وجود مطالب تحت الأرض فيها قناطير الذهب والفضة وألوان الجواهر واليواقيت واللآلئ والإكسير الكبير ، لكن عليها موانع تمنع من الوصول إليها والأخذ منها ،

فيحتالون على أموال الأغنياء والضعفة والسفهاء فيأكلونها بالباطل في صرفها في بخاخير وعقاقير ونحو ذلك من الهذيانات ويَطْنزون بهم . والذي يجزم به أن في الأرض دفائن جاهلية وإسلامية وكنوزًا كثيرة من ظفر بشيءٍ منها أمكنه تحويله ، فأما على الصفة التي زعموها فكذب وافتراء وبهت ، ولم يصح في ذلك شيء مما يقولون إلا عن نقلهم أو نقل من أخذ عنهم ، والله سبحانه وتعالى الهادي للصواب. انتهى من تفسيره .

وقال القاسمي : قال الإمام الدرّاكة ابن خلدون في " مقدمة تاريخه" في سياق الأخبار الواهية للمؤرخين ما مثاله : وأبعد من ذلك وأعرق في الوهم ما يتناقله المفسرون في تفسير سورة الفجر في قوله تعالى ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ فيجعلون لفظه { إِرَمَ } اسماً لمدينة وصفت بأنها ذات عماد ، أي : أساطين ، وينقلون أنه كان لعاد بن عوص بن إرم ابنان ، هما شديد وشداد ملكا من بعده ، وهلك شديد فخلص الملك لشداد ، ودانت له ملوكهم وسمع وصف الجنة فقال لأبنيّن مثلها ، فبنى مدينة إرم في صحارى عدن في مدة ثلاثمائة سنة ، وكان عمره تسعمائة سنة ، وأنها مدينة عظيمة قصورها من الذهب وأساطينها من الزبرجد والياقوت ، وفيها أصناف الشجر والأنهار المطردة ، ولما تمَّ بناؤها سار إليها بأهل مملكته ، حتى إذا كان منها على مسيرة يوم وليلة ، بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا كلهم . ذكر ذلك الطبريّ والثعالبي والزمخشري وغيرهم من المفسرين . وينقلون عن عبد الله بن قلابة من الصحابة أنه خرج في طلب إبلٍ له فوقع عليها وحمل منها ما قدر عليه ، وبلغ خبره إلى معاوية فأحضره وقص عليه ، فبحث عن كعب الأحبار وسأله عن ذلك فقال : هي ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال يخرج في طلب إبل له ، ثم التفت فأبصر ابن قلابة فقال : هذا واللهِ ذاك الرجل . قال ابن خلدون : وهذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذٍ في شيءٍ من بقاع الأرض وصحارى عدن التي زعموا أنها بنيت فيها هي في وسط اليمن وما زآل عمرانه متعاقباً والأدلاء تقص طرقهُ من كل وجه . ولم ينقل عن هذه المدينة خبر ولا ذكرها أحد من الأخباريين ولا من الأمم ، ولو قالوا : إنها درست فيما درس من الآثار لكان أشبهُ ، إلا أن ظاهر كلامهم أنها موجودة ، وبعضهم يقول : إنها دمشق ، بناء على أن قوم عاد ملكوها . وقد انتهى الهذيان ببعضهم إلى أنها غائبة ، وإنما يعثر عليها أهل الرياضة والسحر . مزاعم كلها أشبهُ بالخرافات . والذي حمل المفسرين على ذلك ما اقتضته صناعة الإعراب في لفظه { ذَاتِ الْعِمَادِ } أنها صفة { إِرَمَ } وحملوا العماد على الأساطين ؛ فتعين أن يكون بناء ، ورشح لهم ذلك قراءة ابن الزبير { عاد إرم } على الإضافة من غير تنوين . ثم وقفوا على تلك الحكايات التي هي أشبه بالأقاصيص الموضوعة التي هي أقرب إلى الكذب المنقولة في عداد المضحكات ، وإلا فالعماد هي عماد الأخبية بل الخيام . وإن أريد بها الأساطين ، فلا بدع في وصفهم بأنهم أهل بناء وأساطين على العموم بما اشتهر من قوتهم ، لا أنه بناء خاص في مدينة معينة أو غيرها . وإن أضيفت كما في قراءة ابن الزبير على إضافة الفصيلة إلى القبيلة ، كما تقول : قريش كنانة ، وإلياس مضر ، وربيعة نزار . وأي ضرورة إلى هذا المحمل البعيد الذي تمحلت لتوجيهه لأمثال هذه الحكايات الواهية التي ينزه كتاب الله عن مثلها لبعدها عن الصحة ؟ انتهى من محاسن التأويل للقاسمي .

القول الثاني / أنه اسمٌ لجدِّ عاد فهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح . وقال بن إسحاق هو عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح نقله الطبري . وعليه فتكون عاد مضافة إلى إرم من إضافة الفصيلة إلى القبيلة ، كما تقول : قريش كنانة وإلياس مضر ، وربيعة نزار . وهو قول بن إسحاق والسدي قال بن الرقيات :

مجداً تليداً بناه أولهم أدرك عاداً وقبله إرما

القول الثالث / أنه اسمٌ لفخذٍ من عاد وهي التي لها السيادة على القبيلة كما يقال فلان عميد القوم وعمودهم : أي سيدهم وهو قول قتادة ومقاتل ورجحه الطبري .

القول الرابع / أن عاداً قبيلتان أولى وأخرى كما قال تعالى ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ٥٠ ﴾ سورة النجم فالأولى هي أرم وهي التي أُرْسِلَ إليها هود عليه السلام فلم تستجب له فأهلكها الله . واختاره بن كثير . وكان مجاهد يقول إرم أمة . وقال : قديمة . قال بن كثير : يعني عاداً الأولى . انتهى . وقال القرطبي في تفسير قوله تعالى ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودًا ﴾ من سورة هود قال : هؤلاء هم الأولى ، وأما الأخرى فهو شداد ولقمان المذكوران في قوله تعالى ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴾ انتهى . وقال ابن إسحاق : هما عادان : فالأولى أهلكت بالريح الصرصر ، ثم كانت الأخرى فأهلكت بالصيحة . قلت : وقول بن كثيرٍ أصح ، وأما قول بن إسحاق في الأخرى فباطل لأنه مبنيٌ على القصة الباطلة المكذوبة في شأن مدينة إرم وتقدم الحديث عنها .

ولما رجعنا إلى تفسير قوله تعالى ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ٥٠ ﴾ وجدنا أنهم مختلفين في المراد بالأولى فقيل : لأنها من أول الأمم وهو قول بن زيد واختاره القاسمي والفخر الرازي وقال : ذلك لبيان تقدمهم أي عاداً الذين تقدموا وليس ذلك للتمييز والتعريف كما تقول محمد النبي شفيعي والله الكريم ربي . انتهى . وقيل : تذكر الأولى وإن لم يكن لها أخرى كقوله تعالى ﴿ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ ﴾ من (٣٣) سورة الأحزاب . وقيل : سميت الأولى لأنها أهلكت قبل ثمود . وقيل : لأنها بقيت من عادٍ بقية وهم ذراري من آمن مع هود عليه السلام فكانوا هم عاداً الأخرى حتى أفناهم الموت فيما بعد . وإنما الهالكون بالعذاب الأوائل الذين أرسل الله إليهم هود عليه السلام . وهو معنى قول مقاتل بن سليمان والإمام البغوي . وقال الطبري : وإنما قيل لعاد بن إرم ﴿ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴾ لأن بني لُقَيم بن هزَّال بن هزيل بن عتيل بن صدّ بن عاد الأكبر ، كانوا أيام أرسل الله على عاد الأكبر عذابه سكانا بمكة مع إخوانهم من العمالقة ولد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح ولم يكونوا مع قومهم من عاد بأرضهم فلم يصبهم من العذاب ما أصاب قومهم وهم عاد الآخرة ، ثم هلكوا بعد . انتهى .

القول الخامس / أن معنى إرم أي الهالك كما يقال : أَرِمَ بنو فلان . أي هلكوا . وهو قول الضحاك ومرويٌ عن بن عباس قال بن حجر : هذا التفسير على قراءةٍ شاذة أرم بفتحتين وتشديد الراء على أنه فعل ماض {وذات} بفتح التاء مفعولة أي أهلك الله ذات العماد . ذكره في الدر المنثور . وعن شهر بن حوشب : رمَّهُم رماً فجعلهم رمماً .

واختلفوا في قوله تعالى ﴿ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ فقيل لأنهم أهل ملك مملكة عاد كما يقال : عميد القوم أي سيدهم . وهو قول قتادة وقيل : سموا بذلك لأنهم طوالٌ كما قال هود عليه السلام لهم ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ﴾ من (٦٩) سورة الأعراف وهو قول بن عباس ومجاهد ومقاتل وأبو عبيدة وقتادة وقال قتادة : ذكر لنا انهم كانوا اثني عشر ذراعاً طولاً في السماء . وقال غيره سبعون ذراعاً ، وقيل غير ذلك . وقال الضحاك : سموا بذلك لأنهم أشداء أقوياء كما قال تعالى ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ من (١٥) سورة فصلت وقال بن زيد : أي مدينة إرم بحضر موت بنوها بأعمدةٍ طوالٍ عظام ﴿ لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ أي لم يصنع أحدٌ مثلها ، وقيل سموا بذلك لأنهم أهل عُمَدٍ وخيامٍ وماشيةٍ سيارةٍ في الربيع فإذا هاج العود عادوا إلى منازلهم . وهو قول مجاهد وقتادة ورجحه الطبري والقاسمي وقال القاسمي : أي : ذات الخيام المعمّدة ، لأنهم كانوا أهل عمد ينتجعون الغيوث وينتقلون إلى الكلأ حيث كان ثم يرجعون إلى منازلهم في الأحقاف في حضرموت . وقيل : كنيَ بالعماد عن العلوّ والشرف والقوة ، إلا أنه الأشبه – كما قال ابن جرير – بظاهر التنزيل هو الأول ، وهو أنهم كانوا عمد سيارة ؛ لأن المعروف في كلام العرب من العماد ، ما عُمد به الخيام من الخشب والسواري التي يحمل عليها البناء . ثم قال : وتأويل القرآن إنما يوجهُ إلى الأغلب الأشهر من معانيه ، ما وجد إلى ذلك سبيل دون الأنكر . انتهى من تفسيره محاسن التأويل . فإن قيل : قد ذكرت مجاهداً وقتادة مع من فسروا الآية بأن المراد طول الأجسام وذكرتهم هاهنا ؟ قلنا : نعم هكذا نقل المفسرون عنهما ، وهو من اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد فلا مانع بأن يكون المراد بالآية هذا وهذا فهم طوالٌ أشداء وهم أهل عُمَدٍ وخيام وهم فخذٌ من عادٍ وهم علية القوم فحمل الآية على كل المعاني التي تحتملها أولى من حملها على البعض واطراح الآخر .

﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ ﴾ وأيضاً ألم تر ما فعل ربك بثمود وهو قوم صالح الذين نقبوا الحجارة وثقبوها وقطعوها ودخلوها ونحتوها حتى جعلوا منها بيوتاً ومساكن كما قال تعالى ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ سورة الشعراء وعليه إجماع أهل التفسير فيما اطلعنا ، وقد نقل في الدر المنثور عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله ﴿ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ ﴾ قال نقبوا الحجارة في الجبال فاتخذوها بيوتاً . قال : وهل تعرف ذلك العرب ؟ قال : نعم أما سمعت قول أمية :

وشق أبصارنا كيما نعيش بها * وجاب للسمع أصماخاً وآذانا. انتهى .

والعرب تقول : جاب فلان الفلاة يجوبها : إذا قطعها ودخلها .

قال بن عباس : خرقوها ونحتوها بيوتاً وهو قول مجاهد وقتادة . وعن قتادة نقبوها وعنه ثقبوها . وقال الضحاك : قدوا الحجارة . وقال مقاتل : كانوا يعمدون إلى أعظم جبل فيثقبونه فيجعلونه بيتاً . وقال الطبري : خرقوا الصخر ودخلوه فاتخذوه بيوتاً . وقال القرطبي : وجابُوا : قطعوا . ومنه : فلان يجوب البلاد ، أي يقطعها. انتهى . وقال بن كثير : يعني : يقطعون الصخر بالوادي . قال ابن عباس: ينحتونها ويخرقونها. وكذا قال مجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد . ومنه يقال : "مجتابي النمار". إذا خرقوها ، واجتاب الثوب : إذا فتحه . ومنه الجيب أيضاً. انتهى . وفي هذا النقل غنية عما سواه .

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ﴾ اختلف المفسرون في معنى الأوتاد على أربعة أقوال :

القول الأول / أنه الجنود الذين يقوون أمره وملكه كما يقوي الوتد الشيء . وقيل سميت الأجناد أوتادًا لكثرة المضارب التي كانوا يضربونها ويوتدونها في أسفارهم . وهو قول بن عباس وعطية واختاره السعدي وبن عثيمين .

القول الثاني / أنه الملك الشديد الثابت . والعرب تقول : هم في عز ثابت الأوتاد ، يريدون أنه دائم شديد . وقال الأسود ابن يعفر : ولقد غنوا فيها بأنعمِ عيشةٍ في ظل ملكٍ ثابت الأوتادِ

فيشبهون بيت الملك القوي الثابت بالبيت الذي هو ثابتٌ بالأوتاد. قال القاسمي : شبه فرعون في ثبات ملكه بذي بيتٍ ثابتٍ أقيم عموده وثبتت أوتاده . انتهى . واختاره الزمخشري

القول الثالث / أنه البناء المحكم . وهو قول بن عباس وسعيد بن جبير وعطاء وقتادة والضحاك ومحمد بن كعب . قال قتادة وعطاء : كان له أوتاد وأرسان ، وملاعب يلعب له عليها . وعن ابن عباس أنه كانت له مظالٌ يلعب تحتها وأوتاد كانت تضرب له . وعن الضحاك : كان كثير البنيان . قيل سميت الأبنية المشيدة المحكمة بالأوتاد لارتفاعِها كما سميت الجبال أوتاداً واختار هذا القول الطاهر بن عاشور ومحمد عبده ومحمد الأمين الشنقيطي وقالوا : هذا البناء هو الأهرام .

قال الشنقيطي : وَيُرَجِّحُ ذَلِكَ عِدَّةُ أُمُورٍ :

مِنْهَا : أَنَّهَا تُشْبِهُ الْأَوْتَادَ فِي مَنْظَرِهَا طَرَفُهُ إِلَى أَعْلَى إِذِ الْقِمَّةُ شِبْهُ الْوَتَدِ مُدَبَّبَةٌ بِالنِّسْبَةِ لَضَخَامَتِهَا فَهِيَ بِشَكْلٍ مُثَلَّثٍ ، قَاعِدَتُهُ إِلَى أَسْفَلَ وَطَرَفُهُ إِلَى أَعْلَى .

وَمِنْهَا : ذِكْرُهُ مَعَ ثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ، بِجَامِعِ مَظَاهِرِ الْقُوَّةِ ، فَأُولَئِكَ نَحَتُوا الصَّخْرَ بُيُوتًا فَارِهِينَ ، وَهَؤُلَاءِ قَطَعُوا الصَّخْرَ الْكَبِيرَ مِنْ مَوْطِنٍ لَا جِبَالَ حَوْلَهُ ، مِمَّا يَدُلُّ أَنَّهَا نُقِلَتْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ . وَالْحَالُ أَنَّهَا قِطَعٌ كِبَارٌ صَخِرَاتٌ عِظَامٌ فَفِي اقْتِطَاعِهَا وَفِي نَقْلِهَا إِلَى مَحَلِّ بِنَائِهَا وَفِي نَفْسِ الْبِنَاءِ كُلُّ ذَلِكَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى الْقُوَّةِ وَالْجَبَرُوتِ وَتَسْخِيرِ الْعِبَادِ فِي ذَلِكَ .

وَمِنْهَا : أَنَّ حَمْلَهَا عَلَى الْأَهْرَامِ الْقَائِمَةِ بِالذَّاتِ وَالْمُشَاهَدَةِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَلِكُلِّ جِيلٍ ، أَوْقَعَ فِي الْعِظَةِ وَالِاعْتِبَارِ ; بِأَنَّ مَنْ أَهْلَكَ تِلْكَ الْأُمَمَ ، قَادِرٌ عَلَى إِهْلَاكِ الْمُكَذِّبِينَ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ . انتهى من أضواء البيان .

القول الرابع / أنه كان يتد الناس بالأوتاد يعذبهم بها . وهو قول بن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن والسدي والكلبي ومقاتل بن سليمان وعبد الرحمن بن زيد . قال بن مسعود : وتد فرعون لأمرأته أربعة أوتاد ثم جعل على ظهرها رحى عظيمة حتى ماتت . وعن سعيد بن جبير : كان يجعل رجلاً هنا ورجلاً هنا ويداً هنا ويداً هنا بالأوتاد . وعن السدي قال : كان فرعون إذا أراد أن يقتل أحداً ربطه بأربعة أوتاد على صخرة ثم أرسل عليه صخرة من فوقه فشدخه وهو ينظر إليها قد ربط بكل يدٍ منها قائمة . وقال عبد الرحمن بن زيد : كانت له صخرة ترفع بالبكرات ، ثم يؤخذ الإنسان فتوتد له أوتاد الحديد ثم يرسل تلك الصخرة عليه فتشدخه . وقال مقاتل بن سليمان : كان يأخذ الرجل فيمده بين أربعة أوتاد ووجهه إلى السماء . وكان يوثق كل

رجلٍ إلى ساريةٍ مستلقياً بين السماء والأرض ، فيتركه حتى يموت . وقيل كان يوتدهم في الأرض بالأوتاد ويرسل عليهم العقارب والحيات تلدغهم حتى يموتوا .

قلت : حمل الآية على كل ما تحتمله من المعاني أولى من اطراح البعض كما هو معلوم في قواعد التفسير ، وهذه الأقوال الأربعة لا تضاد بينها ، فيمكن أن يكون المعنى يشمل المذكورة كلها والعلم عند الله تعالى .

استدراك في تفسير ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾ قد يقال : إذا كان المراد بالأوتاد الأبنية التي بناها الفراعنة وأنهم وصفوا بقوة البناء وعظمته ، وكذلك حال ثمود من نقب الجبال ونحت البيوت منها وهي أبنية ، فينبغي أن يذكر ما شيده عاد من البناء لتكون الأمم الثلاث وصفت بقوة البناء وعظمته وشدته ، وعليه فينبغي أن يكون المراد بإرم أي المدينة العظيمة التي شيدتها عاد .

قلنا : ينافي هذا المعنى عدم بقاء بناء عاد كما بقي بناء الفراعنة وثمود ، فإن أبنيتهما باقية فتذكر للعظة والعبرة لوجودهما وليس لعادٍ أبنية موجودة في الأزمنة المتأخرة حتى يوعظ الناس بها ، وإنما يوعظون بما تواتر عندهم ونقلته الكتب المقدسة من عظم خلق الإنسان من قوم عاد والعلم عند الله تعالى .

﴿ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ ﴾ الذين يعود للأمم الثلاث ﴿ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ تكبروا وعتوا من الطغيان وهو مجاوزة الحد .

﴿ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ ﴾ بسبب طغيانهم وعتوهم وجبروتهم أفسدوا في الأرض حتى قال قائلٌ منهم ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ من (١٥) سورة فصلت قال السدي : أفسدوا فيها بالمعاصي . وقال القرطبي : بالجور والأذى .

﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ ﴾ أي أفرغ عليهم ربك يا محمد سوط عذاب أي عذاباً شديداً . قال مقاتل : يعني نقمته وقال قتادة : كل شيءٍ عذب الله تعالى به فهو سوط عذاب . قال القرطبي : أي نصيب عذاب . ويقال : شدته ، لأن السوط كان عندهم نهاية ما يعذب به .

قال الشاعر : ألم تر أن الله أظهر دينه ... وصب على الكفار سوط عذاب

وقال الفراء : وهي كلمة تقولها العرب لكل نوعٍ من أنواع العذاب . وأصل ذلك أن السوط هو عذابهم الذي يعذبون به فجرى لكل عذابٍ إذ كان فيه عندهم غاية العذاب . وقيل : معناه عذابٌ يخالط اللحم والدم ، من قولهم : ساطه يسوطه سوطاً أي خلطه . انتهى .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾ يسمع ويرى ما يصنع العباد وسيجازي كلاً بما صنع .

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾ وصف الله الجنس البشري والمراد العموم الأغلب وليس العموم الكلي أي أن أغلب الناس يقولون ذلك ، وقيل أراد بالإنسان الإنسان الكافر . وقيل أراد عتبة بن ربيعة وأبا حذيفة بن المغيرة . وقيل : أمية بن خلف . وقيل : أبي بن خلف . ثم وصف هذا الإنسان

بأنه إذا ابتلي بالنعماء أي اختبر وامتحن بها ظن أن ذلك بسبب كرامته على الله وأنه مستحقٌ لتلك الكرامة ومن ذلك قصة صاحب الجنتين قال تعالى ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ يرى أنه ما أعطي في الدنيا إلا لأنه مستحقٌ للكرامة مع كفره بإنكاره أو شكه في البعث . وقال تعالى ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ سورة فصلت وإذا ابتلي بالفقر ظن أن ذلك من إهانة الله له ، قال الله ﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ ﴾ أي ليس الأمر كما تعتقدون فقد يبتلي الله بالنعماء من المال والصحة والعافية والقوة من لا يحب ، وقد يبتلي بالبأساء من الفقر والمرض والضر من يحب ، وفي الحديث (أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل) وقال (إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط) والمراد البلاء بالضر فالنعماء لا أحد يتسخط منها . وقال الفراء : كَلا في هذا الموضع بمعنى لم يكن ينبغي للعبد أن يكون هكذا ، ولكن يحمد الله عز وجل على الغنى والفقر . وقال قتادة : كلا إني لا أكرم من أكرمت بكثرة الدنيا ، ولا أهين من أهنت بقلتها ، ولكن إنما أكرم من أكرمت بطاعتي ، وأُهينُ من أهنت بمعصيتي . وهو الذي رجحه الطبري ، لأن سياق الآيات التي بعدها من قوله ﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ ﴾ إلى قوله ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ تدل على ذلك : أي أني أهين من عصاني فأهان من أمرتُ بإكرامه كاليتيم والمسكين وَجَمَعَ المال من غير نظرٍ في حله وحرمته ، وأُكْرِمُ من أطاعني فأكرم اليتيم والمسكين وامتنع من أكل المال الحرام .

وعامة القراء يقرؤون ﴿ فَقَدَرَ ﴾ بالتخفيف وقرأ بن عامر وأبو جعفر القارئ بالتشديد (فقدَّر) وأنكر أبو عمرو بن العلاء هذه القراءة وقال هي بمعنى أن يعطيه ما يكفيه ، ولو فعل به ذلك ما قال ربي أهانني .

قال البغوي : قرأ أهل الحجاز والبصرة "أكرمني وأهانني" بإثبات الياء في الوصل ، ويقف ابن كثير ويعقوب بالياء أيضاً والآخرون يحذفونها وصلاً ووقفًا. انتهى.

ثم وصف الله حال هؤلاء الصنف من الناس فقال ﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ ﴾ الذي فقد أباه ، فلا تحسنون إليه . وقيل : لا تعطونه حقه . وهو أعظم . قال القرطبي : ترك إكرام اليتيم بدفعه عن حقه ، وأكل ماله . انتهى .

﴿ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ ﴾ قرأ عامة قرّاء الكوفة وبعض قراء المدينة (وَلا تَحَاضُّونَ) بالتاء وإثبات الألف بمعنى : ولا يحضّ بعضكم بعضاً على إطعام المسكين . وقرأ بعض قرّاء مكة وعامة قرّاء المدينة (وَلا تَحُضُّون) بالتاء وحذف الألف بمعنى : ولا تأمرون – يعني غيركم – بإطعام المسكين . وقرأ عامة قرّاء البصرة (يَحُضُّون) بالياء وحذف الألف وكذلك (يكرمون ، يأكلون ، يحبون) كلها بالياء عندهم . ذكر هذا الطبري في تفسيره .

وهذا يدل على أن هؤلاء القوم مطامعهم دنيويةً بحتة ، فما كان لا مصلحة لهم فيه لا يهتمون به ، ومن ذلك اليتيم والمسكين فلا مصلحة لهم في إكرامهما إذ لا مال ولا جاه يبتغونه من وراءهما ، وأما الأخلاق الفاضلة فهم بعيدين كل البعد عنها وهذا إذا قلنا أن المعنى عدم الإحسان إليهما ، وأما إن كان بأكل حقوقهما فالأمر أشد .

﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ ﴾ التراث الميراث ، وقيل المراد ميراث اليتامى خاصة ، وقيل ميراث الضعفة من اليتامى والنساء ونحوهما ، وكان المشركون لا يورثون اليتامى والنساء ويأكلون ميراثهم . قال القرطبي : أصل اللم في كلام العرب : الجمع ، يقال : لممت الشيء ألمه لما : إذا جمعته ، ومنه يقال : لم الله شعثه ، أي جمع ما تفرق من أموره ... وقال الليث : اللم الجمع الشديد ومنه حجر ملموم وكتيبة ملمومة ... وقال ابن زيد : هو أنه إذا أكل ماله ألم بمال غيره فأكله ولا يفكر: أكل من خبيثٍ أو طيب . قال : وكان أهل الشرك لا يورثون النساء ولا الصبيان بل يأكلون ميراثهم مع ميراثهم وتراثهم مع تراثهم . وقيل: يأكلون ما جمعه الميت من الظلم وهو عالم بذلك ، فيلم في الأكل بين حرامه وحلاله . انتهى من تفسيره . ويمكن أن تكون الآية عامة في ميراث كل ميت ، وهي للتعجب من انكباب الناس على جمع مال الميت وحرصهم عليه بدل أن يكون الميت موعظة لهم في التقلل من الدنيا والإقبال على أمر الآخرة .

﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ أي كثيراً . ومنه قولهم : بئر جمَّة وجَمُوم إذا كانت كثيرة الماء ، وجمت الركية إذا اجتمع مائها وكثر ، واستجم البئر أي تركها حتى يجم مائها أي يكثر . ومَجَمُّ البِئرِ حَيْثُ يُبْلُغُ الماءُ وينتهي إليه .

وهذا يدل على انكبابهم على الدنيا وحرصهم على تحصيلها بأي وجهٍ كان ، دون رادعٍ من الدين أو الأخلاق ، ولذلك قال الله تعالى ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ ﴾ أي لا ينبغي لكم أن تنكبوا على الدنيا هذا الانكباب المؤدي إلى فعل المحرمات وارتكاب الموبقات من أكل أموال اليتامى والمساكين وجمع المال من غير حله ، فإن الدنيا زائلة والحساب قريب ، فيوشك أن تقوم الساعة وحينئذٍ تدك الأرض دكاً دكاً . والدك : الدق والتكسير والهدم والتفتيت والتسوية . قال في المعجم الوسيط: دكه دكاً دقه ودفعه والبناء ونحوه هدمه حتى سواه بالأرض ، والأرض سوى صعودها وهبوطها . انتهى . وقال في مختار الصحاح : الدّكُّ الدق وقد دَكَّهُ إذا ضربه وكسره حتى سواه بالأرض . انتهى . وقال الفيروز أبادي : الدَّكُّ : الدَّقُّ والهَدْمُ وما اسْتَوَى من الرَّمْلِ كالدَّكَّةِ ج : دِكاكٌ . والمسْتَوي من المكانِ ج : دُكوكٌ . وتَسْوِيَةُ صَعودِ الأَرْضِ وهَبوطِها ، وقد انْدَكَّ المكانُ وَكَبْسُ التُّرابِ وتَسوِيَتُه ، ودَفْنُ البِئْرِ وطَمُّها . انتهى . وقال في المحكم : وأرض مدكوكة : إذا كثر بها الناس ورعاة المال حتى يفسدها ذلك ... ودكته الحمى دكاً : أضعفته . انتهى . وروي عن بن عباسٍ في تفسير الآية قال : تحريكها . وقال الزجاج : أي زلزلت فدك بعضها بعضاً . قال القرطبي ﴿ دَكًّا دَكًّا ﴾ أي مرةً بعد مرة ، زلزلت فكسر بعضها بعضاً فتكسر كل شيءٍ على ظهرها. وقيل: دكت جبالها وأنشازها حتى استوت. وقيل: دكت أي استوت في الانفراش فذهب دورها وقصورها وجبالها وسائر أبنيتها. ومنه سمي الدكان لاستوائه في الانفراش. والدك : حط المرتفع من الأرض بالبسط وهو معنى قول ابن مسعود وابن عباس : تمد الأرض مد الأديم . انتهى . وقال القاسمي : أي دكاً بعد دكٍ حتى عادت هباءً منثوراً . قال الشهاب : ليس الثاني تأكيداً ، بل التكرير للدلالة على الاستيعاب ، كقرأت النحو باباً باباً ، وجاء القوم رجلاً رجلاً . و الدك قريب من الدق ، لفظاً ومعنى . انتهى .

﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾ منهج السلف إمرار آيات الصفات كهذه الآية ونحوها كما جاءت فيثبتونها من غير تكييفٍ ولا تمثيل وأن الرب جل وعلا يجيء يوم القيامة لفصل القضاء مجيئاً يليق بجلاله وعظمته لا نكيفه ولا نمثله ولا نعطله كما يفعل المبتدعة ﴿ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ ﴾ الملك اسم جنس وكذلك صفاً أي وجاء الملائكة صفوفاً صفوفاً أو صفاً بعد صف . قال الطبري: وإذا جاء ربك يا محمد وأملاكه صفوفاً صفاً بعد صفّ . انتهى . وقال مقاتل : ذلك أنه تنشق السماوات والأرض فتنزل ملائكة كل سماء ، وتقوم ملائكة كل سماءٍ على حدة ، فيجئ الله تبارك وتعالى كما قال ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ وكما قال ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ قياماً صفوفاً . انتهى . والقول بأن أهل كل سماءٍ صفاً على حده هو قول عطاء والضحاك كما نقله البغوي .

﴿ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ﴾ عن شقيق بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يؤتى بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألف زمام مع كل زمامٍ سبعون ألف ملكٍ يجرونها) رواه مسلم ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ ﴾ وحين يراها الإنسان الكافر يتذكر ما قاله له الأنبياء والصالحون ، وما أمروه به من التوحيد وترك الشرك والقيام بحق الله تعالى وبأوامره ، والحذر من معصيته ، ويتذكر ما حذروه به من النار وجحيمها ، وما رغبوه فيه من الجنة ونعيمها ، ولكن لا ينفعه التذكر في ذلك الوقت فقد ذهب زمان العمل وجاء زمن الحساب . وحينئذٍ يشتد ندمه و﴿ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ ﴾ علم أنها الحياة الحقيقة وأن الدنيا كانت كظلٍ زائلٍ وسراب .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ الضمير يعود إلى الله جل وعلا : أي لا يعذب أحد مثل عذاب الله يعني لا يستطيع أحدٌ أن يعذب مثل عذاب الله مثل شدته ودوامه ، ولا يوثق أحدٌ مثل وثاق الله يعني مثل إحكامه وقوته . وقرأ الكسائي بفتح الذال والثاء (لا يعذَبُ) (ولا يوثَقُ) بعود الضمير إلى الإنسان الكافر : أي أنه لا أحد يُعَذَبُ مثل عذاب الكافر ولا أحد يوثَقُ مثل وثاقه من شدة ما يقع عليه من التعذيب والوثاق . قال الطبري : أجمعت القرّاء قرّاء الأمصار في قراءة ذلك على كسر الذال من يعذّب والثاء من يوثق خلا الكسائي فإنه قرأ ذلك بفتح الذال والثاء اعتلالا منه بخبر – رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قرأه كذلك – واهي الإسناد. حَدَّثَنَا بِهِ ابْنُ حُمَيْدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا مِهْرَانُ عَنْ خَارِجَةَ عَنْ خَالِدٍ الْحَذَّاءِ عَنْ أَبِي قِلاَبَةَ قَالَ : حَدَّثَنِي مَنْ أَقْرَأَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُعَذَّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ). والصواب من القول في ذلك عندنا ما عليه قرّاء الأمصار ، وذلك كسر الذال والثاء لإجماع الحجة من القرّاء عليه. انتهى

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ﴾ قال بن عباس : النفس المؤمنة . وعنه : المصدقة . وقال قتادة : هذا المؤمن اطمأن إلى ما وعد الله . وقال مقاتل : المطمئنة بالإيمان . وعن قتادة والحسن : المطمئنة إلى ما قال الله ، والمصدقة بما قال الله . وعن مجاهد : المنيبة المخبتة التي أيقنت بأن الله ربها .

﴿ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ ﴾ قال البغوي : أي إلى صاحبك وجسدك ، فيأمر الله الأرواح أن ترجع إلى الأجساد ، وهذا قول عكرمة وعطاء والضحاك ورواية العوفي عن ابن عباس . وقال الحسن : معناه : ارجعي إلى ثواب ربك وكرامته راضيةً عن الله بما أعد لك ، مرضيةً رضي عنك ربك . انتهى . وقال أبو صالح : ارجعي إلى الله . ذكره القرطبي . واختاره السعدي

﴿ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ ﴾ أي كوني مع الصالحين من عبادي كقول سليمان عليه السلام ﴿ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ من (١٩) سورة النمل وقال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ ﴾ من (٩) سورة العنكبوت

﴿ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ﴾ وكوني في الجنة التي أعددتها لعبادي .

قال السعدي ﴿ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ﴾ هذا تخاطب به الروح يوم القيامة ، وتخاطب به حال الموت . انتهى . وعن أبي صالح في قوله تعالى ﴿ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾ ﴾ قال هذا عند الموت ﴿ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ﴾ قال هذا يوم القيامة .

من دروس سورة الفجر :

أولاً / قد يكون المقسم به في بداية السورة العبادات من صلاة الفجر وصلاة الليل شفعاً ووتراً والعبادة في عشر ذي الحجة والمقسم به معظمٌ عند الله تعالى ، ولا شك أن الخلق إنما خلقوا للعبادة كما قال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ سورة الذاريات لكن العبادات تتفاوت فليست الفرائض كالنوافل وليست العبادات القلبية كعبادة الجوارح وليست صلاة الفجر كبقية الصلوات وليست نافلة الليل كنافلة النهار وليست العبادة في عشر ذي الحجة كالعبادة في سائر أيام السنة ما خلا ليلة القدر أو العشر الأواخر من رمضان ، فالمقصود أن العبد يتحين الأوقات الفاضلة للعبادات فيكثر من العبادة فيها أو يتفرغ بالكلية ان استطاع فإن العمر قليل وهو مخلوق للعبادة فلا تلهينه الدنيا عما خلق لأجله .

ثانياً / أن ما حصل للأمم المكذبة من العذاب على كفرهم وتكذيبهم مع قوتهم في بنيتهم وبناءهم وأعدادهم وما كان عندهم من الحضارة والتقدم والازدهار في شتى مجالات الحياة ، لكنها لم تنفعهم ولم تغني عنهم شيئاً لما كفروا بالله وحل بهم سخط الله وعذابه ، فكانوا عظة وعبرة لمن بعدهم .

ثالثاً / أن أكثر الناس ينظر إلى حاله في الدنيا فيظن أن حاله في الآخرة كذلك ، فإن كان من أهل النعماء ظن أنه سينعم في الآخرة وأن هذا هو مقامه عند الله ، وإن كان من أهل الفقر أو البأساء ظن أن ذلك حاله في الآخرة وأن مقامه عند الله الهوان ،

ولكن الأمر ليس كذلك فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الآخرة إلا من يحب ، وكم من منعمٍ هو كافرٌ بالله مئاله إلى جهنم ، بل هو حال أكثر الكفار فإن من عدل الله تعالى أن يجعل ما يعملون من عملٍ صالح من بر والدٍ وإكرام فقيرٍ ويتيمٍ وأرملة وصدقٍ وأمانةٍ ونحو ذلك ثوابه معجلٌ في الدنيا سعادة ونعيم إذ ليس لهم في الآخرة إلا النار بينما يدخر للمؤمن ثوابه في الآخرة فلربما مات فقيراً معدوماً على كثرة أعماله الصالحة ذلك لأن الله أراد أن يوفيه جزاءه كاملاً يوم القيامة ، ومن المؤمنين من يجعل الله لهم من ثوابهم في الدنيا والبقية أو الأكثر منه في الآخرة .

سورة البلد مكية وآياتها (٢٠)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾ ﴾

تفسير سورة البلد

يقول تعالى ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ أي أقسم بهذا البلد فاللام هنا ليست للنفي بل للتنبيه والتأكيد ، والمراد بالبلد مكة التي نزلت فيها هذه السورة ، وقد أقسم الله بمكة في سورة التين فقال ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ ﴾ فدل على أن المراد القسم بها لا نفيه ، والقسم يدل على التأكيد والتعظيم للمقسم به ، وهو يدل على عظمة هذا البلد عند الله تعالى وهي كذلك فعن بن عباسٍ رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم نظر إلى مكة فقال (إنك لأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما خرجت) رواه البزار وعند الترمذي (ما أطيبك من بلد وأحبك إلي ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك) فهي أحب البقاع إلى الله عز وجل وأحب البقاع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كيف لا وفيها الكعبة المشرفة قبلة المسلمين ومهوى أفئدة المؤمنين ، وفيها بُعِثَ خاتم النبيين ، وإليها يحج الصالحون من الأنبياء واتباعهم إلى يوم القيامة ، والصلاة في الحرم بمائة ألف صلاةٍ فيما سواه ، فهنيئاً لساكني مكة ما تفضل الله به عليهم من مجاورة بيته المحرم .

﴿ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ يقول تعالى ومما زاد هذا البلد شرفاً على شرفه أنه محل إقامتك وأنت ذو مكانةٍ عندنا ، فاجتمعت مكانة البيت المعظم ومكانة النبي المعظم صلى الله عليه وسلم حين بُعِثَ في مكة وأقام بها قبل الهجرة ، وهذا أحد المعاني الذي ذكره المفسرون ، ويؤيده أن السورة مكية بإجماع العلماء ، والمعنى الآخر الذي ذكروه أن الله تعالى أحل لنبيه صلى الله عليه وسلم القتال في الحرم دون بقية الناس ويؤيد هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم (إن مكة حرَّمها الله ولم يحرمها الناس فلا يحل لأمرئٍ

يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ، ولا يعضد بها شجرة ، فإن أحدٌ ترخص بقتال رسول الله فيها فقولوا : إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم ، وإنما أذن لي فيها ساعةً من نهار ، ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس وليبلغ الشاهد الغائب) متفق عليه ومعنىً ثالث ذكروه وهو : وأنت يا محمد على أنك في البيت الحرام الذي يحرم فيه القتل ويأمن فيه الناس والحيوان والطير وكل شيء ، إلا أن قومك يستحلون قتلك وإخراجك من هذا البلد . وهذا المعنى بعيد لأن السورة مكية نزلت قبل إخراجه وإرادتهم قتله والعلم عند الله .

﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ يقسم تعالى بآدم وذريته ، فإنه لمَّا أقسم بمكة وهي أم القرى ، والقرى تكون للسكنى ، ناسب أن يقسم بالساكنين لهذه القرى وهم آدم وذريته ، وقيل المراد الصالحين من ذرية آدم دون الكفار فليسوا أهلاً للقسم ، فهو من العام الذي أريد به الخصوص كقوله تعالى ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ أي ممن يحل لكم نكاحهن دون ما يحرم .

وقيل الآية تشمل كل والدٍ وولده من المخلوقات . وهو الذي رجحه بن جرير إذ لا دليل على التخصيص .

وقيل ﴿ وَوَالِدٍ ﴾ الوالد الذي يكون له الولد ﴿ وَمَا وَلَدَ ﴾ العقيم الذي لا يولد له ، فتكون ما نافية . والذي يظهر لي أن ما موصولة بمعني الذي أي والدٍ والذي ولد أي ولده الوالد لأن العقم صفة نقصٍ لا تصلح للقسم .

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ جواب القسم مؤكد بثلاث مؤكدات : القسم ، واللام ، وقد ، والمعنى لقد خلقنا الجنس الإنساني وإنه في حياته لفي شدةٍ ومشقةٍ وعناءٍ ونصب . قال بن عباس : في نصب . وقال قتادة : في مشقة . وقال سعيد بن جبير : في شدةٍ وطلب معيشة . وقال الحسن : يكابد مضايق الدنيا وشدائد الآخرة ، لم يخلق الله خلقاً يكابد ما يكابد ابن آدم . وقال مجاهد : يتكبد في الخلق نطفةً ثم علقةً ثم مضغةً كقوله تعالى ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ وأرضعته كرهاً ومعيشته كره فهو يكابد ذلك .

وقال بن مسعود وبن عباس وعكرمة ومجاهد والضحاك وإبراهيم النخعي وخيثمة ﴿ فِى كَبَدٍ ﴾ أي منتصباً . أي ذو قامةٍ سوية مستقيمة . قال الضحاك : خلق منتصبا على رجلين لم تخلق دابة على خلقه . وقال السعدي : ويحتمل أن المعنى لقد خلقنا الإنسان في أحسنِ تقويمٍ وأقوم خلقه ، مقدرٌ على التصرفِ والأعمال الشديدة . انتهى . وقال العثيمين ﴿ فِى كَبَدٍ ﴾ فيها معنيان : الأول في استقامة يعني أنه خلق على أكمل وجهٍ في الخلقة ...والثاني مكابدة الأشياء ومعاناتها . ثم قال : فإن قال قائل : أفلا يمكن أن تكون الآية شاملة للمعنيين ؟ فالجواب : بلى ... لأن القاعدة في التفسير أن الآية إذا كانت تحتمل معنيين ولا تناقض بينهما فإنها تحمل على المعنيين جميعاً . انتهى بتصرفٍ يسير .

وقال بن زيد : خلق آدم في السماء فسمي ذلك الكبد ذكره بن كثير ولعله يريد أنه خلق في كبد السماء ولكن هذا المعنى بعيد والعلم عند الله تعالى .

﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ يحسب هذا الإنسان في حال شبابه وقوته أنه لن يستطيع عليه أحد ونسي أن ربه الذي خلقه على هذه الخلقة أقوى منه وأقدر عليه . وقيل إنها نزلت في أبي الأشدين واسمه أسيدة بن كلدة الجمحي وكان شديداً قوياً يضع الأديم العكاظي تحت قدميه فيقول : من أزالني عنه فله كذا وكذا فلا يُطاق أن ينزع من تحتِ قدميه إلا قِطَعاً ويبقى موضع قدميه . ذكره البغوي في تفسيره . وقيل نزلت في الوليد بن المغيرة ، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴾ أي كثيراً ، يمدح نفسه بالإسراف في النفقة على شهواته وما علم المسكين أن الله الذي رزقه هذا المال قادر على سلبه منه ، وهذا نراه كثيراً في هذا الزمان ممن يمدحون أنفسهم بالسفر إلى البلدان التي يكثر فيها الزنا وشرب الخمور وما أنفقوا من الأموال في تلك الرحلات على الشهوات والمحرمات ، فيا خيبة المجاهرين كيف جمعوا بين العصيان وبين دعوة الناس إليه فحملوا أوزاراً على أوزارهم . وقيل هو الوليد بن المغيرة أو غيره كان يمدح نفسه بكثرة الإنفاق في عداوة النبي صلى الله عليه وسلم .

ولقد صدق في قوله ﴿ أَهْلَكْتُ مَالًا ﴾ لأنه أنفقه فيما يعود عليه بالضرر أو على الأقل لا نفع فيه ، ولو أنفقه في سبيل الله لكان مدخراً له لا مهلكاً ، وكذا لو أنفقه على حاجاته الضرورية لم يكن مهلكاً له لكن منتفعاً به .

﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾ أيحسب أن الله لم يره فيعاقبه على فعله ، اغتر بحلم الله وامهاله له ، وظن أنه غير مسئولٍ عن هذا المال ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس : عن عمره فيم أفناه ؟ وعن شبابه فيم أبلاه ؟ وعن ماله من أين اكتسبه ؟ وفيم أنفقه ؟ وماذا عمل فيما علم ؟) رواه الترمذي وحسنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٧٢٩٩)

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ ﴾ لما تباهى الإنسان بقدرته ونسي ربه ، أراد الله جل وعلا أن يعدد له شيئاً من نعمه عليه ليذكر فضل ربه عليه فيتوب ويعود إلى ربه جل وعلا ، ولا يتكبر وإنما ينسب النعماء إلى الله ، ويذكر ربه ويشكره فقد أمده بعينين يبصر بهما ، ولساناً ينطق به ، وشفتين يستر بهما ثغره ، وينضبط نطقه ، ويزين منظره .

﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ قال الشوكاني : أصل النجد المكان المرتفع ، وجمعه نجود ، ومنه سميت نجد لارتفاعها عن انخفاض تهامة فالنجدان الطريقان العاليان . انتهى . وقال الطبري ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ وهديناه الطريقين ، ونجد طريقٌ في ارتفاع . واختلف أهل التأويل في معنى ذلك فقال بعضهم عُنِيَ بذلك نجد الخير ونجد الشر كقوله تعالى ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ سورة الإنسان ... وقال آخرون بل معنى ذلك وهديناه الثديين سبيلي اللبن الذي يتغذى به وينبت عليه لحمه وجسمه . انتهى . وقال في لسان العرب ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ أي طريق الخير وطريق الشر ، وقيل النجدين الطريقين الواضحين ، والنجد المرتفع من الأرض ، فالمعنى ألم نعرفه طريق الخير والشر بينين كبيان الطريقين العاليين ؟ وقيل النجدين الثديين . انتهى . وسمي ثديي الأم بذلك لارتفاعهما فوق صدر الأم ، أو لأنهما طريقان للبن الذي يتغذى منه الطفل ، وهذا من نعم الله على العبد أن هيأ له ما يتغذى به ، ففي بطن أمه يتغذى عن طريق السرة من غذاء الأم مباشرة ، ثم إذا خرج من بطن أمه وجد الله قد هيأ له

اللبن الطازج في صدر أمه ، ويدله عليه دون تعليمٍ من أحد فتجد الطفل يلتقم الثدي مباشرةً ثم يمصه من دون أن يخبره أحد أن هذه هي الطريقة المثلى في الرضاعة حتى يكبر ثم يستطيع تناول الغذاء فسبحان الله ما أكرمه وما أكثر جوده وإحسانه على عباده .

﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴾ العقبة هي الطريق في الجبل الوعر سميت بذلك لصعوبة سلوكها ، واقتحامها ركوبها وتجاوزها ، وهو مثلٌ ضربه الله لمجاهدة النفس والهوى والشيطان في أعمال البر ، فجعله كالذي يتكلف صعود العقبة . قال السعدي : أي لم يقتحمها ويعبر عليها لأنه متبعٌ لشهواته . انتهى . وقال الطبري : فلم يركب العقبة فيقطعها ويجوزها وَذُكِرَ أن العقبة جبلٌ في جهنم . قال بن عمر : جبل في جهنم . وقال قتادة للنار عقبة دون الجسر . وقال إنها قحمة شديدة فاقتحموها بطاعة الله وقال الحسن العقبة جهنم . وقال بن زيد : أفلا سلك الطريق التي منها النجاة والخير . انتهى بتصرفٍ يسير . وقول بن زيد يختلف عن قول من تقدمه فليس بنفي وإنما دعوة لاقتحام العقبة وهو الذي رجحه العثيمين فإنه قال في معنى الآية : أي هلا اقتحم العقبة . ويرجح هذا المعنى أيضاً أن الله تعالى قد بيَّن السبل التي يكون بها اقتحام العقبة فقال ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴾ إلى آخر الآيات .

وقوله ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴾ الاستفهام للتفخيم والتعظيم .

﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ أي يكون اقتحام العقبة بفك رقبةٍ من الرق والعبودية والأسر .

﴿ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴾ أو يكون بإطعام الطعام في يومٍ فيه مجاعة فيطعم من لا يجد الطعام .

﴿ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ أي فك رقبة أو أطعم في المسغبة ﴿ يَتِيمًا ﴾ أي صغيراً لا أب له ، وقيل اليتيم من لا أب له ولا أم ، ومنه قول قيس بن الملوح : إلى الله أشكو فقد ليلى كما شكا إلى الله فقد الوالدين يتيم

﴿ ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ من قرابته .

﴿ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ شديد الفقر لا مأوى له إلا التراب .

﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ ولابد أن يكون مع عمله الخير مؤمناً بالله واليوم الآخر فإن الكافر لا ينفعه عمل .

﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾ ولابد للمؤمنين أن يتواصوا فيما بينهم بالصبر على طاعة الله وعن محارمه وعلى أقداره . وأن يتواصوا بالمرحمة فيما بينهم ويرحموا الناس والمخلوقات .

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾ فإذا فعلوا ذلك أُخِذَ بهم ذات اليمين إلى حيث الجنات .

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ١٩ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ٢٠ ﴾ وإن كفروا ببراهيننا وأدلتنا وحججنا أُخِذَ بهم ذات الشمال إلى حيث النار التي تطبق وتغلق عليهم فلا يجدون لهم منها فكاكاً ولا عنها مهرباً . وقيل المراد بالمشئمة الشؤم ولا شؤم أعظم من شؤم أهل النار .

من دروس سورة البلد :

أولاً / فضل مكة وعظيم منزلتها عند الله ويكفيها شرفاً أن فيها بيت الله الحرام وفيها بعث خاتم النبيين وسيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم وهي أحب البقاع إلى الله عز وجل قال صلى الله عليه وسلم (إنك لأحب أرض الله إلى الله) وهي أحب البقاع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد قال (ما أطيبك من بلد وأحبك إلي ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك) فهنيئاً لساكني مكة ما تفضل الله به عليهم من مجاورة بيته المحرم .

ثانياً / أن الإنسان مخلوق يكابد هموم الحياة ومشاكلها وابتلاءاتها فالدنيا له دار مشقةٍ وابتلاء ومع ذلك نرى أكثر الناس مفتونين فيها فكيف لو كانت كلها نعيم بلا ابتلاء لقل السالمون من فتنتها ولذلك يقول تعالى في سورة الزخرف ﴿ وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ٣٣ وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبٗا وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ ٣٤ وَزُخۡرُفٗاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ ٣٥ ﴾ لكن الله بحكمته جعل فيها ابتلاءات ومصائب وأكدار لئلا يفتتن فيها المؤمنون .

ثالثاً / أن على من أراد نجاة نفسه واقتحام العقبة أن يؤمن بالله تعالى ثم يبادر بالأعمال الصالحة من فك الرقاب وإطعام الجوعى من الأيتام والفقراء من الأقارب وغيرهم ، وأن يوصي نفسه وإخوانه بالصبر على الطاعة وعن المعصية وعلى الأقدار وأن يوصي نفسه وإخوانه بالرحمة للضعفة من الأقارب وغيرهم وإنما يرحم الله الراحمون .

سورة الشمس مكية وآياتها (١٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾ ﴾

تفسير سورة الشمس

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ أقسم تعالى بالشمس وضحاها قال مجاهد : ضوئها . وقال قتادة : النهار كله . وقال بن سعدي : نورها ونفعها الصادر منها . انتهى. يريد الضوء والدفء والحرارة كما قال تعالى لآدم حين أدخله الجنة ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾ سورة طه أي لا تصيبك حرارة الشمس . والحرارة وإن كانت مزعجةً للناس إلا أن فيها فوائد كثيرة منها القضاء على بعض أنواع الجراثيم والبكتيريا الضارة ، وإنجاح بعض المحصولات الزراعية كالتمر ، وتعتبر أشعة الشمس ضرورية لتكوين فيتامين دال في الجسم والذي بدوره يفيد الجسم في أمور كثيرة منها : حماية العظام والأسنان وتقويتها ومنها تقوية مناعة الجسم ، ومنها الوقاية من أمراض القلب ، ومن الاكتئاب ، ويكافح أنواعاً من السرطانات كسرطان الثدي والمبيض والقولون والبروستات وغير ذلك ، وهذه الفوائد يمكن أن يتحصل عليها الإنسان إذا خرج في الشمس في أول النهار وقت الضحى قبل اشتداد الحرارة وقت الظهيرة لأنها حينئذٍ قد تكون ضارةً على الإنسان فقد تتسبب في شحوب الجلد وتلونه أو حرقه أو تحدث تجاعيد فيه وربما سببت سرطان الجلد ، وقد تضر العين لأن زيادة الأشعة فوق البنفسجية قد يدمر الشبكية أو العدسة أو القرنية ولذلك ينصح الأطباء من خرج في ذلك الوقت أن يلبس النظارة الشمسية والقبعة أو المظلة الشمسية وأن يكثر من شرب السوائل حتى لا يصاب بما يسمى بضربة الشمس وهي ارتفاعٌ قويٌ ومفاجئ في درجة حرارة الجسم يصحبه صداع ودوخة وربما غشية ويؤثر سلباً

على وظائف الجسم كالكلى ونحوها إذا لم يتم علاجه بصورة عاجلة وذلك بتبريد المصاب برشه بالماء البارد ووضعه في الظل وترويحه بالمروحة ونحو ذلك حتى تنخفض درجة حرارته .

﴿ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴾ أي جاء بعدها في النصف الأول من الشهر ، وأول ذلك صبيحة الهلال إذا غربت الشمس رؤي القمر فعلم الناس أن الشهر القمري قد دخل ، وقد أُمر الناس أن يصوموا رمضان لرؤية الهلال ويفطروا العيد لرؤيته قال صلى الله عليه وسلم (صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته) متفق عليه

قال مجاهد ﴿ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴾ تبعها . وقال قتادة : ليلة الهلال إذا سقطت الشمس رؤي الهلال . وقال بن زيد : هو يتلوها في النصف الأول من الشهر ثم هي تتلوه وهو يتقدمها في النصف الأخير من الشهر . وقال العوفي عن بن عباس قال : يتلو النهار . وقال الفراء : أي أخذ من ضوئها . كما يقال فلان يتبع فلان في كذا أي يأخذ منه ، ومعلومٌ أن القمر لا يضيء وإنما يعكس ضوء الشمس كما يقوله أهل الفلك وهو مشتهرٌ لدى الناس .

﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴾ أي كشفها وأظهرها ، وقد اختُلِفَ في عود الضمير في ﴿ جَلَّىٰهَا ﴾ فقيل على الظلمة ، والمعنى النهار جلى الظلمة ، ولم تذكر الظلمة لأن المعنى معروف ومن عادة العرب الذين نزل القرآن بلغتهم أنهم لا يذكرون الشيء إذا كان معناه ظاهراً فيقولون (أصبحت باردةً ، وهبت شمالاً) أي الريح ، ومنه قوله تعالى ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا ﴾ من آية (٨٢) سورة يوسف أي أهل القرية .

وقيل عوده على الشمس أي النهار جلى الشمس لأنها تتبين إذا انبسط النهار قال مجاهد ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴾ أضاء . وقال قتادة ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴾ إذا غشيها النهار : ويقول أهل الإعجاز العلمي : النهار غير الشمس ، فالشمس نجمٌ مضيء كسائر النجوم ، والنهار هو حالة من اتحاد هذا الضوء الصادر من الشمس مع جزيئات الغلاف الجوي فيحدث هذا النور الذي يسمى النهار ، فالنهار هو الذي يجلي الشمس لنا فنراها بوضوح ، ولذلك لو تجاوزنا هذا الغلاف الجوي الذي لا يتجاوز المائتي كيلو متر إلى أعلى ولو باتجاه الشمس لرجعنا إلى الظلمة ولرأينا الشمس كرؤيتنا لسائر النجوم التي تتلألأ في الليل فهذا قولهم وهو لا يخالف نصاً ولا إجماعاً حتى نرده بل كلام السلف يحتمله ولا يعارضه .

وقيل جلى ما على وجه الأرض من حيوان ونبات وجبال وبحار وغيرها فبعد أن كانت مستترة بالظلمة عن الرؤية جلاها النهار فأصبحت ظاهرة مرئية ، وهذا يعود على المعنى الأول ، وكذلك قول من قال جلى الأرض أو جلى الدنيا فالمراد أزاح الظلمة عنها فأصبحت مرئية .

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴾ قيل : يغشى الشمس . وقيل : يغشى الآفاق ، وقيل يغشى الأرض . وكل ذلك صحيح ، فالشمس يغشاها الليل من كل جانب وقد عرضت وكالة ناسا الفضائية الأميركية صوراً للشمس والظلام يحيط بها من كل جانب وقد

التقطتها الأقمار الصناعية من خارج الغلاف الجوي فتبين أن الشمس لا تذهب بالليل ولا تأتي بالنهار بل الليل يغشاها والنهار يجليها وهذا من عجائب صنع الخالق جل في علاه .

﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴾ قد تكون (ما) موصولة بمعنى (الذي) أو بمعنى (من) كقوله تعالى ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ من آية (٢٢) سورة النساء ويكون المعنى والسماء ومن بناها فيكون القسم بالله جل وعلا لأنه هو باني السماء أي خالقها ورافعها ومسويها على أحسن هيئة . وقد تكون (ما) مصدرية ويكون المعنى والسماء وبنائها فيكون القسم بالسماء وجودة بنائها وهكذا في قوله ﴿ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾ ومعنى ﴿ طَحَىٰهَا ﴾ أي بسطها ، وقيل خلق ما فيها ، والأول أشهر وعليه أكثر المفسرين وهو المعروف عند أهل اللغة قاله بن كثير . ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾ أي خلقها فأحسن خلقها كما قال تعالى ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ سورة التين والنفس هنا قد وردت مطلقة لكن الآيات التي تليها قيدتها بأنها نفس الإنس والجن لأنها التي فيها فجورٌ وتقوى ولها فلاحٌ وخيبة ولذلك قال ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ أي بين لها طريق الخير والشر .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾ أي فاز وظفر بنعيم الآخرة ﴿ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ أي زكى نفسه أي طهرها من دنس الذنوب والشرك إلى الطاعة والتوحيد ، وبعضهم يجعل الضمير عائداً إلى الله تعالى ويجعل المعنى قد أفلح من زكاه الله ، ولا تعارض فإنه لا يستطيع أحد أن يزكي نفسه إلا أن يزكيه الله جل وعلا كما قال تعالى ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ سورة النور وقال تعالى ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ سورة التكوير ﴿ وَقَدْ خَابَ ﴾ أي قد خسر وهلك ﴿ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ أخفاها بما أفرغ عليها من الذنوب والعصيان كما قال تعالى ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ سورة المطففين قال صلى الله عليه وسلم (إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه منها ، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه فذلك الران الذي ذكره الله في كتابه) رواه أحمد والترمذي والنسائي وبن ماجة وحسنه الألباني قال سعيد بن جبير ومجاهد ﴿ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ أضلها وأغواها . وقال قتادة : أثَّمها وأفجرها . قال القرطبي : قال أهل اللغة : والأصل دسسها من التدسيس وهو إخفاء شيءٍ في شيء فأبدلت سينه ياءً كما يقال قصَّيت أظفاري وأصله قصصت أظفاري . انتهى . وذكروا أن أجواد العرب تنزل المرتفعات وتوقد النار في الليل لأجل أن يلفي عليهم كل طالب فضل ، بينما اللئام تنزل المنخفضات ولا توقد النار بالليل ليخفى مكانها عن الطالبين ، فأولئك رفعوا نفوسهم وأعزوها ، وهؤلاء دسوا أنفسهم وأذلوها ، وهكذا صانع المعروف المبادر إلى أعمال البر والخيرات قد أظهر نفسه وأعزها ، وأما صاحب المعاصي فهو خفي المكان منحط الأخلاق قليل المروءة ناكس الرأس قد أخفى نفسه وأذلها .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴾ أي كذبت قبيلة ثمود وهم قوم صالح عليه السلام أصحاب الحجر بما جاءهم به من الحق بسبب طغيانها وتمردها وعتوها عن أمر الله تعالى ، وأصل الطغيان الإسراف ومجاوزة الحد في الأمر .

﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ ﴾ الطبري : ثار . القرطبي : نهض . الجزائري : انطلق مسرعاً . وهذا من إعجاز القرآن فإن كلمة انبعث تحمل من المعاني أكثر مما يُعْتَقَدُ أنها مرادفة لها مما ذكره من تقدم وغيرهم كاندفع وانتدب وهب وقام ، فإن الانبعاث يتضمن النهوض إلى الأمر بعزمٍ وسرعة .

﴿ أَشْقَىٰهَا ﴾ أي أشقى ثمود واسمه قُدار بن سالف بإجماع المفسرين فيما نعلم ، وكان يضرب به المثل في الشؤم فيقال : أشأم من قُدار . وقد روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن زمعة رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يخطب وذكر الناقة والذي عقر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴾ انبعث لها رجلٌ عزيزٌ عارمٌ منيعٌ في رهطه مثل أبي زمعة . وهذا يدل على أنه كان رجلاً قوياً لأن معنى عارم أي شديدٌ شرس يقال شهوة عارمة أي شديدة ، وعزيزاً في قومه والعزيز ذو المكانة والرياسة ، وله منعة في قومه تحميه ، فجمع بين القوة والعزة والمنعة وظن أنه لن يقدر عليه أحد بعد ذلك ، ونسي قوة الله وقدرته ، وأنه لا يمتنع منه أحد . وأن من تجبر عليه ذل وشقي ، فكان عاقر الناقة أشقى الناس فعن عليٍ رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم (من أشقى الأولين ؟) قلت : عاقر الناقة . قال (صدقت فمن أشقى الآخرين ؟) قلت : لا علم لي يا رسول الله . قال (الذي يضربك على هذه وأشار بيده إلى يافوخه) وكان علي يقول : وددت أنه قد انبعث أشقاكم فخضب هذه من هذه يعني لحيته من دم رأسه . رواه أبو يعلى والبزار وعند البيهقي والطبراني أنا أبا سنان الدؤلي عاد علياً في شكوةٍ اشتكاها فقال : لقد تخوفنا عليك يا أمير المؤمنين في شكواك هذا فقال : لكني والله ما تخوفت على نفسي منه لأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم الصادق المصدوق يقول (إنك ستضرب ضربةً هاهنا وضربةً هاهنا وأشار إلى صدغيه فيسيل دمها حتى يخضب لحيتك ويكون صاحبها أشقاها كما كان عاقر الناقة أشقى ثمود) وروى بن كثير في تفسيره عن ابن أبي حاتم بسنده إلى عمار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي (ألا أحدثك بأشقى الناس ؟) قال : بلى . قال (رجلان : أحيمر ثمود الذي عقر الناقة ، والذي يضربك يا علي على هذا يعني قرنه حتى تبتل منه هذه يعني لحيته) قال الألباني في السلسلة الصحيحة : الحديث صحيح قد جاءت له شواهد كثيرة عن جمعٍ من الصحابة منهم عليٌ نفسه وعمار بن ياسر وصهيب الرومي .

﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ صالح عليه السلام ﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴾ أي احذروا ناقة الله وسقياها لا تتعرضوا لها بأذىً فيهلككم الله كقوله تعالى ﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ ﴾ سورة هود ولا تزاحموها في يوم سقياها لأنه قد أشترط عليهم حين طلبوا الآية وجاءتهم الناقة أن يكون لها شرب يوم ولهم شرب يوم كما في سورة الشعراء ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ ﴾ وهذا يدل على أنه حذرهم من التعرض للناقة بأذىً في نفسها بعقرٍ أو نحوه أو في سقياها بمنعها من الوصول إلى الماء أو نزحه مثلاً أو مزاحمتها في يومها ونحو ذلك ، وأن الله سيعاقبهم إن فعلوا ذلك . قال قتادة ﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴾ قسم الله الذي قسم لها من هذا الماء .

﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أي كذبوا صالحاً في تحذيره إياهم بشأن الناقة وسقياها ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ أي قتلوها ، وقد أضاف الفعل إلى الجميع مع أن القاتل واحد لأنهم رضوا بفعله . والراضي كالفاعل . وقال الطبري : قال قتادة : ذُكِرَ لنا أن أحيمر ثمود أبى أن يعقرها حتى بايعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم . وقال الطبري : وكيف قيل ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ وقد كان القوم قبل قتل الناقة مسلّمين لها شرب يومٍ ولهم شرب يومٍ آخر . قيل : جاء الخبر أنهم بعد تسليمهم ذلك أجمعوا على منعها الشرب ورضوا بقتلها وعن رضا جميعهم قتلها قاتلها وعقرها من عقرها ولذلك نُسب التكذيب والعقر إلى جميعهم .

﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم ﴾ أي غضب عليهم فأطبق عليهم العذاب وعمهم به فأهلكهم جميعاً . قال في المعجم الوسيط : دمدم عليه : غضب . ودمدم القوم وعليهم : طحنهم فأهلكهم . ودمدم الشيء : أهلكه مستأصلاً ، ودمدم عليه القبر وما أشبه : سوى أو أطبق . انتهى . وقال في لسان العرب : قال بن الأنباري دمدم أي غضب ودمدم عليه كَلَّمَهُ مغضباً . قال : وتكون الدمدمة الكلام الذي يزعج الرجل إلا أن أكثر المفسرين قالوا في دمدم عليهم أي أرجف الأرض بهم . وقال أبو إسحاق : معنى دمدم عليهم أي أطبق عليهم العذاب . ويقال للشيء يدفن قد دمدمت عليه أي سويت عليه . انتهى. قال العثيمين ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم ﴾ يعني : أطبق عليهم فأهلكهم كما تقول دمدمت البئر أي أطبقت عليها التراب .

﴿ بِذَنبِهِمْ ﴾ أي بسبب ذنبهم حصل عليهم هذا العذاب ، فالأمر كما قال الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ سورة يونس ﴿ فَسَوَّىٰهَا ﴾ سوى الدمدمة عليهم جميعاً فلم يفلت منهم أحد ، وساوى بينهم في العذاب لمَّا كانوا متواطئين جميعاً على فعلتهم النكراء ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾ أي تبعتها ، قال بن كثير : قال بن عباس ومجاهد والحسن وبكر بن عبد الله المزني وغيرهم : لا يخافُ اللهُ من أحدٍ تبعةً ، وقال الضحاك والسدي : لم يخف الذي عقرها عاقبة ما صنع ، والقول الأول أولى لدلالة السياق عليه والله أعلم . انتهى .

من دروس سورة الشمس :

أولاً / إبداع صنع الخالق جل وعلا وأنه كلما زاد العلم البشري واطلع على أشياء لم يكن الناس قد اطلعوا عليها من قبل كلما زاد تعجبه من بديع صنع الخالق واتقانه لما خلق كما قال تعالى ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ من (٨٨) سورة النمل كما بينا في تفسير قوله تعالى ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴾

ثانياً / أن الفلاح مرهون بتزكية النفس وتطهيرها من أدران الشرك والكفر والمعاصي ، والخيبة والخسران لمن لم يزكي نفسه وأوقعها في المهالك .

ثالثاً / أن الطغيان والتكبر ومجاوزة الحد هو سبب الهلاك كما فعلت ثمود عندما تمردوا على أوامر الله وكذبوا رسوله ولم يؤمنوا بآياته بل اعتدوا على الناقة التي جعلها الله لهم آية ونهاهم عن أذيتها فلم يلتفتوا إلى أمر الله ونهيه وقتلوا الناقة وأرادوا قتل رسوله فأهلكهم الله جميعاً .

سورة الليل مكية وآياتها (٢١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ۝١٣ فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ۝١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ۝١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ۝٢١ ﴾

تفسير سورة الليل

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ ﴾ يقسم تعالى بالليل إذ غطى بظلامه الكون لأن الغشاء بمعنى الغطاء ، والنهار إذا ظهر وبان وتكشف ، فالليل يغطى ما أظهره النهار من المرئيات للناس ، والنهار يظهر ما غطاه الليل منها ، فسبحان خالقهما ومصرفهما على هذا التقدير ، قال قتادة : آيتان عظيمتان يكورهما الله على الخلائق .

﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴾ اختلف العلماء في هذه الآية فقيل هي بمعنى والذي خلق الذكر والأنثى فيكون قد أقسم الله جل وعلا بنفسه فتكون ما موصولة ، وقيل هي بإضمار (من) بعد (خلق) أي وما خلق من الذكر والأنثى فيكون القسم بالذكر والأنثى وتنتظم ما وما بعدها مصدراً كقوله تعالى ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ ﴾ سورة الشمس أي السماء وبنائها والأرض وطحيها وقد قرأ عبد الله بن مسعود وأبو الدرداء رضي الله عنهما (والذكر والأنثى) ورفعه أبو الدرداء فقد روى البخاري ومسلم عن علقمة أن أبا الدرداء سأله عن قراءة بن مسعود لهذه السورة ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴾ فقرأ (والذكر والأنثى) قال : أشهد أني سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ هكذا وهؤلاء يريدونني على أن أقرأ ﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴾ والله لا أتبعهم .

وذكر القرطبي وغيره عن أبي بكر الأنباري بسنده إلى ابن مسعودٍ أنه قال : أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم (أني أنا الرزاق ذو القوة المتين) قال أبو بكر : كلٌ من هذين الحديثين مردود بخلاف الإجماع له ، وأن حمزة وعاصماً يرويان عن عبد الله بن مسعود ما عليه جماعة المسلمين والبناء على سندين يوافقان الإجماع أولى من الأخذ بواحدٍ يخالفه الإجماع والأمة وما يبنى على رواية واحد إذا حاذاه رواية جماعةٍ تخالفه أُخِذَ برواية الجماعة وأُبطل نقل الواحد لما يجوز عليه من النسيان والإغفال ولو صح الحديث عن أبي الدرداء وكان إسناده مقبولاً معروفاً ثم كان أبو بكرٍ وعمر وعثمان وعلي وسائر الصحابة رضي الله عنهم يخالفونه كان الحكم العمل بما روته الجماعة ورفض ما يحكيه الواحد المنفرد الذي يسرع إليه من النسيان ما لا يسرع إلى الجماعة وجميع أهل الملة . انتهى .

وقال الشريف حاتم بن عارف العوني : هذا يدل على أن هذه القراءة إحدى الأحرف السبعة التي تنزل بها القرآن وليست خطأً ولا نسياناً من هذين الصحابيين الجليلين القارئين رضي الله عنهما ولكن بعد أن جمع عثمان بن عفان رضي الله عنه الأمة على مصحفٍ واحد خشية أن لا تعي ما وعاه الصحابة رضوان الله عليهم من شأن الأحرف السبعة وأجمع الصحابة على قبول فعله هذا وأجمعت الأمة عليه أصبح من غير الجائز أن يُقرأ بغير ما في المصحف العثماني وأصبحت القراءة بمصحفه شرطاً من شروطٍ ثلاثة لقبول صحة القراءة عند جميع الأمة ، وهذا ما يفسر ثبوت قراءة ابن مسعود وأبي الدرداء كليهما لسورة الليل كما في المصحف ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴾ بالتواتر عنهما لأنهما اثنان ممن اتصلت أسانيد القُراءِ بهم من الصحابة رضي الله عنهم ، فقراءة ابن مسعود وأبي الدرداء بالقراءة الموافقة لخط المصحف وتركهما القراءة الأخرى يدل على أنهما تركاها لما خالفت إجماع الصحابة وهما منهم على مصحف عثمان رضي الله عنه . انتهى من ملتقى أهل الحديث .

واختلف في المراد بالذكر والأنثى فقيل آدم وحواء وقيل جميع الذكور والإناث من بني آدم لاختصاصهم بولاية الله وطاعته وقيل من بني آدم والبهائم ، وقيل من جميع المخلوقات وهو أولى لعموم الآية وعدم المخصص .

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ جواب القسم إن عملكم لمختلف فمنكم من يسعى في فكاك نفسه من النار ومن سخط الجبار ، ومنكم من يسعى إلى هلاك نفسه وعطبها ، وفي الحديث (كل الناس يغدو فبائعٌ نفسه فمعتقها أو موبقها) رواه مسلم فشتى جمع شتيت كمرضى ومريض وقتلى وقتيل ، والشتات التباعد والافتراق ومنه قول الشاعر :

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

والله جل وعلا أقسم بأشياء متضادة فالليل يضاد النهار والذكر يضاد الأنثى فناسب أن يذكر بعدها تضاد أعمال الناس بين حسنٍ وسيء ، ثم ذكر صفات الفريق الأول فقال ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ ﴾ أي أعطى المال وأدى حق الله فيه من زكاة وصدقةٍ وإنفاقٍ في سبيل الله ، واتقى ربه فتجنب المحارم ، وصدق بالحسنى قيل الخلف من الله وأن الله سيعوضه خيراً حين ينفق ماله في سبيل الله وحين يتقي ربه قال تعالى ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ من آية (٣٩) سورة سبأ وقال صلى الله عليه وسلم (ما من يومٍ يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر اللهم

أعط ممسكاً تلفا) متفق عليه وقيل الحسنى هي الجنة كما قال تعالى ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ من آية (٢٦) سورة يونس وقيل الحسنى لا إله إلا الله كما قال تعالى ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ سورة التوبة ولا تعارض ، فإن الجنة دار العوض ولا إله إلا الله مفتاح الجنة .

﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ أي نوفقه لعمل الصالحات ، وهذا يدل على أن من حسنت نيته في أداء الواجبات واجتناب المحرمات وأخلص لله في ذلك أن الله تعالى يوفقه لذلك وييسر عليه العمل بذلك . وأما من لم يخلص لله فتجد العبادة عليه ثقيلة كما قال تعالى عن المنافقين ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ من آية (٥٤) سورة التوبة وقيل سنيسر أموره كلها في الدنيا والآخرة كما قال تعالى ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ من آية (٤) سورة الطلاق

ثم ذكر صفات الفريق الثاني فقال ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾ أي بخل بالزكاة والنفقات الواجبة عليه ، واستغنى بجاهه وماله عن طاعة الله وتقواه ، وكذب بالخلف من الله وأن الله لن يخلفه خيراً إذا أنفق ماله في سبيل الله ، وقد يقع من بعض الموحدين التثاقل عن الإنفاق في سبيل الله ولو تيقن أن الله سيخلفه خيراً في الدنيا والآخرة لما تثاقل قال تعالى ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾ سورة محمد وقيل كذب بالجنة وموعود الله في الدار الآخرة ، وقيل كذب بكلمة التوحيد فكان مشركاً ، ولا تضاد ، فإنه لو كان موحداً لصدَّق بالجنة ، وإذا صدق بالجنة بذل لتحصيلها ماله ونفسه وسارع إلى تقوى الله والعمل بما يرضيه ، ولكنه لما كان مشركاً كذَّب بالجنة فلم يعمل لها فلذلك كان جزاءه ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ أي نخذله ولا نوفقه لعمل الصالحات وإنما نتركه يعمل السيئات حتى يكون مآله في الآخرة إلى النار والعياذ بالله قال صلى الله عليه وسلم (ما منكم من أحدٍ إلا وقد كتبه مقعده من النار ومقعده من الجنة . قالوا : يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل ؟ قال اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ الآية) قال الحسن البصري : هانوا عليه فعصوه ولو عزوا عليه لعصمهم . وحينئذٍ ﴿ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾ في النار فلن يخلصه منها ماله هذا الذي بخل به ولم يقم بما أوجب الله عليه فيه من الزكاة الواجبة والإنفاق في سبيل الله .

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾ من فضل الله جل وعلا على عباده أن ألزم نفسه ببيان الهدى للناس أي بيان الطرق الموصلة إليه جل وعلا وذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب مع دلائل الفطرة والعقل والحس ثم جعل الخيار للناس بعد ذلك فمن أراد طريق الهدى فقد عرفه ، ومن تنكبه فهو الذي اختار طريق الضلالة كما قال تعالى ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ سورة الإنسان وقال تعالى ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ سورة يونس وقال تعالى ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾ سورة الزمر

وقوله ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ﴾ أي الدنيا والآخرة ملكنا لا يشاركنا فيهما أحد ، فمن طلبهما من غير مالكهما فقد أشرك وأخطأ طريق الهدى ، كما قال البوصيري يمدح النبي صلى الله عليه وسلم بزعمه :

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

فجعل الدنيا وضرتها وهي الآخرة من عطاء النبي صلى الله عليه وسلم وهذا عين الشرك فإنهما ملكٌ لله جل وعلا وحده . قال الطبري رحمه الله في تفسير هذه الآية : وإنما عنى بذلك جل ثناؤه أنه يوفق لطاعته من أحب من خلقه فيكرمه بها في الدنيا ويهيئ له الكرامة والثواب في الآخرة ، ويخذل من يشاء خذلانه من خلقه عن طاعته فيهينه بمعصيته في الدنيا ويخزيه بعقوبته عليها في الآخرة . انتهى من تفسيره . وأُريت هنا وجهاً آخر وهو أنه تعالى لما ذكر أن الهدى عليه بين ما يصرف الناس عنه وذلك أن غالب ما يصرف الناس عن الهدى إما شبهة وإما شهوة ، فأهل الشبهات يطمعون في الآخرة ، وأهل الشهوات يطمعون في الدنيا ، فأخبرهم الله جل وعلا أن الدنيا والآخرة ملكه يعطي من يشاء من المال والمنصب والجاه ونحوها من شهوات الدنيا بفضله ويمنعها من يشاء بعدله ، ويعطي من يشاء العلم والبصيرة والحكمة الصارفة عن الشبهات بفضله ويمنعها من يشاء بعدله ، فالواجب على الناس أن يطلبوا الله من فضله في الدارين ويستمسكوا بهديه حتى يحصل لهم الخير والفلاح في الدارين ، ولا يتتبعوا السبل الأخرى فيضلوا .

﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴾ أي حذرتكم وخوفتكم ناراً تتوهج وتتوقد ، واللظى اللهب الخالص قاله عطية سالم ، وكفى بالنار واعظاً فعن سماك بن حرب قال سمعت النعمان بن بشير يخطب يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب يقول (أنذرتكم النار ، أنذرتكم النار ، أنذرتكم النار) حتى لو أن رجلاً بالسوق لسمعه من مقامي هذا وحتى وقعت خميصة كان على رأسه عند رجليه . رواه أحمد وبن حبان والحاكم وصححه الذهبي والألباني وقال صلى الله عليه وسلم (إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لرجل توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه) متفق عليه قال بن القيم في الفوائد : خلقت النار لإذابة القلوب القاسية .

﴿ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴾ أي لا يدخلها ويقاسي حرها إلا الأشقى من شقي يشقي شقاءً وشقوةً فهو أشقى وجمعها أشقياء والشقي أي التعيس الذي قد طال عناؤه واشتد بلاؤه وساءت حالته وعكسه السعيد وهو الفرح المسرور المنعم قال تعالى ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ سورة هود

﴿ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ سبب عذابه وشقاوته أنه كذَّب وتولى ، كذَّب بالحق وتولى أي أعرض عن الطاعة ، فالتكذيب يكون في الأخبار ، والتولي يكون في الأمر والنهي ، فلم يصدق بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر ، وأعرض عن القيام بالواجبات وترك المنكرات .

قال بن تيمية ﴿ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ أي كذب بالخبر وتولى عن طاعة الأمر ، وإنما على الخلق أن يصدقوا الرسل فيما أخبروا ويطيعوهم فيما أمروا . (مجموع الفتاوى ٥٩/٧)

وهاتان الآيتان استدل بهما المرجئة على أنه لا يدخل النار إلا الكافر ، وأن المؤمن مهما عمل من الذنوب فلن يدخل النار وهذا باطل وليس لهم فيهما حجة ، لأن النار دركات كما أن الجنة درجات ، فكما أن أهل اليمين لهم جنتان وللسابقين جنتان ولا يمكن لأهل اليمين أن يدخلوا الجنتان اللتان أعدتا للسابقين ، فكذلك العصاة من الموحدين لا يصلون النار التي أعدت للكافرين ولكنهم يصلون ناراً أعدت لهم وهي دركة من دركات جهنم من أعاليها ، وأما المنافقين فقد قال الله عنهم ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾ سورة النساء وهكذا الأشقياء الكفار لهم نارٌ لا يصلاها غيرهم

قال الزجاج في معرض رده عليهم : ليس الأمر كما ظنوا هذه نارٌ موصوفة بعينها لا يصلى هذه النار إلا الذي كذب وتولى ولأهل النار منازل فمنها أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ، والله سبحانه كُلُّ ما وعد عليه بجنسٍ من العذاب فجائز أن يعذب به ، وقال جل ثناؤه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ من آية (٤٨) سورة النساء فلو كان كل من لم يشرك لم يعذب لم يكن في قوله ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ فائدة . انتهى .

وقال الزمخشري : الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين فأُريدَ أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين فقيل الأشقى وَجُعِلَ مختصاً بالصلي كأن النار لم تخلق إلا له ، وقيل الأتقى وَجُعِلَ مختصاً بالنجاة كأن الجنة لم تخلق إلا له ، وقيل المراد بالأشقى أبو جهل أو أمية بن خلف ، وبالأتقى أبو بكر الصديق . انتهى .

وقال الشوكاني : الأولى حمل الأشقى والأتقى على كل متصفٍ بالصفتين المذكورتين ويكون المعنى أنه لا يصلاها صلياً تاماً لازماً إلا الكامل في الشقاء وهو الكافر ، ولا يجنبها ويبعد عنها تبعيداً كاملاً بحيث لا يحوم حولها فضلاً عن أن يدخلها إلا الكامل في التقوى ، فلا ينافي هذا دخول بعض العصاة من المسلمين النار دخولاً غير لازم ، ولا تبعيد بعض من لم يكن كامل التقوى عن النار تبعيداً غير بالغٍ مبلغ تبعيد الكامل في التقوى عنها ، والحاصل أن من تمسك من المرجئة بقوله ﴿ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴾ زاعماً أن الأشقى الكافر لأنه الذي كذب وتولى ولم يقع التكذيب من عصاة المسلمين . فيقال له : فما تقول في قوله ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴾ فإنه يدل على أنه لا يجنب النار إلا الكامل في التقوى فمن لم يكن كاملاً فيها كعصاة المسلمين لم يكن ممن يجنب النار ، فإن أولت الأتقى بوجهٍ من وجوه التأويل لزمك مثله في الأشقى . انتهى .

وقد بينا أقوال المرجئة والرد عليهم في كتابنا (طريق الناجين) فراجعه إن شئت .

وقوله تعالى ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴾ أي يُباعد عن النار الأتقى وهو اسم تفضيل من التقوى أي اتقى الله حق التقوى قاله العثيمين .

﴿ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾ أي يتصدق بماله في سبيل الله ، يبتغي بذلك زكاة نفسه وطهرتها من الذنوب ومن مرض الشح والبخل .

﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴾ أي لم يعطي المال لأن لأحدٍ عليه يد فضلٍ سابقة يريد مجازاته عليها ، ويحتمل أن يكون المعنى وما له عند أحدٍ فيما أنفق من نعمةٍ يلتمس ثوابها أي أنه لم يرد بما أنفق مكافأةً من أحدٍ وهما وجهان ذكرهما الطبري والفراء ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ أي مخلصاً لله ، وقيل طمعاً في أن يتشرف برؤية الله جل وعلا في الدار الآخرة في جنات النعيم كما قال تعالى ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ من آية (٢٦) سورة يونس فالحسنى الجنة والزيادة رؤية الله جل وعلا فيها ، فعن صهيب بن سنان رضي الله عنه قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ وقال (إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى منادٍ : إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، قالوا : ألم يبيض وجوهنا ، وينجنا من النار ، ويدخلنا الجنة ؟ قال : فيكشف الحجاب قال فو الله ما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه) رواه الترمذي وبن ماجة وصححه الألباني .

﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ وعدٌ من الله جل وعلا لهذا الذي يؤتي ماله يبتغي بذلك وجه الله أنه سيرضيه في الدار الآخرة وقد حكى بعضهم الإجماع على أن الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه وكان يشتري من يؤمن من العبيد والإماء فيعتقهم يبتغي بذلك وجه الله منهم بلال بن رباح مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعامر بن فهيرة شهد بدراً وأحداً وقتل يوم بئر معونة شهيداً وأم عميس وزنّيرة والنهدية وابنتها وجارية بني المؤمل مرَّ بها وهي تعذب فاشتراها فأعتقها . حتى قال أبوه: أي بني لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك ؟ قال : منع ظهري أريد فنزل ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴾ إلى آخر السورة ذكر ذلك البغوي في تفسيره . وذكر بعضهم أنها نزلت في أبي الدحداح في قصة تصدقه ببستانه وهذا بعيد لأن السورة مكية والقصة مدنية وقال بعض الشيعة نزلت في علي بن أبي طالب وهو أبعد لأن علياً كان بمكة فقيراً لم يكن عنده من المال ما ينفق به بل كان في عيال النبي صلى الله عليه وسلم ينفق عليه النبي صلى الله عليه وسلم من ماله ، بل الصحيح أنه أبو بكر الصديق فهو الذي كان ذو مالٍ وكان ينفق أمواله في سبيل الله حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم (ما نفعني مالُ أحدٍ قط ما نفعني مال أبي بكر) رواه أحمد والترمذي وبن ماجه وصححه الألباني ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هي القاعدة عند الأصوليين ، ففي الآيات دعوة للإنفاق في سبيل الله تزكيةً للنفس وطلباً لمرضاة الله ، وأن الله جل وعلا يعوض من فعل ذلك مع صلاح النية أجراً عظيماً في الدار الآخرة .

من دروس سورة الليل :

أولاً / أن من أراد الله والدار الآخرة وسعى لها بفعل الصالحات واجتناب المحرمات فإن الله تعالى ييسر له فعل الطاعات وييسر له اجتناب المحرمات ويعصمه من الوقوع في كبائر الذنوب ، بخلاف من كانت نيته الدنيا فتثقل عليه العبادة حتى لا يكاد يطيقها ويسهل عليه الوقوع في المعاصي وتتفتح أمامه أبواب الفتن فيقع فيها غير مبالٍ بعاقبة ما صنع فيكون حاله في الآخرة عسيراً بخلاف الأول .

ثانياً / أن الله جل وعلا تكفل للناس ببيان الطريق الموصل إليه وذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب ونحو ذلك وهذا من فضل الله ومنته على الناس ولو جعلهم هملاً لضلوا جميعاً ولكن الله بيَّن لهم الطريق وجعل لهم الاختيار وأخبرهم أن هناك جزاءً على هذا الاختيار فمن سلك طريق الهدى كان في جنة ونعيم ومن سلك طريق الضلالة كان في عذابٍ وجحيم .

ثالثاً / فضل الإخلاص وأنه يرفع صاحبه عند الله تعالى كما قال تعالى ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾

سورة الضحى مكية وآياتها إحدى عشر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾ ﴾

تفسير سورة الضحى

سبب نزولها كما ذكر أهل التفسير أن الوحي أبطأ على النبي صلى الله عليه وسلم حتى قال المشركون : ودعه ربه وقلاه . فأنزل الله ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ السورة

يقسم تعالى بالضحى وهو أول النهار وقيل النهار كله لمقابلته بالليل كله كقوله تعالى ﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ سورة الأعراف أي نهاراً ذكره البغوي ، والنهار فيه الضياء والنور ، ثم أقسم بضده وهو الليل إذا سجى أي سكن فأظلم وادلهم نقله بن كثير عن مجاهد وقتادة والضحاك وابن زيد . وقال الطبري : سكن بأهله وثبت بظلامه كما يقال بحر ساج إذا كان ساكناً . انتهى . وقال الجزائري : غطى بظلامه المعمورة وسكن فسكن الناس وخلدوا إلى الراحة . انتهى . وقال عطية سالم : أقسم تعالى بالضحى والليل هنا فقط لمناسبتهما للمقسم عليه لأنهما طرفا الزمن وظرف الحركة والسكون فإنه يقول له مؤانساً ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ لا في ليلٍ ولا في نهار . انتهى من تتمة أضواء البيان . ويريد بظرف الحركة والسكون أي لا في ليلٍ وقت سكون الناس ولا في نهار وقت حركة الناس بطلب المعاش ونحوه ، وفيه دليلٌ على قدرة الله تعالى على خلق المتضادات ، وجواب القسم ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ ما تركك ربك وما أبغضك ، وهذا فيه ردٌ على المشركين الذين زعموا أن الله تعالى قد ترك نبيه وأبغضه ، فجاء الرد من الله تعالى على هذه الفرية وزاده بشرى فقال ﴿ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ أي لا تحزن لما يصيبك في الدنيا فإن جزاءك سيكون في الدار الآخرة وهي خير لك من الحياة الدنيا ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ من النعيم

المقيم الذي لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولقد أعطاه الله الكوثر ، وأعطاه الشفاعة العظمى وهي المقام المحمود الذي يحمده عليه الأولون والآخرون ، وأعطاه الوسيلة وهي أعلى منزلة في الجنة إلى غير ذلك من الخير العظيم الذي سيعطيه ربه له في الدار الآخرة ، ولقد أعطاه أيضاً في الدنيا النصر والتمكين وكثرة الاتباع وغير ذلك ، وبيَّن له في هذه السورة بعض ما أعطاه في الدنيا فقال ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾ كان النبي صلى الله عليه وسلم يتيم الأبوين فأوجد الله له سكناً يأوي إليه وهو جده عبد المطلب ثم عمه أبو طالب فآووه وحموه بتقدير الله جل وعلا ثم انتقل إلى المدينة بعد موت عمه فوجد الأنصار والمهاجرين يقدمون أرواحهم وأهليهم وأموالهم فداءً له عليه الصلاة والسلام وكل ذلك من إيواء الله جل وعلا له وتفضله عليه ، فلله الحمد الذي آوى نبيه وكفاه ونصره وجعلنا من اتباعه فتفضله على نبيه تفضلاً على المؤمنين من اتباعه من باب أولى ولو وَكَّلَ كفاية نبيه عليهم لما استطاعوا.

وقوله ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ أي حائراً لا تعرف الطريق الصحيح الموصل إلى الله فهداك الله إليه ، وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم لم يعبد وثناً قط وكان على الحنيفية ملة إبراهيم ، لكنه لم يكن يعرف كيف يعبد الله كيف يصلي وكيف يصوم وكيف يحج ونحو ذلك فعلمه الله جل وعلا . قال البغوي ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ يعني ضالاً عما أنت عليه فهداك للتوحيد والنبوة . قال الحسن والضحاك وابن كيسان وجدك ضالاً عن معالم النبوة وأحكام الشريعة غافلاً عنها فهداك إليها كما قال تعالى ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ سورة يوسف من آية (٣) وقال ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ سورة الشورى انتهى من معالم التنزيل للبغوي .

وقد ذكر بعض المفسرين أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مسافراً ليلاً فضل عن الطريق فهداه الله إلى الوجهة الصحيحة وفسروا به الآية ، ولا شك أن هذا وإن كان فيه تفضل من الله لكن ليس هو الهدى الذي يُذْكَرُ في الكتاب ويمتن الله به على العباد ، وإنما ذلك الهدى إلى الإيمان والنور والعلم الذي بعث الله به نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم فهو أعظم الهدى وأكمله ولا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يعلم إلا ما علمه الله إياه وهداه إليه وليس ذلك بانتقاصٍ فيه فمن ذا الذي يولد عالماً أو يستغني عن هدى الله ؟ قال تعالى في الحديث القدسي (يا عبادي كلكم ضآلٌ إلا من هديته فاستهدوني اهدكم)

وقوله ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ أي وجدك فقيراً فأغناك وكان عليه الصلاة والسلام صابراً في الفقر شاكراً في الغنى وقد جمع الله لرسوله الأمرين من الفقر والغنى ليكون قدوةً للناس في الحالتين .

وقوله ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ هذه في مقابل ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾ أي كما كنت يتيماً فآويناك فأحسن إلى اليتيم ولا تغمضه وتحقره أو تظلمه وتذهب بحقه استضعافاً منك له فذاك قهره .

وقوله ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ يشمل السؤال في العلم وفي المال وغير ذلك ، فمن جاءك يسألك حاجةً من ذلك فلا ترده بانتهارٍ وهو الكلام الزاجر ولكن أجبه أو تلطف في رده .

وقوله ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ هذه في مقابل ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ أي كما كنت فقيراً فأغنيناك فحدث بنعمة الله عليك ولا تنكرها ، وقيل المراد بالنعمة هنا النبوة أو القرآن أو الإسلام . قال الجزائري : أي اشكر نعمة الإيمان والإحسان والوحي والعلم والفرقان وذلك بالتحدث بها إبلاغاً وتعليماً وتربيةً وهدايةً فذاك شكرها والله يحب الشاكرين ، هكذا أدب الله جل وعلا رسوله وخليله فأكمل تأديبه وأحسنه . انتهى . وتم تفسير سورة الضحى

مسألة / هل يشرع التكبير بعد كل سورة ابتداءً من سورة الضحى إلى سورة الناس ؟

اختلف العلماء في هذه المسألة على قولين فالجمهور على عدم مشروعيتها ويرى الإمام أحمد في رواية أنها مشروعة وعنه رواية أخرى كالجمهور قال الشيخ محمد المنجد : الصحيح أنه لا يشرع التكبير ولم يثبت هذا في حديثٍ مرفوع كمالم يصح عن أحدٍ من الصحابة وإنما ثبت عن بعض قراء مكة فعن عكرمة بن سليمان قال قرأت على إسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين فلما بلغت والضحى قال كبّر كبّر عند خاتمة كل سورة حتى تختم ، وأخبره عبد الله بن كثير أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك ، وأخبره مجاهد أن بن عباسٍ أمره بذلك ، وأخبره ابن عباس أن أبي بن كعب أمره بذلك ، وأخبره أبي بن كعب أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره بذلك . رواه الحاكم في المستدرك والحديث ضعيف في إسناده أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بزة المقرئ ، قال أبو حاتم ضعيف الحديث لا أحدث عنه . وقال العقيلي : منكر الحديث . وقال الذهبي : هذا حديث غريب وهو مما أنكر على البزي ، قال أبو حاتم هذا منكر وقال : وصحح له الحاكم حديث التكبير وهو منكر . قال ابن مفلح الحنبلي : واستحب أحمد التكبير من أول سورة الضحى إلى أن يختم ، ذكره ابن تميم وغيره ، وهو قراءة أهل مكة ، أخذها البزي عن ابن كثير ، وأخذها ابن كثير عن مجاهد ، وأخذها مجاهد عن ابن عباس ، وأخذها ابن عباس عن أبيّ بن كعب ، وأخذها أبيّ عن النبي صلى الله عليه وسلم ، روى ذلك جماعة منهم : البغوي في تفسيره ، والسبب في ذلك انقطاع الوحي . وهذا حديث غريب ، رواية أحمد بن محمد بن عبد الله البزي ، وهو ثبت في القراءة ، ضعيف في الحديث . وقال أبو حاتم الرازي : هذا حديث منكر ... وعنه أي : عن الإمام أحمد – أيضاً : لا تكبير ، كما هو قول سائر القراء " انتهى . الآداب الشرعية " (٢ / ٢٩٥ ، ٢٩٦) .وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية : عن جماعة اجتمعوا في ختمة وهم يقرؤون لعاصم وأبى عمرو فإذا وصلوا إلى سورة الضحى لم يهللوا ولم يكبروا إلى آخر الختمة ، ففعلهم ذلك هو الأفضل أم لا ؟ وهل الحديث الذي ورد في التهليل والتكبير صحيح بالتواتر أم لا ؟

فأجاب : الحمد لله ، نعم ، إذا قرؤوا بغير حرف ابن كثير كان تركهم لذلك هو الأفضل ، بل المشروع المسنون ؛ فإن هؤلاء الأئمة من القراء لم يكونوا يكبرون لا في أوائل السور ، ولا في أواخرها ، فإن جاز لقائل أن يقول إن ابن كثير نقل التكبير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : جاز لغيره أن يقول إن هؤلاء نقلوا تركه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ من الممتنع أن تكون قراءة الجمهور التي نقلها أكثر من قراءة ابن كثير قد أضاعوا فيها ما أمرهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإن أهل التواتر لا يجوز عليهم كتمان ما تتوفر الهمم والدواعي إلى نقله ، فمن جوَّز على جماهير القراء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأهم بتكبير زائد فعصوا لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتركوا ما أمرهم به : استحق العقوبة البليغة التي تردعه وأمثاله عن مثل ذلك ... وأما التكبير : فمن قال إنه من القرآن : فإنه ضال باتفاق الأئمة والواجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل ،

فكيف مع هذا ينكر على من تركه ؟! ومن جعل تارك التكبير مبتدعاً أو مخالفاً للسنَّة أو عاصياً : فإنه إلى الكفر أقرب منه إلى الإسلام ، والواجب عقوبته ؛ بل إن أصرَّ على ذلك بعد وضوح الحجة وجب قتله . ولو قدِّر أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالتكبير لبعض من أقرأه كان غاية ذلك يدل على جوازه ، أو استحبابه فإنه لو كان واجباً لما أهمله جمهور القراء ، ولم يتفق أئمة المسلمين على عدم وجوبه ، ولم ينقل أحد من أئمة الدين أن التكبير واجب ، وإنما غاية من يقرأ بحرف ابن كثير أن يقول : إنه مستحب ، وهذا خلاف البسملة ، فإن قراءتها واجبة عند من يجعلها من القرآن ، ومع هذا فالقراء يسوغون ترك قراءتها لمن لم ير الفصل بها ، فكيف لا يسوغ ترك التكبير لمن ليس داخلاً في قراءته ؟ انتهى . مجموع الفتاوى " (١٣/ ٤١٧ - ٤١٩) . وقال : والتكبير المأثور عن ابن كثير ليس هو مسنداً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يسنده أحد إلى النبي صلى الله عليه وسلم إلا البزي ، وخالف بذلك سائر من نقله ، فإنهم إنما نقلوه اختياراً ممن هو دون النبي صلى الله عليه وسلم وانفرد هو برفعه ، وضعَّفه نقلة أهل العلم بالحديث والرجال من علماء القراءة وعلماء الحديث ، كما ذكر ذلك غير واحد من العلماء . مجموع الفتاوى (١٧ / ١٣٠) .

وسئل الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله : بعض قراء القرآن يفصلون بين السورة والأخرى بقول " الله أكبر " دون بسملة ، هل يجوز ذلك ، وهل له دليل ؟ فأجاب : هذا خلاف ما فعل الصحابة رضي الله عنهم من فصلهم بين كل سورة وأخرى بـ " بسم الله الرحمن الرحيم " وخلاف ما كان عليه أهل العلم من أنه لا يفصل بالتكبير في جميع سور القرآن . غاية ما هناك أن بعض القراء استحب أن يكبر الإنسان عند ختم كل سورة من الضحى إلى آخر القرآن مع البسملة بين كل سورتين ، والصواب : أنه ليس بسنة ؛ لعدم ورود ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى هذا فالمشروع أن تفصل بين كل سورة وأخرى بالبسملة " بسم الله الرحمن الرحيم " إلا في سورة " براءة " فإنه ليس بينها وبين الأنفال بسملة " انتهى . فتاوى إسلامية " (٤ / ٤٨) .

وقد ذكر الشيخ بكر أبو زيد في كتابه " بدع القراء " (ص ٢٧) سبعة أمور تتعلق بختم القرآن نذكر منها : التكبير في آخر سورة الضحى إلى آخر سورة الناس داخل الصلاة أو خارجها ثم قال : فهذه الأمور السبعة : لا يصح فيها شيء عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا عن صحابته رضي الله عنهم ، وعامة ما يُروى في بعضها مما لا تقوم به الحجة ، فالصحيح عدم شرعية شيء منها " انتهى .

وألَّف شيخ المقرئين في المدينة النبوية الشيخ إبراهيم الأخضر رسالة بعنوان (تكبير الختم بين القراء والمحدثين) وقد ذكر في خاتمة هذه الرسالة ما نصه : ومن خلال ما تقدم من بحث أحوال الروايات وتحقيق سندها ، وتراجم رجالها : لم نجد غير رواية البزي كما ذكر العلماء وهي رواية تسلسلت بالضعفاء والمجروحين ، ولم تعضدها رواية أخرى من غير طريق البزي ، وذلك كما صرح كثير من علماء الروايات ، على أن بعضاً من مشاهير القراء كابن مجاهد في كتابه (السبعة) لم يورد التكبير ، وكذلك أبو القاسم الهذلي في كتابه " الكامل " لم يورد التكبير أيضاً ، وهذا مما يدل على عدم ثبوت الرواية عندهما والله أعلم ... وبهذا فلا نثبت سنَّة بخبر كهذا ، بل الأفضل والأولى تركه سواء في رواية البزي أو رواية غيره من القراء وذلك صوناً لكتاب الله ، وتجريداً له عن كل ما ليس منه ممن يظن أنه سنَّة وهو ليس بسنَّة ، والحمد لله رب العالمين . انتهى

وقد ذُكر في سبب التكبير أسباب عديدة ، أشهرها أنه صلى الله عليه وسلم كان قد انقطع عنه الوحي مدة ، فلما عاد بعد انقطاع نزل عليه بسورة الضحى ، وفيها ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ فكبَّر فرحاً بهذا ، وهذا لو صحَّ فإنه لا يدل على استحباب التكبير الذي قال به بعض القراء ، وذلك من وجوه :

أولاً / أنه ليس فيه تكبير من بعد كل قراءة للسورة .

ثانياً / ليس فيه أنه كبَّر إلى سورة الناس .

ثالثاً / أنه كان التكبير مرة واحدة ولسبب مجيء الوحي بعد انقطاعه .

رابعاً / أنه ليس في كل السور الأخرى ما في سورة الضحى من معاني .

خامساً / على أن هذه الرواية لم يأتِ لها سند صحيح بل ولا ضعيف . قال الإمام ابن كثير رحمه الله : وذكر القرَّاء في مناسبة التكبير من بعد سورة الضحى : أنه لما تأخر الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفتر تلك المدة ثم جاءه الملَك فأوحى إليه ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ ﴾ السورة بتمامها : كبَّر فرَحاً وسروراً . ولم يُروَ ذلك بإسناد يُحكم عليه بصحة أو ضعف ، فالله أعلم . انتهى كلام الشيخ محمد المنجد حفظه الله

وقد سئل الشيخ بن باز رحمه الله عن ذلك فقال : لم يثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم كما صرح بذلك الحافظ بن كثير رحمه الله في أول تفسير سورة الضحى ولكن ذلك عادة جرى عليها بعض القراء لحديثٍ ضعيفٍ ورد في ذلك فالأولى ترك ذلك لأن العبادات لا تثبت بالأحاديث الضعيفة والله الموفق . فتاوى بن باز (٤١٥/٢٤)

من دروس سورة الضحى

أولاً / فضل نبي الله صلى الله عليه وسلم وعلو منزلته عند الله ، وأن الله لم يتركه ولم يبغضه بل هو كريمٌ عند الله وسيعطيه الله في الدار الآخرة من النعيم المقيم حتى يرضى .

ثانياً / أن لله الفضل والمنة على الناس جميعاً ، فهو صاحب الجود والإحسان ، وهو المنعم المتفضل ، وكل خيرٍ في الوجود هو من خيره جل وعلا ، وكل نعمةٍ فهو المتفضل بها ، فينبغي شكره والثناء وعليه وتعظيمه وعبادته وحده لا شريك له .

ثالثاً / أن على الإنسان إذا اغناه الله أن لا ينسى فضل ربه عليه ، وأن يكرم المبتلين باليتم والفقر والحاجة ، وإذا هداه الله أن يدل الناس على طريق الهداية ، والمقصود أن كل خيرٍ أعطاه الله إياه أن يسعى في أن يحصل الناس مثله ، وكل شرٍ عصمه الله منه أن يسعى في عصمة الناس منه ، وهذا يدل على فضل هذا الدين وعلو منزلته وأنه دين التسامح والأخلاق الفاضلة .

سورة الشرح مكية وآياتها ثمان .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾ ﴾

تفسير سورة الشرح

يذكر من المناسبة بين هذه السورة والسورة التي قبلها وهي سورة الضحى أن هذه السورة تكملة لتعداد نعم الله تعالى وفضائله على نبيه التي ورد بعضها في سورة الضحى .

يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ممتناً عليه ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ يعني للإيمان والهداية ومعرفة الله جل وعلا حق المعرفة كقوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ سورة الشورى وقوله ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ من (١٢٥) سورة الأنعام وقيل المعنى ألم نجعله رحباً فسيحاً لا ضيق فيه ، ولا شك أن ذلك نعمة من الله تعالى .

وقوله ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ أي غفرنا لك ذنبك ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ أي أثقله وأوهنه ، فإذا كان هذا ذنب النبي صلى الله عليه وسلم قد أثقله فكيف بمن عليه كالجبال من الذنوب ، فاللهم الرحمة والمغفرة يا غفار الذنوب فإن ذنوبنا قد أثقلتنا عن طاعتك وصدتنا عن التقرب إليك .

وقوله ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ أي اسمك وشأنك . قال مجاهد : لا أذكر إلا ذكرت معي أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . وقال قتادة : رفع الله ذكر نبيه في الدنيا والآخرة فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاةٍ إلا ينادي بها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

قال حسان : وضم الإله اسم النبي إلى اسمه إذ قال في الخمس المؤذن أشهد

وشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمودٌ وهذا محمد

ولقد رفع الله اسم النبي صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه بل قبل مولده وما من نبيٍ إلا وقد أُخِذَ عليه الميثاق أن يتبع محمداً إذا بعث وهو حي كما في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ سورة آل عمران وسيرفع الله له ذكره في الآخرة حينما يعطى الشفاعة العظمى لأهل الموقف لفصل القضاء وهو المقام المحمود الذي يمدحه عليه الأولون والآخرون .

وقوله ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾ بشارة للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين أن العسر يتبعه اليسر ولن يأتي عسر إلا وبعده الفرج واليسر روي عن بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : لو كان العسر في جحرٍ لطلبه اليسر حتى يدخل عليه ولن يغلب عسرٌ يسرين . وروي بن جرير بسنده عن الحسن قال : لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم (أبشروا أتاكم اليسر ، لن يغلب عسر يسرين) وعن قتادة نحوه وكلاهما مرسل . قال بن كثير : العسر معرفٌ في الحالين فهو مفرد ، واليسر منكر فتعدد . انتهى . وقال البغوي : قال المفسرون ومعنى قوله (ولن يغلب عسر يسرين) أن الله تعالى كرر العسر بلفظ المعرفة واليسر بلفظ النكرة ومن عادة العرب إذا ذكرت اسماً معرفاً ثم أعادته كان الثاني هو الأول وإذا ذكرت نكرة ثم أعادته مثله صار اثنين وإذا أعادته معرفة فالثاني هو الأول كقولك : إذا كسبت درهماً أنفقت درهماً فالثاني غير الأول وإذا قلت : إذا كسبت درهماً فأنفق الدرهم فالثاني هو الأول فالعسر في الآية مكرر بلفظ التعريف فكان عسراً واحداً واليسر مكرر بلفظ التنكير فكانا يسرين فكأنه قال : فإن مع العسر يسراً إن مع ذلك العسر يسراً ، وقال أبو علي الحسن بن يحيى بن نصر الجرجاني صاحب النظم : تكلم الناس في قوله (لن يغلب عسر يسرين) فلم يحصل منه غير قولهم إن العسر معرفة واليسر نكرة فوجب أن يكون عسراً واحداً ويسران وهذا قولٌ مدخول إذا قال الرجل : إن مع الفارس سيفاً ، إن مع الفارس سيفاً ، فهذا لا يوجب أن يكون الفارس واحداً والسيف اثنين . ثم بيَّن الجرجاني معنى الحديث بوجهة نظره وأن معناه أن اليسر يكون في الدنيا وهو ما ذكره في الآية الأولى ويكون في الآخرة وهو ما ذكره في الآية الثانية فلو قُدِّرَ أن العسر غلب يسر الدنيا فلن يغلب يسر الآخرة ولذلك قال (لن يغلب عسر يسرين) .

قال الشاعر :

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ذرعاً وعند الله منها المخرج

كملت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكان يظنها لا تفرج

وقوله ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴾ أي إذا فرغت من أمر دينك ودنياك وحصَّلت وقت فراغ فاشتغل فيه بطاعة الله من صلاة وصيام وحج وجهاد ودعاء وغير ذلك من أنواع العبادات ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ أي فارغب إليه وحده لا إلى سواه لأن تقديم المعمول يفيد الحصر بالإكثار من الدعاء أن يثيبك ويغفر ذنبك ويدخلك الجنة ويجيرك من النار وفي الحديث في قصة يأجوج ومأجوج (

فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيراً كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله) رواه مسلم أي يرغبون إلى الله بالدعاء راجين منه الخلاص من نتن يأجوج ومأجوج .

من دروس سورة الشرح :

أولاً / أن لله الفضل والمنة والكرم والإحسان على نبيه صلى الله عليه وسلم وعلى عباده جميعاً ، وفي هذا تنبيهٌ أنه لا ينبغي أن ينزل النبي صلى الله عليه وسلم فضلاً عن غيره منزلة الله جل وعلا فيرجى ويدعى ويرغب إليه ويتوسل إليه ويستشفع به عند قبره كما يفعله بعض أهل الضلالة فإن ذلك كله من محض حق الله جل وعلا لأن ذلك كله من الدعاء والدعاء عبادة والعبادة لا تكون إلا لله جل وعلا كما قال تعالى ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾ سورة الجن وكثير من الجهلة يخلطون بين التوسل المشروع والتوسل الممنوع فالرجل الصالح الحي يجوز التوسل بدعائه بأن يُذْهَبَ إليه ويقال له يا فلان ادع الله لنا بكذا وكذا من الصحة والمال والولد ونحو ذلك ، لكن الميت والغائب لا يجوز التوسل به ، ولو كان جائزاً لما عدل الصحابة الكرام عن النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته واستشفعوا بالعباس عم النبي صلى الله عليه وسلم وطلبوا منه أن يدعوا الله أن ينزل الغيث عليهم لما انقطع المطر .

ثانياً / أن يبشر المؤمن بتيسير الله له فمهما ركبته المشآق وتكالبت عليه المضايق فليعلم أن فرج الله قريب وأن العسر لابد أن يعقبه يسر وأن الكرب بعده الفرج ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾

ثالثاً / أن المؤمن حياته كلها لله جل وعلا كما قال تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ سورة الأنعام فلا فراغ في حياة المؤمن ، فإذا انتهى من الأعمال المفروضة عليه شرعاً والأعمال التي يقيم بها نفسه وأهله من معاش الدنيا ، فليستغل وقت الفراغ في نوافل العبادات وفي كثرة الدعاء لله جل وعلا ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾ ﴾ قال النبي صلى الله عليه وسلم (اغتنم خمساً قبل خمسٍ : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك) رواه النسائي وابن أبي شيبة والحاكم وغيرهم .

سورة التين مكية وآياتها ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾

تفسير سورة التين

يقسم تعالى بالتين والزيتون وهما الفاكهتان المعروفتان وفوائدهما لا تكاد أن تحصر ، فمن فوائد التين : أنه يقوي العظام ويساعد في تنشيط وظائف الأمعاء ، ويحد من الإصابة بالإمساك ، ويزيل الانتفاخ وهو مفيد لعلاج السعال والزكام وعلاج بعض الأمراض الجلدية كالبهاق ، ويحتوي على مادة البوتاسيوم التي تعمل على تخفيض ضغط الدم عند ارتفاعه ، وهو مفيد للنظر لاحتوائه على فيتامين أ قال عطية سالم رحمة الله في تتمة أضواء البيان : قد ذكر المفسرون وابن القيم وصاحب القاموس للتين خواص وقالوا إنها مما تجعله محلاً للقسم به ، وجزم بن القيم أنه المراد في السورة ومما ذكروا من خواصه قالوا : إنه يجلو رمل الكلى والمثانة ويؤمن من السموم وينفع خشونة الحلق والصدر وقصبة الرئة ، ويغسل الكبد والطحال ، وينقي الخلط البلغمي من المعدة ، ويغذي البدن غذاءً جيداً ، ويابسه يغذي وينفع العصب ، وقال جالينوس : وإذا أكل مع الجوز والسذاب قبل أخذ السم القاتل نفع وحفظ من الضر ، وينفع السعال المزمن ويدر البول ويسكن العطش الكائن عن البلغم المالح ، ولأكله على الريق منفعة عجيبة . انتهى .

ومن فوائد الزيتون : المحافظة على صحة القلب والشرايين وذلك بتقليل نسبة الكولسترول الضار في الجسم ، ويعالج فقر الدم ويعالج الزهايمر لاحتوائه على مادة (البوليفينول) التي تعمل على تقليل الأكسدة في المخ وتحسين الذاكرة ، وهو مقوي للمناعة ، ويكافح الخلايا السرطانية ، ويبني خلايا الدم الحمراء لاحتوائه على عنصر الحديد ، ومفيد للعين فإنه يمنع تكون المياه الزرقاء ويفيد عدسة العين ، ويحافظ على صحة البشرة ونظارتها لاحتوائه على فيتامين هـ ، وإذا جمع التين مع الزيتون كان ذلك مفيداً في الحد من ظهور مظاهر وأعراض الشيخوخة المبكرة إذا تم تناولهما بكثرة في المراحل المبكرة من العمر وتناولهما جميعاً أيضاً يعطي الجسم القوة والطاقة والحيوية ويعالج الضعف الجنسي لدى الرجال ويقوي القلب وغير ذلك من الفوائد التي ذكرها أهل الطب .

وقد قيل إن الله جل وعلا أراد بالقسم بهاتين الفاكهتين منابتهما فإنهما ينبتان في أطراف المسجد الأقصى وهو محل رسالة عيسى عليه السلام .

﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ الجبل الذي كلم الله فيه موسى عليه السلام فهو محل رسالة موسى عليه السلام .

﴿ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾ مكة وهو البلد الذي أوحى الله فيه إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم

فكأن الله تعالى يقسم بالرسالات الثلاث رسالة عيسى ورسالة موسى ورسالة محمد عليهم الصلاة والسلام ، ولا يمنع أن يكون الله تعالى أراد بالقسم نفس الثمار والمحال ونفس الرسالات ، ولله جل وعلا أن يقسم بما شاء ، وليس للمخلوق أن يقسم إلا بالله تعالى قال النبي صلى الله عليه وسلم (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك) وقال (من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت)

وجواب القسم ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ منتصب القامة ، عالي الهامة ، سوي الأعضاء ، في أعدل خلقٍ وأحسن صورة ، حتى أصبح شاباً قوياً جلداً .

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ ثم ردَّ إلى أرذل العمر الهرم والضعف والخرف وهو قول الضحاك والكلبي ، وقيل ردَّ إلى النار وهو قول مجاهد وأبو العالية والحسن وابن زيد وقتادة ورجحه بن كثير للاستثناء بعده ، ورجح الطبري الأول لأنها نزلت لقومٍ ينكرون البعث والنار والآيات سيقت للتفكر فكيف يأمرهم بالتفكر في أمرٍ هم له منكرون ، وإنما أراد منهم التفكر في أمرٍ محسوسٍ مشاهدٍ لهم وهو الهرم والضعف بعد الشباب والقوة وكيف أن القادر على خلق بن آدم وتصريفه على هذه الأحوال في الدنيا قادر على بعثه في الآخرة يؤيد ذلك قوله ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴾ أي بيوم الجزاء .

ثم استثنى المؤمنين فقال ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ روي عن عكرمة رحمه الله أنه قال : من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر ثم قرأ هذه الآية . وروي عن بعض أهل الطب التأكيد على هذا وأن حافظ القرآن لا يصيبه الخرف إذا استمر على مراجعته دائماً . وقيل ليس هذا معنى الآية فإن الخرف يصيب المؤمن والكافر ولا فرق في هذا ، وليس كل المؤمنين يحفظون القرآن إن ثبت أن حافظ القرآن لا يصيبه الخرف والآية استثنت المؤمنين عامة وقالوا أن المراد أن أجرهم لا ينقطع ولو بلغوا مرحلة الخرف فإن أجرهم يمضى لهم على ما كانوا يعملونه قبل الخرف روي ذلك عن بن عباس والنخعي وقتادة وعن عكرمة أيضاً ولذلك قال ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي غير منقوص فأجرهم يجري عليهم بمثل ما كان يجري عليهم في صحتهم وشبابهم ، وقيل إنما استثنى المؤمنين من أهل النار فقوله ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ أي في النار ثم استثنى ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ فلهم الجنة يرزقون فيها بغير حساب .

﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴾ قيل الخطاب موجه للإنسان الذي يعرف قدرة الله في تصريف أحواله فهو مأمورٌ بالتفكر وأن الله القادر على تصريف أحواله في الدنيا قادرٌ على بعثه والتصرف فيه في الآخرة على ما يشاء فيجازيه بعمله ، لأن الدين من أسماء القيامة وهو بمعنى الجزاء والحساب .

وقيل الخطاب موجهٌ للنبي صلى الله عليه وسلم وأن ما بمعنى من والمعنى فمن يكذبك يا محمد بيوم الحساب بعد هذا البيان الذي أنزلناه إليك في أمر الإنسان وقدرتنا على تصريف أحواله

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ قضاءً بالحق وعدلاً بين الخلق ، وفي الآية الإشارة إلى البعث وأن من تمام عدل الله جل وعلا أن يبعث الناس فيقتص لبعضهم من بعض فينصف المظلوم ويجازي كلاً بعمله وقد روى أحمد وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من قرأ منكم ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾ فانتهى إلى آخرها ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ فليقل (بلى وأنا على ذلك من الشاهدين) ومن قرأ ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ فانتهى إلى ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْيِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ فليقل : بلى ، ومن قرأ ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ ﴾ فبلغ ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ فليقل : آمنا بالله) ضعفه الألباني وبن باز وغيرهما وروي عن بن عباس أنه كان يقول بعد ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ سبحانك اللهم وبلى . وروي عن قتادة أنه يقول بعد هذه الآية : بلى وأنا على ذلك من الشاهدين . ويقول بعد قوله تعالى ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْيِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ بلى ، وبعد قوله تعالى ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ آمنت بالله وبما أنزل ، ذكر ذلك بن جرير في تفسيره . قال الشيخ بن باز : جاء في حديث ضعيف أنه كان صلى الله عليه وسلم إذا قرأ ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ قال (بلى ، ونحن على ذلك من الشاهدين) وإذا قرأ ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ من آخر المرسلات قال (آمنت بالله ورسله)(آمنت بالله وبما أنزل) وإذا قرأ آخر القيامة ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْيِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ قال (سبحانك فبلى) ولكنه ضعيف إلا ما ورد في القيامة فهو ثابت . انتهى من فتاوى نور على الدرب . وروى أبو داود عن موسى بن أبي عائشة أنه قال : كان رجلٌ يصلي فوق بيته وكان إذا قرأ ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْيِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ قال : سبحانك فبلى . فسألوه عن ذلك فقال سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم . صححه الألباني وأظنه الذي عناه الشيخ بن باز وذلك لأن جهالة الصحابي لا تضر كما هو معلوم عند المحدثين .

وقال بن حجر عن حديث أبي هريرة رضي الله عنه : هذا حديث حسن يتقوى بكثرة طرقه ... وإطلاق الضعف على هذا الحديث متعقب فإنه قد جاء عن غير أبي هريرة فجاء من حديث البراء بن عازب أخرجه عنه بن مردويه ... ومن حديث جابر أخرجه ابن المنذر في تفسيره وابن أبي داود في كتاب الشريعة وابن مردويه ... ومن حديث بن عباس أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ قال (سبحان ربي الأعلى) ... ومن حديث صحابيٍ لم يسم أخرجه أبو داود عنه ... وورد مرسلاً عن قتادة أنه قال ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال إذا قرأ أحدكم فذكر الحديث في القيامة وسبح والتين مفرقاً أخرجه الطبري وغيره وسنده صحيح إن كان الذاكر له صحابياً وإلا فحسن لشواهده وأخرج عبد بن حميد أيضاً من طريق صالح أبي الخليل عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه ورجاله ثقات لكنه مرسل أو معضل ومع تعدد هذه الطرق يتضح أن إطلاق كون

هذا الحديث ضعيف ليس بمتجه) انتهى انظر شرح بن علان على الأذكار ص١٥٩ وما بعدها ومن أسباب ضعفه عند من ضعفه أن إسماعيل بن أمية رواه عن شيخٍ لم يسمه ومرةً عن أعرابي لم يسمه ومرةً قال رجل صدق ومرةً عن أبي اليسع ، وذكر أنه اختبره فقال الأعرابي يا ابن أخي أتظن أني لم أحفظه لقد حججت ستين حجة ما منها حجة إلا وأنا أعرف البعير الذي حججت عليه . لكن الحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي واستحب العمل به النووي وبن حجر .

من دروس سورة التين :

أولاً / فوائد التين والزيتون فإن الله تعالى لا يقسم بشيءٍ إلا لفضله وعظيم منزلته ، وقد ذكرنا بعض ما قاله أهل الاختصاص في ذلك ، ومما ذكروا أنهما مفيدان في تأخير الشيخوخة والخرف وقد ورد في السورة ذكر الشيخوخة والخرف عند من فسر قوله تعالى ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ بأنه الهرم والضعف والخرف وهو قول الضحاك والكلبي ورجحه الطبري فكأن الرب جل وعلا أراد أن يبين لنا فائدة التين والزيتون المقسم بهما في أول السورة .

ثانياً / أن الإنسان مخلوق في أحسن صورة فهو أجمل المخلوقات وقد روى القرطبي في تفسيره أن عيسى بن موسى الهاشمي كان يحب زوجته حباً شديداً فقال لها يوماً : أنت طالق ثلاثاً إن لم تكوني أحسن من القمر ، فنهضت واحتجبت عنه وقالت : طلقتني . وبات بليلة عظيمة ، فلما أصبح غدا إلى دار المنصور فأخبره الخبر وأظهر للمنصور جزعاً عظيماً فاستحضر الفقهاء واستفتاهم . فقال جميع من حضر: قد طلقت ، إلا رجلاً واحداً من أصحاب أبي حنيفة فإنه كان ساكتا. فقال له المنصور: ما لك لا تتكلم ؟ فقال له الرجل : بسم الله الرحمن الرحيم﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ يا أمير المؤمنين فالإنسان أحسن الأشياء ولا شيء أحسن منه . فقال المنصور لعيسى ابن موسى : الامر كما قال الرجل ، فأقبل على زوجتك . وأرسل أبو جعفر المنصور إلى زوجة الرجل : أن أطيعي زوجك ولا تعصيه ، فما طلقك . انتهى . وقد رويت هذه القصة مرةً عن مالك والشافعي ، ولا مانع من تكرار القصة . ومهما كان خلق الإنسان دميماً فإنه لا يرضى أن يحول إلى صورة غزال او طاووس أو وردةٍ أو غير ذلك من المخلوقات الجميلة لأنه يرى أن خلقه أفضل وأجمل منها وهو كذلك .

ثالثاً / أن الإنسان الكافر لما جحد ما أنعم الله به عليه من النعم الكثيرة ومنها خلقه الذي كان في أحسن تقويم وكفر بالله تعالى ، عاقبه الله جل وعلا في الآخرة فجعله أذل وأسفل المخلوقات كلها في النار بعد أن كان في الدنيا مفضلاً عليها بالعقل وحسن الخلق والتقويم ، وفي هذا تحذيرٌ للمؤمنين أيضاً وإن كانوا مستثنين من المرد إلى أسفل سافلين لكنه اشترط مع الإيمان العمل الصالح ، والعمل الصالح يشمل فعل الأوامر وترك النواهي فإن العبد لا يدري ما يختم له به إذا استمر على معصية الله تعالى ولم يخش من مغبة ما يعمل من السيئات ، وقد قال العارفون إن المعاصي بريد الكفر .

رابعاً / أن من تمام نعمة الله على عباده أن جعل هناك بعثاً بعد الموت وداراً أخرى يكون فيها الجزاء ، فكم في الدار الدنيا من شخصٍ قُتِلَ مظلوماً أو حبس أو عُذِّبَ أو أهين أو انتهك عرضه أو أكل ماله بغير حق ومات مقهوراً ولم يستطع الانتصار لنفسه لقوة الظالم وسلطانه ، فكان من تمام عدل الله ورحمته وحكمته أن يبعثهم جميعاً فينتصر للمظلوم ويقتص له ويأخذ بحقه

ويعاقب الظالم ، ولولا ذكر البعث والجزاء لكثر الظلم وانتشر الفساد غير أن مما يردع بعض الناس الخوف من ذلك اليوم وعلمهم أن القصاص أكيد والانتقام شديد وأن الله تعالى سيحكم بين الناس بالعدل وهو أحكم الحاكمين .

سورة العلق مكية وآياتها (١٩)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾ ﴾

تفسير سورة العلق

عن عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِي صلى الله عليه وسلم أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ : كَانَ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةَ فِي النَّوْمِ فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاَءُ فَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ يَتَحَنَّثُ فِيهِ وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِي أُولاَتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا حَتَّى فَجِئَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ اقْرَأْ. قَالَ (مَا أَنَا بِقَارِئٍ قَالَ فأخذني فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ اقْرَأْ. قَالَ قُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ قَالَ فأخذني فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ اقْرَأْ. فَقُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ فأخذني فغطى الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أرسلني . فَقَالَ ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ فَقَالَ (زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي) فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ ثُمَّ قَالَ لِخَدِيجَةَ (أَي خَدِيجَةُ مَا لِي) . وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ قَالَ (لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي) قَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ : كَلاَّ ، أَبْشِرْ فَوَ اللَّهِ لاَ يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ ، وَتَقْرِى الضَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ . متفق عليه

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾ . قيل المعنى : اقرأ ذاكراً ربك الذي خلق . أي ممجداً له . وقيل : اقرأ ما نزل عليك من القران مفتتحاً قراءتك لكل سورةٍ بذكر اسم الله تعالى أي بالبسملة ، وقيل : الباء بمعنى على أي : أقرأ على اسم الله تعالى أي بعون الله وتوفيقه وهو بمثابة الإعلان عن ابتداء الوحي ونزول القرآن عليك فإن هذه السورة هي أول سورةٍ نزلت من القران كما تقدم في الحديث المتفق عليه . وقوله ﴿ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ عام في كل المخلوقات ، ثم خصَّ الإنسان تشريفاً له لأن الرسول المنزل عليه الوحي منهم فقال ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ﴾ العلق جمع علقة وهي قطعة من دمٍ متخثر ، قيل سميت بذلك لأنها تعلق بما تمر

عليه . وقيل لأنها تعلق بالرحم . وذكر الله جل وعلا هذا ليبين كمال قدرته وكيف أنه خلق هذا الإنسان السوي القوي العاقل من قطعة دم ، وليشكر الإنسان ربه الذي سواه وعدَّل خلقه بعد أن كان علقةً مهينة .

﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ﴾ أي اذكر في قراءتك ربك الكريم فإن ربك هو ﴿ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴾ أي الكتابة والخط وتدوين العلوم . قال قتادة : القلم نعمة من الله عظيمة ، لولا القلم لم يقم دين ، ولم يصلح عيش . انتهى . فبالقلم حفظت الكتب السماوية والعلوم الأرضية فإن العلم صيدٌ والكتابة قيدٌ ولولا تقييده في الكتب بالقلم لضاع العلم واندرس . وقد قيل : أربعة أشياء خلقها الله بيده : العرش والقلم والجنة وآدم عليه السلام . ومما يدل على فضيلة القلم أن الله أقسم به في كتابه فقال ﴿ نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ﴿١﴾ ﴾ سورة القلم وبه سميت سورة من القران . وقد قيل أن أول ما خلق الله من المخلوقات القلم فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال لابنه : يا بني إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب . قال رب وماذا أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة . يا بني إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (من مات على غير هذا فليس مني) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٢٠١٨) لكن قد جاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء) فدل على أن العرش والماء قد خلقتا قبل القلم الذي كتبت به المقادير وعليه يكون معنى (أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب) أي حين خلق الله القلم قال له : اكتب .

ومن كرم الله جل وعلا أن ﴿ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴿٥﴾ ﴾ من العلوم التي تنفعه في دينه ودنياه ولم يكن يعلمها من قبل كقوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ من (٧٨) سورة النحل . فهذا من تعداد نعم الله وكرمه على عباده ليشكروه على نعمه وليخلصوا له العبادة وحده دون من سواه . ولكن أكثر الناس لم يشكروا الله على هذه النعم التي منحها إياهم ولذلك قال ﴿ كَلَّآ ﴾ أي حقاً ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ ﴾ من الطغيان وهو مجاوزة الحد وذلك بكفره واستكباره عن عبادة الله وطاعته ، وإنما كان طغيانه بسبب ﴿ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾ أي وجد نفسه استغنت ، قيل بالمال والثروة ، وقيل بالعشيرة والأنصار ، فظن أن ذلك يمنعه من الله . وقد تكرر في القران بيان إنكار الكافر لنعمة الله عليه كقوله تعالى ﴿ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ﴿٨٣﴾ ﴾ سورة الإسراء وقوله تعالى ﴿ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ﴿٥١﴾ ﴾ سورة فصلت ليدل على أن طبع الإنسان أن يجحد نعمة الله عليه إلا من وفقه الله من أهل الإيمان والطاعة والتقوى .

﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ﴿٨﴾ ﴾ أي بعد الموت ليحاسبهم ويعاقبهم على كفرهم وإنكارهم لنعمه عليهم ، وهذه الآية سيقت في مساق التهديد والوعيد الشديد ، والرجعى فعلى من الرجوع ، رجع يرجع رجوعاً ومرجعاً ورجعى .

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ ﴾ هذا الآيات وما بعدها نزلت في أبي جهل بن هشام وكان ينهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة عند الكعبة ويتهدده ، فقد روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال أبو جهل هل يعفر محمدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ ؟ قَالَ : فَقِيلَ نَعَمْ . فَقَالَ : وَاللاَّتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ أَوْ لأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَاب . قَالَ : فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ يُصَلِّى زَعَمَ لِيَطَأَ عَلَى رَقَبَتِهِ ، قَالَ : فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلاَّ وَهُوَ يَنْكِصُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَيَتَّقِى بِيَدَيْهِ ، قَالَ فَقِيلَ لَهُ : مَا لَكَ ؟ فَقَالَ : إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلاً وَأَجْنِحَةً . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم (لَوْ دَنَا مِنِّي لاَخْتَطَفَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا) وروى البخاري عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ أَبُو جَهْلٍ لَئِنْ رَأَيْتُ مُحَمَّدًا يُصَلِّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ لأَطَأَنَّ عَلَى عُنُقِهِ فَبَلَغَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ لَوْ فَعَلَهُ لأَخَذَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ .

﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ ﴾ أي النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي على الهدى ويأمر بالتقوى . والآيات للتعجب أي من كانت هذه حاله من اتباع الهدى والأمر بتقوى الله كيف ينهى عن هذا ؟ والأعجب أن الناهي قد كذَّب بالحق وأعرض عن الهدى وهو أبو جهل ولذلك قال عنه ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ ﴾ ثم هدده فقال ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ أي يراه ويرى صنيعه من توليه وإعراضه ونهيه عن عبادة الله وطاعته وإيذاءه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيعاقبه على ذلك ولذلك قال ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ﴾ عن إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ ﴾ السفع : الأخذ والجذب بشدة كقوله تعالى ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ ﴾ سورة الرحمن وقيل : السفع الضرب ، أي لنلطمن وجهه . وقيل : لنسودن وجهه ، والسفعة سوادٌ في الخدين . وقيل لنحرقنه بالنار . قال الخليل : تقول للشيء إذا لفحته النار لفحاً يسيراً يغير لون البشرة قد سفعته النار . ولا تضاد بين الأقوال .

﴿ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ وصفت الناصية والمراد صاحبها بأنها ﴿ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ كاذبة في أقوالها خاطئة في أفعالها ، وقد يوجه الخطاب إلى صفةٍ في ذات والمراد الذات نفسها كقولهم (يدٌ سارقة) والسارق صاحبها وقال تعالى ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ سورة القيامة فأسند النظر إلى الوجوه والمراد أصحابها . وقال تعالى ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ سورة الرحمن أي تبقى ذات ربك . وقال تعالى ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ من (١٠) سورة الحج أي بما قدمت ذاتك .

وقال بعض أهل الإعجاز العلمي : بل المراد الناصية نفسها لأن الناصية وهي مقدم الرأس فيها موقع جهاز التحكم في المخ وتوجيه السلوك فهي مركز القيادة والتوجيه في الإنسان فإذا أراد الإنسان أن يكذب أو يرتكب خطيئةً فإن القرار يُتَّخَذُ في الناصية ولذلك استحقت أن توصف بأنها كاذبة خاطئة ذكر ذلك الشيخ عبد المجيد الزنداني وذكر أنه استفاد ذلك من البروفسور محمد يوسف والبروفسور كيث إل مور وهو عالمٌ كَنَدِي ، قال الزنداني : عندما قدَّم البروفسور كيث إل مور البحث المشترك بيني وبينه حول الإعجاز العلمي في الناصية في مؤتمر دولي عقد في القاهرة لم يكتف بالحديث عن وظيفة الفص الجبهي في المخ (الناصية) عند الإنسان بل تطرق إلى بيان وظيفة الناصية في مخاخ الحيوانات المختلفة وقدم صوراً للفصوص الجبهية في عددٍ من الحيوانات قائلاً إن دراسة التشريح المقارن لمخاخ الإنسان والحيوان تدل على تشابه في وظيفة الناصية فالناصية هي مركز

القيادة والتوجيه عند الإنسان وكذلك عند كل الحيوانات ذوات المخ فلفت قوله ذلك انتباهي إلى قوله تعالى ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ من (٥٦) سورة هود وتذكرت أيضاً بعض أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم في الناصية كقوله (اللهم إني عبدك وابن عبدك ناصيتي بيدك ...) وكقوله (أعوذ بك من شر كل شيءٍ أنت آخذٌ بناصيته) وكقوله (الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة) فإذا جمعنا معاني هذه النصوص نستنتج أن الناصية هي مركز القيادة والتوجيه لسلوك الإنسان وكذا سلوك الحيوان . انتهى .

والخاطئ من الخطيئة التي يعاقب عليها وليست من الخطأ الذي يعفى عنه كما قال تعالى ﴿ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ سورة الحاقة وهذا هو الفرق بين الخاطئ والمخطئ ، فالأول متعمدٌ آثمٌ معاقب ، والثاني غير متعمدٍ ولا آثمٍ بل معفو عنه .

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ ﴾ روى بن جرير عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي عِنْدَ الْمَقَامِ فَمَرَّ بِهِ أَبُو جَهْلِ بْنُ هِشَامٍ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ هَذَا ؟ وَتَوَعَّدَهُ ، فَأَغْلَظَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَانْتَهَرَهُ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ بِأَيِّ شَيْءٍ تُهَدِّدُنِي ؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لأَكْثَرُ هَذَا الْوَادِي نَادِيًا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لَوْ دَعَا نَادِيَهُ ، أَخَذَتْهُ زَبَانِيَةُ الْعَذَابِ مِنْ سَاعَتِهِ . انتهى . ومراده الملائكة وهو قول مجاهد وقتادة والضحاك . وقال قتادة : الزَّبَانِيَةُ فِي كَلاَمِ الْعَرَبِ الشُّرَطُ .

فقوله تعالى ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾ أي أهل ناديه كقوله تعالى ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ من (٨٢) سورة يوسف أي اسأل أهل القرية وأهل العير . والنادي هو المجلس الذي ينتدي فيه القوم ، أي يجتمعون . والمعنى : فليدع أبو جهلٍ أهل مجلسه من أنصاره وقومه لينصروه على النبي صلى الله عليه وسلم قال الله جل وعلا ﴿ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ ﴾ أي الملائكة لينصروا النبي صلى الله عليه وسلم وشتان بين الفريقين فإن الملائكة أكثر وأقوى وأعظم خلقةً وقدرة وقد ذكر القرطبي أنه قد قيل : أن الزبانية أعظم الملائكة خَلْقاً وأشدهم بطشاً ، والعرب تطلق هذا الاسم على من أشتد بطشه . قال الشاعر :

مطاعيم في القصوى مطاعين في الوغى زبانيةٌ غلبٌ عظامٌ حلومها

﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾ أي لا تطعه وتترك السجود والصلاة بل تقرب إلى الله بالصلاة والسجود والطاعة قال النبي صلى الله عليه وسلم (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء) رواه مسلم

وقال زيد بن أسلم : أي اسجد أنت يا محمد ، واقترب أنت يا أبا جهل يتوعده .

يعني حتى ترى ما نصنع بك من العذاب ، وأدرك أبو جهلٍ خطورة ما صنع فلم يعد إلى نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة عند الكعبة ولو فعل لأهلكه الله ولكنه كان يعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم صادق وأنه مرسلٌ من عند الله ولكن منعه من اتباعه الكبر والحسد فجحد ما أقرَّ به في نفسه كما قال تعالى ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ

ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ سورة الأنعام وقد ذكر بن كثير في تفسيره والبيهقي في دلائل النبوة عن ابن إسحاق قال حَدَّثَنَا الزهري قال : حُدِّثْتُ أن أبا جهل وأبا سفيان والأخنس بن شريق خرجوا ليلةً ليسمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي بالليل في بيته وأخذ كل رجلٍ منهم مجلساً ليستمع فيه وكلٌ لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا أصبحوا أو طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض : لا تعودن لو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً . ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجلٍ منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا ، فلما كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فقالوا : لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود . فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا ، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاً ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال حدثني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد فقال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وأشياء ما أعرف معناها ولا ما يراد بها . فقال الأخنس : وأنا والذي حلفت له به . ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهلٍ فدخل عليه بيته فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد فقال : ماذا سمعت تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبيٌ يأتيه الوحي من السماء فمتى تدرك هذه ، والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه ، فقام عنه الأخنس بن شريق .

من دروس سورة العلق :

أولاً / فضل القراءة والعلم والتعلم فإن هذه السورة هي أول سورةٍ أنزلت على النبي صلى الله عليه وسلم وأول كلمةٍ فيها هي ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ للحث على القراءة والاطلاع فقال ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾ أي اقرأ واطلب العلم مستعيناً بالله تعالى طالباً العون والتوفيق والبركة منه جل وعلا . ثم كررها فقال ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ﴾ ليدل على فضل القراءة والعلم وأن الله الكريم يكرم عباده بهذه النعمة ، ولذلك امتدح نفسه جل وعلا بتعليم الناس مالم يعلموا فقال ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴿٥﴾ ﴾ ليعلموا أن العلم ذو منزلةٍ علية ينبغي السعي إليها ثم شكر الله جل وعلا على هذه النعمة والمزية التي أعطيها الإنسان ، فإن العلم نعمة عظيمة توجب الشكر للمنعم جل وعلا عليها . وقد اثنى الله جل وعلا على أهل العلم في مواضع كثيرة من كتابه كما قال تعالى ﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ من (٩) سورة الزمر وقال تعالى ﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ ﴾ من (١١) سورة المجادلة وقال تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ من (٢٨) سورة فاطر وقال صلى الله عليه وسلم (من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة) رواه مسلم وقال صلى الله عليه وسلم (فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم ، إن الله عز وجل وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير) رواه الترمذي وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٤٢١٣) وقال صلى الله عليه وسلم (من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم ، وإن العالم يستغفر له من في السموات ومن

في الأرض والحيتان في جوف الماء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظٍ وافر) رواه أحمد والترمذي وأبو داود وابن ماجه والدارمي وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح

ثانياً / أن من طبع الإنسان الطغيان عند الغنى ، وقد قيل أنه إذا ذكر الإنسان في القران فالمراد به الإنسان الكافر ، ولكن قد يدخل في المعنى بعض المؤمنين ويكون طغيانهم بارتكاب الكبائر ، وأولئك طغيانهم بالكفر والشرك .

ثالثاً / شدة عداوة الكفار للمؤمنين ، وأنه مهما كان المؤمن كريم الأخلاق يحسن إليهم ويرجو لهم الخير إلا أنهم يعاملونه بنقيض ما يعاملهم به ، ويريدون به الشر ، ويكيدون له المكائد ، فلا يجوز موالاتهم ولا محبتهم ولا تقريبهم ، ومهما أظهروا من حسن الأخلاق وإرادة الخير بالمؤمن فهو خلاف ما يضمرونه في صدورهم وقد بين الله ذلك فقال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ سورة آل عمران

رابعاً / أن الله تعالى ينصر أولياءه ويدافع عنهم كما قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ سورة الحج فمهما حصل للمؤمن من النكبات والمصائب والهزائم فلا يجزع فإن ذلك بتقدير الله لحكمةٍ يعلمها جل وعلا ، ولا ييأس من نصر الله فإن نصر الله قريب كما قال تعالى ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ سورة البقرة ولو انكشف الغيب للمؤمن لعلم أن ما يفعله الله به كان في صالحه وسيدرك ذلك في الآخرة ، وقد يطلع الله بعض العباد على بعض هذه المصالح في الدنيا .

سورة القدر مكية وآياتها (٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾

تفسير سورة القدر

وقد سميت ليلة القدر لعظيم مكانتها ولجلالة قدرها عند الله تعالى ، وقيل لأنها تقدر فيها الأشياء والأمور التي ستكون في السنة كما قال تعالى ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ آية(٤) سورة الدخان وقيل لأن الأرض تضيق بالملائكة لكثرتهم فيها في تلك الليلة كما قال تعالى ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه) متفق عليه فقوله (إيماناً) أي تصديقاً بالله وبمشروعية قيام هذه الليلة وبما أعده الله من الثوابِ للقائمينَ فيهَا وقوله (احتساباً) أي للأجرِ لا رياءً ولا سمعة.

وقد اختلفوا في تعيينها فقال بن مسعود : من يقم الحول يصب ليلة القدر .

وقيل هي في العشر الأواخر فعَنْ عَائِشَةَ رضى الله عنها قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم (تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ) متفق عليه

وقيل أنها في الوتر من العشر الأواخر فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إني أريت ليلة القدر وإني نسيتها أو أنسيتها فالتمسوها في العشر الأواخر من كل وتر) متفق عليه وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ (تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْوِتْرِ مِنَ الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ) رواه البخاري

وقيل أنها في الأشفاع منها فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ (الْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي تَاسِعَةٍ تَبْقَى فِي سَابِعَةٍ تَبْقَى فِي خَامِسَةٍ تَبْقَى) رواه البخاري وعن أبي بكرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (التمسوها في العشر الأواخر في تسعٍ تبقين أو سبعٍ تبقين أو خمسٍ تبقين أو ثلاثٍ تبقين أو آخر ليلة) رواه أحمد والترمذي والحاكم وغيرهم وصححه الألباني انظر حديث رقم (١٢٤٣) في صحيح الجامع . وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ خَرَجَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم لِيُخْبِرَنَا بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ فَتَلاَحَى رَجُلاَنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ (خَرَجْتُ لأُخْبِرَكُمْ بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ فَتَلاَحَى فُلاَنٌ وَفُلاَنٌ فَرُفِعَتْ وَعَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكُمْ فَالْتَمِسُوهَا فِي التَّاسِعَةِ وَالسَّابِعَةِ وَالْخَامِسَةِ) رواه البخاري وعَنْ أَبِي نَضْرَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِي رضى الله عنه قَالَ : اعْتَكَفَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم الْعَشْرَ الأَوْسَطَ مِنْ رَمَضَانَ يَلْتَمِسُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ قَبْلَ أَنْ تُبَانَ لَهُ فَلَمَّا

انْقَضَيْنَ أَمَرَ بِالْبِنَاءِ فَقُوِّضَ ، ثُمَّ أُبِينَتْ لَهُ أَنَّهَا فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ فَأَمَرَ بِالْبِنَاءِ فَأُعِيدَ ثُمَّ خَرَجَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهَا كَانَتْ أُبِينَتْ لِي لَيْلَةُ الْقَدْرِ وَإِنِّي خَرَجْتُ لأُخْبِرَكُمْ بِهَا فَجَاءَ رَجُلاَنِ يَحْتَقَّانِ مَعَهُمَا الشَّيْطَانُ فَنُسِّيتُهَا فَالْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ الْتَمِسُوهَا فِي التَّاسِعَةِ وَالسَّابِعَةِ وَالْخَامِسَةِ) قَالَ : قُلْتُ يَا أَبَا سَعِيدٍ إِنَّكُمْ أَعْلَمُ بِالْعَدَدِ مِنَّا. قَالَ : أَجَلْ نَحْنُ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْكُمْ . قَالَ : قُلْتُ مَا التَّاسِعَةُ وَالسَّابِعَةُ وَالْخَامِسَةُ ؟ قَالَ : إِذَا مَضَتْ وَاحِدَةٌ وَعِشْرُونَ فَالَّتِي تَلِيهَا ثِنْتَيْنِ وَعِشْرِينَ وَهْيَ التَّاسِعَةُ ، فَإِذَا مَضَتْ ثَلاَثٌ وَعِشْرُونَ فَالَّتِي تَلِيهَا السَّابِعَةُ ، فَإِذَا مَضَى خَمْسٌ وَعِشْرُونَ فَالَّتِي تَلِيهَا الْخَامِسَةُ . وَقَالَ ابْنُ خَلاَّدٍ مَكَانَ يَحْتَقَّانِ يَخْتَصِمَانِ . رواه مسلم

وقيل هي في السبع الأواخر فعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رِجَالاً مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أُرُوا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْمَنَامِ فِي السَّبْعِ الأَوَاخِرِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم (أَرَى رُؤْيَاكُمْ قَدْ تَوَاطَأَتْ فِي السَّبْعِ الأَوَاخِرِ فَمَنْ كَانَ مُتَحَرِّيَهَا فَلْيَتَحَرَّهَا فِي السَّبْعِ الأَوَاخِرِ) متفق عليه وعنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم (الْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ – يَعْنِى لَيْلَةَ الْقَدْرِ – فَإِنْ ضَعُفَ أَحَدُكُمْ أَوْ عَجَزَ فَلاَ يُغْلَبَنَّ عَلَى السَّبْعِ الْبَوَاقِي) . رواه مسلم

وقيل هي ليلة سبع وعشرين فعن زر بن حبيش قال : سألت أبي بن كعب فقلت إن أخاك ابن مسعودٍ يقول : من يقم الحول يصب ليلة القدر . فقال : رحمه الله أراد ألا يتكل الناس ، أما أنه قد علم أنها في رمضان ، وأنها في العشر الأواخر ، وأنها ليلة سبعٍ وعشرين ، ثم حلف لا يستثني أنها ليلة سبعٍ وعشرين ، فقلت : بأي شيءٍ تقول ذلك يا أبا المنذر؟ قال : بالعلامة أو بالآية التي أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها تطلع يومئذٍ لا شعاع لها . رواه مسلم

وقيل هي ليلة ثلاث وعشرين فعَنْ بُسْرِ بْنِ سَعِيدٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُنَيْسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ (أُرِيتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ ثُمَّ أُنْسِيتُهَا وَأَرَانِي صُبْحَهَا أَسْجُدُ فِي مَاءٍ وَطِينٍ) قَالَ فَمُطِرْنَا لَيْلَةَ ثَلاَثٍ وَعِشْرِينَ فَصَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَانْصَرَفَ وَإِنَّ أَثَرَ الْمَاءِ وَالطِّينِ عَلَى جَبْهَتِهِ وَأَنْفِهِ . قَالَ : وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُنَيْسٍ يَقُولُ ثَلاَثٍ وَعِشْرِينَ . رواه مسلم

وقيل هي ليلة إحدى وعشرين فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَعْتَكِفُ فِي الْعَشْرِ الأَوْسَطِ مِنْ رَمَضَانَ فَاعْتَكَفَ عَامًا حَتَّى إِذَا كَانَ لَيْلَةَ إِحْدَى وَعِشْرِينَ وَهِيَ اللَّيْلَةُ الَّتِي يَخْرُجُ مِنْ صَبِيحَتِهَا مِنِ اعْتِكَافِهِ قَالَ (مَنْ كَانَ اعْتَكَفَ مَعِي فَلْيَعْتَكِفِ الْعَشْرَ الأَوَاخِرَ وَقَدْ أُرِيتُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ ثُمَّ أُنْسِيتُهَا وَقَدْ رَأَيْتُنِي أَسْجُدُ فِي مَاءٍ وَطِينٍ مِنْ صَبِيحَتِهَا فَالْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ وَالْتَمِسُوهَا فِي كُلِّ وِتْرٍ) فَمَطَرَتِ السَّمَاءُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ ، وَكَانَ الْمَسْجِدُ عَلَى عَرِيشٍ فَوَكَفَ الْمَسْجِدُ فَبَصُرَتْ عَيْنَايَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى جَبْهَتِهِ أَثَرُ الْمَاءِ وَالطِّينِ مِنْ صُبْحِ إِحْدَى وَعِشْرِينَ . متفق عليه

وقيل أنها تتنقل في العشر في كل عام في ليلة مختلفة فقد روي عن أبي قلابة رضي الله عنه أنه قال : ليلة القدر تجول في ليالي العشر كلها. ذكره في التهذيب .

وهو الراجح أنها تتنقل من عامٍ لآخر فتكونُ في عامٍ ليلةَ سبع وعشرينَ مثلاً وفي عامٍ آخرَ ليلة خمسٍ وعشرينَ وفي آخر أربعاً وعشرين أو ستٍ وعشرين وهكذا . وأما قول النبي صلى الله عليه وسلم (أرَى رُؤياكُمْ قد تواطأت في السبعِ الأواخرِ فمن كانَ

مُتَحرِّيَها فَلْيتحَرَّها في السبعِ الأواخرِ) متفق عليه . وقول أبيّ بن كعب رضي الله عنه (والله لأعلم أيُّ ليلةٍ هي الليلةُ التي أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم بقيامِها هي ليلةُ سبعٍ وعشرينَ) رواه مسلم . وإخبار أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنها ليلة إحدى وعشرين . متفق عليه . وإخبار عبد الله بن أنيس أنها ليلة ثلاث وعشرين . رواه مسلم . فهذه وقتية أي في تلك السنة ففي سنةٍ كانت في السبع الأواخر ، وفي سنة كانت في إحدى وعشرين وهي قبل السبع الأواخر مما يدل على أن التحديد بالسبع الأواخر ليس دائماً بل هو وقتي في تلك السنة ، وكذلك تحديدها بليلة سبعٍ وعشرين هو في تلك السنة ولعل أبيَّاً رضي الله عنه ظنَّ أنها دائماً باجتهاده لكن مع اختلاف الروايات وخلاف غيره من الصحابة في التحديد تبين أن اجتهاده في التحديد خاطئ وأن الراجح التنقل كما تقدم .

وقيل إن الأقوال فيها بلغت أربعين قولاً وهذا من حكمة المولى جل وعلا مبالغةً في الإخفاء رحمةً بالعباد ليكثر عملهم في تلك الليالي كلها فيزدادُوا قرباً من الله وثواباً .

وللليلة القدر علاماتٌ خاصة قد تظهر لبعض العباد كما رأى النَبيُّ صلى الله عليه وسلّم أن علامتَها أنه يسجُدُ في صبيحتِها في ماءٍ وطينٍ فنزل المطرُ في تلك الليلةِ فسجد في صلاةِ الصبحِ في ماءٍ وطينٍ . قال أبو سعيد : مطرنا ليلة إحدى وعشرين فوكف المسجد في مصلى رسول الله فنظرت إليه وقد انصرف من صلاة الصبح ووجهه مبتلٌ ماءً وطيناً . متفق عليه

ولها علاماتٌ عامة منها ما جاء عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أن من علاماتها أن الشمس تطلع صبيحتها لا شعاع لها . رواه مسلم ومنها ما جاء عن بن عباسٍ رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ليلة القدر طلقةٌ لا حارة ولا باردة) رواه البيهقي والطيالسي وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٥٤٧٥) ومنها ما جاء عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (ليلة القدر بلجة ، لا حارة ولا باردة ، لا يرمى فيها بنجم) رواه الطبراني وحسنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٥٤٧٢) ومعنى بلجة أي مضيئة .

فهذه أربع علامات :

الأولى : أن الشمس تطلع صبيحتها لا شعاع لها .

والثانية : أنها طلقة لا حارة ولا باردة .

والثالثة : أنها مضيئة كأن فيها قمراً ساطعاً كما جاء في بعض الروايات .

والرابعة : أنها لا يرمى فيها بنجم لأن الشياطين قد فروا حين تنزلت الملائكة في تلك الليلة .

ويستحب أن يستغل تلك الليلة بالأعمال الصالحة من نوافل العبادات بعد الفرائض كالقيام والصدقة والصلة وذكر الله والدعاء فعن عائشة قالت : قلت يا رسول الله : إن وافقت ليلة القدر فما أقول قال : قولي اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني .

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ ﴾ أي القران أي أول ليلةٍ نزل فيها القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم وهو بغار حراء كان في ليلة القدر . قال الشعبي : نَزَلَ أَوَّلُ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ. ذكره الطبري .

وقيل : أراد أنه أنزل من اللوح المحفوظ في السماء العليا إلى السماء الدنيا في ليلة القدر فقد روى بن جرير عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ : أَنْزَلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ فَكَانَ اللَّهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُوحِيَ مِنْهُ شَيْئًا أَوْحَاهُ. وفي رواية : قَالَ : أُنْزِلَ الْقُرْآنُ كُلُّهُ جُمْلَةً وَاحِدَةً فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ فِي رَمَضَانَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَكَانَ اللَّهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُحَدِّثَ فِي الأَرْضِ شَيْئًا أَنْزَلَهُ مِنْهُ حَتَّى جَمَعَهُ. .. وقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ : كَانَ يَنْزِلُ مِنَ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ كُلُّ شَيْءٍ يَنْزِلُ مِنَ الْقُرْآنِ فِي تِلْكَ السَّنَةِ ، فيتَنَزَّلَ ذَلِكَ مِنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ عَلَى جِبْرِيلَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَلاَ يَنْزِلُ جِبْرِيلُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى مُحَمَّدٍ إِلاَّ مَا أَمَرَهُ بِهِ رَبُّهُ . انتهى . وقد ذكره في تفسير آية رمضان . وما كان جبريل عليه السلام يأخذ القران من الكتاب المنزل في السماء الدنيا وإنما يتلقاه عن ربه مباشرة ، وإنما أنزله الله إلى السماء الدنيا ليطلع عليه أهل السماء فيعلموا أن الله جل وعلا يعلم ما سيحدث في الأرض قبل حدوثه فيزداد تعظيمهم لله جل وعلا ويزداد يقينهم بعلم الله وحكمته .

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ ﴾ للتفخيم والتعظيم أي ما أعلمك ما شأنها وشرفها وعلو منزلتها ؟. قال البخاري : قال ابن عيينة ما كان في القران ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ ﴾ فَقَدْ أَعْلَمَهُ ، وما قال ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ فَإِنَّهُ لَمْ يُعْلِمْه .

﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ ﴾ أي العبادة فيها خيرٌ من العبادة في ألف شهرٍ سواها أي ثلاثاً وثمانين سنة وأربعة أشهر وقد كان أعمار الأمم السابقة تبلغ الألف عامٍ وأكثر فعوضت هذه الأمة بهذه الليلة ليدركوا عمل أولئك ويزيدوا عليهم وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾ تتنزل الملائكة والروح إلى الأرض فيحصل بنزولهم إلى الأرض الخير والبركة وتفر الشياطين . والروح هو جبريل عليه السلام كما قال تعالى ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ سورة الشعراء وقيل الروح الرحمة كما قال تعالى ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ من (٢) سورة النحل أي بالوحي الذي هو رحمة على أهل الأرض.

وقوله ﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ ﴾ أي أَمَرَ اللهُ الملائكةَ بإيصال الخير والسلامة للناس ، فلا يُقَدَّرُ في تلك الليلة شر كما قال تعالى ﴿ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾ قال قتادة : من كل أمرٍ سلام . وقال : هِيَ خَيْرٌ كُلُّهَا إِلَى مَطْلَعِ الْفَجْرِ. وقال الحسن : إذا كان ليلة القدر لم تزل الملائكة تخفق بأجنحتها بالسلام من الله والرحمة من لدن صلاة المغرب إلى طلوع الفجر. وقال بن زيد: لَيْسَ فِيهَا شَر هِيَ خَيْرٌ كُلُّهَا . وعن مجاهد قال : سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءا أو يعمل فيها أذى . وقال الضحاك : لا يقدر الله في تلك الليلة إلا السلامة ، وفي سائر الليالي يقضي بالبلايا والسلامة . وقال الفراء : لا يقدر الله في ليلة القدر إلا السعادة والنعم ، ويقدر في غيرها البلايا والنقم . وقال السعدي : أي : سالمة من كل آفةٍ وشر .

وقيل المراد أن الملائكة يسلمون على الناس عند نزولهم إلى الأرض ، قال منصور بن زاذان : الملائكة يمرون على كل مؤمنٍ يقولون : السلام عليك يا مؤمن . وقال الشعبي : هو تسليم الملائكة على أهل المساجد من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر يمرون على كل مؤمنٍ ويقولون : السلام عليك أيها المؤمن . وقال عطاء: يريد: سلامٌ على أولياء الله وأهل طاعته . وقال الكلبي : الملائكة ينزلون فيه كلما لقوا مؤمنًا أو مؤمنة سلَّموا عليه من ربه حتى يطلع الفجر.

وقيل في قوله تعالى﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ ﴾ أي مقادير السنة تتنزل الملائكة وجبريل بها بإذن الله في تلك الليلة كما قال تعالى ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ آية(٤) سورة الدخان قال قتادة : يُقْضَى فِيهَا مَا يَكُونُ فِي السَّنَةِ إِلَى مِثْلِهَا . ورجحه الطبري وقال القرطبي : بكل أمرٍ قدره الله وقضاه في تلك السنة إلى قابل ، قاله ابن عباس . انتهى .

قال الطبري : وَاخْتَلَفَتِ الْقُرَّاءُ فِي قِرَاءَةِ قَوْلِهِ ﴿ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ فَقَرَأَتْ ذَلِكَ عَامَّةُ قُرَّاءِ الأَمْصَارِ ، سِوَى يَحْيَى بْنِ وَثَّابٍ وَالأَعْمَشِ وَالْكِسَائِيِّ ﴿مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ بِفَتْحِ اللاَّمِ ، بِمَعْنَى : حَتَّى طُلُوعِ الْفَجْرِ ، تَقُولُ الْعَرَبُ : طَلَعَتِ الشَّمْسُ طُلُوعًا وَمَطْلَعًا وَقَرَأَ ذَلِكَ يَحْيَى بْنُ وَثَّابٍ وَالأَعْمَشُ وَالْكِسَائِيُّ (حَتَّى مَطْلِعِ الْفَجْرِ) بِكَسْرِ اللاَّمِ ، تَوْجِيهًا مِنْهُمْ ذَلِكَ إِلَى الاِكْتِفَاءِ بِالاِسْمِ مِنَ الْمَصْدَرِ ، وَهُمْ يَنْوُونَ بِذَلِكَ الْمَصْدَرَ. وَالصَّوَابُ مِنَ الْقِرَاءَةِ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا : فَتْحُ اللاَّمِ لِصِحَّةِ مَعْنَاهُ فِي الْعَرَبِيَّةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَطْلَعَ بِالْفَتْحِ هُوَ الطُّلُوعُ ، وَالْمَطْلِعُ بِالْكَسْرِ : هُوَ الْمَوْضِعُ الَّذِي تَطْلُعُ مِنْهُ ، وَلاَ مَعْنَى لِلْمَوْضِعِ الَّذِي تَطْلُعُ مِنْهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ . انتهى .

من دروس سورة القدر :

أولاً / فضل هذه الليلة وعظيم منزلتها عند الله تعالى حتى أنزل فيها سورةً كاملة تتلى إلى يوم القيامة ، وذكر من فضائلها أنها الليلة التي أنزل فيها القران ، وأنها خيرٌ من ألف شهر ، وأن الملائكة تتنزل فيها ، وأنها سلامٌ وخير حتى مطلع الفجر .

ثانياً / أن الممدوح حقاً هو من مدحه الله عز وجل لا من مدحه الناس ، والمذموم حقاً هو من ذمه الله لا من ذمه الناس . وقد ورد عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : قام رجلٌ فقال يا رسول الله إن حمدي زين وإن ذمي شين . فقال النبي صلى الله عليه و سلم (ذاك الله عز وجل) رواه الترمذي وغيره وصححه الألباني وذلك لأن من مدحه الله عز وجل فهو مع ما هو فيه من المنزلة والفضل العظيم سيبقى الثناء عليه إلى يوم القيامة وفي الدار الآخرة ، ومن ذمه الله جل وعلا فهو مع ما هو فيه من الشر سيبقى ذَمُّهُ إلى يوم القيامة وفي الدار الآخرة ، وانظر إلى أبي لهبٍ مع ما كان فيه من المذمة في حياته كم ترى من الخلائق يذمونه إلى قيام الساعة وفي الدار الآخرة سيصلى ناراً حامية ، وانظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كم هو ممدوحٌ في الدنيا والآخرة .

ثالثاً / أن الله تعالى يصطفي ما يشاء من مخلوقاته ، فاصطفى جبريل عليه السلام وفضَّله على الملائكة ، واصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم وفضَّله على البشر ، واصطفى ليلة القدر ففضلها على الليالي ، واصطفى يوم النحر وعرفة ففضلهما على الأيام ،

وذلك لحكمٍ يعلمها جل وعلا وهو العليم الخبير ولذلك لما قال المشركون ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ قال تعالى ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ سورة الزخرف وقال تعالى ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ سورة الأنعام فهو الذي قسم وهو الذي أرسل وهو أعلم بالقسمة وهو أعلم بمن يصلح للرسالة وهو أعلم بالملائكة وهو أعلم بالليالي والأيام وهو أعلم بخلقه جميعاً وهو أعلم بمن يصلح للرفعة ومن يصلح للوضع .

رابعاً / فضل الملائكة وأنهم يتنزلون بالخير والبركة من الله على أهل الأرض من المؤمنين ، وقد امتدحهم الله جل وعلا في كتابه في مواضع كثيرة كما قال تعالى ﴿ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ سورة عبس وقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ سورة التحريم وقال تعالى ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ سورة الأنبياء وقال تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ سورة غافر فيجب الإيمان بهم ، والثناء عليهم كما اثنى الله عليهم ، ومحبتهم ، وتوقيرهم ، والبعد عن ما يؤذيهم من الصور والمحرمات . فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : حَشَوْتُ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وِسَادَةً فِيهَا تَمَاثِيلُ كَأَنَّهَا نُمْرُقَةٌ فَجَاءَ فَقَامَ بَيْنَ الْبَابَيْنِ ، وَجَعَلَ يَتَغَيَّرُ وَجْهُهُ ، فَقُلْتُ : مَا لَنَا يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ (مَا بَالُ هَذِهِ الْوِسَادَةِ) قَالَتْ : وِسَادَةٌ جَعَلْتُهَا لَكَ لِتَضْطَجِعَ عَلَيْهَا . قَالَ (أَمَا عَلِمْتِ أَنَّ الْمَلاَئِكَةَ لاَ تَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ صُورَةٌ ، وَأَنَّ مَنْ صَنَعَ الصُّورَةَ يُعَذَّبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ) رواه البخاري وعن بن عباسٍ عن أبي طلحة رضي الله عنهم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلبٌ ولا صورة) رواه مسلم ورواه البخاري بلفظ (لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة تماثيل) وعن زيد بن خالد الجهني عن أبي طلحة الأنصاري قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلبٌ ولا تماثيل) رواه مسلم . والمكان الذي لا تدخله الملائكة حريٌ أن تدخله الشياطين.

سورة البينة مكية وآياتها ثمان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾

تفسير سورة البينة

يخبر تعالى أن الكفار سواءً كانوا من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى أو المشركين وهم عبدة الأوثان من الأحجار والأشجار والكواكب والموتى وغير ذلك ، وفي هذا رد على من زعم أنه لا يجوز أن يقال عن اليهود والنصارى أنهم كفار ويقول لأنهم أهل ديانةٍ سماوية واتباع أنبياء وهذا باطل ، فقد كانوا أهل ديانة سماوية واتباع أنبياء لكنهم انحرفوا عن دينهم وعن اتّباعِ نبيهم وغيروا دينهم وحرفوا كتبهم وابتعدوا عن الحق وضلوا وأضلوا كثيرا .

﴿ مُنفَكِّينَ ﴾ أي تاركين لما هم عليه من الكفر والشرك ﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ أي الدليل الذي يدلهم على الحق ويبينه لهم . وهذه البينة هي ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ رسولٌ أرسله الله جل وعلا إليهم وإلى الناس كآفة ، وهو محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي خاتم المرسلين وإمام المتقين وقدوة الناس أجمعين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيرا ، ومهمة هذا الرسول الكريم أن يبين لهم الحق وذلك بأن ﴿ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ ﴾ يتلوا عليهم القرآن الذي هو مكتب في الملأ الأعلى في صحفٍ مطهرة كما قال تعالى ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ سورة عبس وقال تعالى ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ سورة الواقعة والصحف جمع صحيفة وهي ما يكتب عليها كالألواح والورق ونحو ذلك ، وهذه الصحف مطهرة أي نزيهة من كل باطل وزور ومصونة عن كل شرك أو ضلال أو خطأ في العقائد والعبادات والمعاملات كما قال تعالى ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾

وهذه الصحف المطهرة التي هي القران ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ ﴾ فيها مكتوبات ورسائل قيمة أي مستقيمة لا عوج فيها ولا اضطراب ، ذات قيمةٍ عالية ، ففيها التوحيد والعقائد ، وفيها الأحكام والشرائع ، وفيها القصص والأخبار ، وفيها الآداب والمعاملات ، وفيها الطب والفلك ، وفيها سائر العلوم الدنيوية والأخروية كما قال تعالى ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ سورة الأنعام من آية (٣٨) وقال تعالى ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ سورة النحل من آية (٨٩)

وقيل﴿ كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ أي أحكام مستقيمة لأن كَتَبَ تأتي بمعنى حَكَمَ كقوله تعالى ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾أي حكم .

قال السعدي ﴿ فِيهَا ﴾ أي في تلك الصحف ﴿ كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ أي أخبار صادقة وأوامر عادلة تهدي إلى الحق وإلى صراطٍ مستقيم ، فإذا جاءتهم هذه البينة ، فحينئذٍ يتبين طالب الحق ممن ليس له مقصد في طلبه ، فيهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حيي عن بينة . انتهى

قال الجزائري في نهر الخير : إن قيل الكتب هي التي تشتمل على صحف فكيف يتلو صحفاً مطهرة فيها كتبٌ قيمة ؟ والجواب نعم الصحف تكون كتاباً إن كثرت كونت كتباً والقرآن العظيم كثرة صحفه كونت كتاباً باعتبار ما حواه من الشرائع والأحكام والقصص والأخبار . انتهى .

قلت : هذا الإشكال ليس بوارد إذا قلنا أن معنى ﴿ كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ أي مكتوبات قيمة أي مكتوب في هذه الصحف كتابات تتضمن مواضيع قيمة من الأوامر والنواهي والقصص والأخبار ...الخ وليس المراد من كلمة كتب هنا جمع كتاب الذي يتضمن فصولاً وأبواباً ومسائل ونحو ذلك ولكن بمعنى رسائل لأن الرسالة يطلق عليها كتاب كقول سليمان عليه السلام للهدهد ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ سورة النمل والقرآن هو عبارة عن مجموعة رسائل من الله تعالى إلى عباده .

وقيل المراد كتب الأنبياء الأوائل وصحفهم وأن الرسول صلى الله عليه وسلم يتلوها أي يتلوا القرآن لأن مضمون الصحف والكتب المتقدمة موجود في هذا القرآن كما قال تعالى ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ سورة المائدة من آية (٤٨) وقال تعالى ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ ﴾ سورة طه وقال تعالى ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ سورة الأعلى وقال تعالى ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾.... ﴾ سورة النجم والعلم عند الله تعالى .

قال تعالى﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ ﴾ استشكل بعضهم هذه الآية مع الآية الأولى وقال هل الكفار ينفكون ويتركون ماهم عليه إذا جاءتهم البينة ويؤمنوا ؟ أم أنهم يتفرقون ويزدادون كفراً ؟ ثم ذهبوا إلى تأويل الآية الأولى مذاهب فقالوا ليس معنى منفكين أي تاركين ما هم عليه من الكفر ، وإنما معناها لم يكونوا مكذبين ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم حتى بعث كقوله تعالى﴿ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ سورة البقرة من آية (٨٩) وقيل : لم يكونوا متروكين على كفرهم حتى يرسل إليهم رسول تقوم عليهم به الحجة كقوله تعالى ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ ﴾ سورة القيامة ونحو ذلك مما ذكروه حتى قال الواحدي في البسيط : هذه الآية — يريد أول السورة – من أصعب ما في القرآن نظماً وتفسيراً وقد تخبط فيها الكبار من العلماء وسلكوا في تفسيرها طرقاً لا تفضي بهم إلى الصواب .

قلت : إن هذا لعجب ، فوضوحها كوضوح القمر ليلة البدر ، فإنهم لم يكونوا تاركين ما هم عليه من الكفر جملة وتفصيلاً حتى تأتيهم البينة ، فلما أتتهم البينة تفرقوا ، فمنهم من آمن بها ، ومنهم من كفر عن جحودٍ وتكبر لا عن جهل .

وإنما خصَّ الله جل وعلا أهل الكتاب هنا بالتفرق ولم يذكر المشركين لأن أهل الكتاب أعلم بحال النبي صلى الله عليه وسلم وصفته بما يجدونه مكتوباً عندهم في كتبهم ، وكان المشركون يرجعون إليهم في ذلك ، فإذا تفرق فيه أهل الكتاب فمن باب أولى أن يتفرق المشركون فيه فلم يذكروا .

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥ ﴾ وما أمروا في كتبهم وعلى ألسنة رسلهم وكذا في القرآن وعلى لسان النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلا بعبادة الله وحده لا شريك له ، والإخلاص إفراد الله بالقصد فلا يقصدون غيره بالعبادة فلا يشركون معه غيره ولا يبتغون بعبادته عرضاً من الدنيا من المال والمنصب والسمعة ونحو ذلك إنما يريدون وجه الله والدار الآخرة فذلك هو الإخلاص ، ومعنى الدين هنا أي العبادة والطاعة ، ومعنى حنفاء أي مائلين عن الشرك إلى التوحيد وعن الأديان الباطلة إلى دين الإسلام ، ثم خص الصلاة والزكاة مع دخولهما في العبادة لبيان فضلهما ومزيتهما وأنهما من أظهر شرائع الدين كقوله تعالى ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ ﴾من سورة التوبة آية (١١) وقوله ﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ أي الملة المستقيمة الذي لا اعوجاج فيها ولا اضطراب قال بن جرير: أنثت القيمة لأنها جعلت صفةً للملة كأنه قيل وذلك الملة القيمة دون اليهودية والنصرانية . انتهى . وقال البغوي : أنث القيمة رداً بها إلى الملة ، وقيل الهاء فيه للمبالغة ، وقيل القيمة هي الكتب التي جرى ذكرها أي وذلك دين الكتب القيمة فيما تدعو إليه وتأمر به كما قال ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ ﴾ سورة البقرة من آية (٢١٣) قال النضر بن شميل : سألت الخليل بن أحمد عن قوله ﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ فقال : القيمة جمع القيم ، والقيم والقائم واحد ، ومجاز الآية : وذلك دين القائمين لله بالتوحيد . انتهى من تفسيره .

وبعد أن ذكر الله ماهية الدين القيم ، بيَّن جزاء القائمين به والمعرضين عنه فقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ٦ ﴾ أي شر الخليقة جزاء إعراضهم عن اتباع الحق بعد أن جاءتهم البينة وكونهم شر الخليقة لأن سائر المخلوقات غير الثقلين لا حساب عليها ولا عقاب وإنما يقتص من بعضها البعض ثم يقال لها كوني تراباً ، وأما الكفار فهم في النار خالدين فيها ، فكانت البهائم أحسن حالاً منهم . ثم ذكر حال المؤمنين فقال ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨ ﴾ استدل بعضهم بهذه الآية على أن صالحي البشر خير من الملائكة فإن الملائكة من البرية أي من المخلوقات والله أخبر أن المؤمنين هم خير البرية ، ولكن قد يقال أن الملائكة أيضاً مؤمنون ويعملون الصالحات فهم داخلون في هذا الفضل فلا مزية للبشر على الملائكة في هذه الآية والله تعالى أعلم .

وقوله ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ ﴾ أي بساتين إقامةٍ دائمة لا ارتحال عنها .

وقوله ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾ أي ذلك النعيم لمن خشي ربه فوحده وقام بأوامره واجتنب نواهيه .

من دروس سورة البينة :

أولاً / أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى هم كفارٌ كالمشركين بكلام الله تعالى ولا عبرة بمن أراد إخراجهم من الكفار بزعم أنهم يؤمنون بالكتب السماوية ، نعم أنزلت عليهم كتباً سماوية ولكنهم لم يلتزموا بما فيها بل حرفوها وبدلوها وكفروا ببعض ما فيها كبعثة محمدٍ صلى الله عليه وسلم ووجوب طاعته واتباعه والتزام دينه وهو الإسلام وكفروا بإنزال القران وتغيير القبلة ونحو ذلك فكانوا كفاراً ولذلك قال الله تعالى لهم محذراً ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ من (٨٥) سورة البقرة وقال تعالى هنا ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ ﴾ ومن هنا ليست للتبعيض بل لبيان الجنس فهل يقول أحدٌ أن من المشركين من لا يكون كافراً ولا يدخل النار .

ثانياً / أن الله تعالى لا يضل أحداً من الناس حتى يختار هو طريق الضلالة بعد معرفته التامة بطريق الهداية فينحرف عن طريق الهداية لهوىً وشهوة بطنٍ وفرج ورغبةٍ في مالٍ أو جاهٍ أو منصب ونحو ذلك فيضله الله تعالى كما قال تعالى ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ من (٥) سورة الصف وقال تعالى ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ من (١١٥) سورة التوبة وقال تعالى ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾ من (١٩) سورة ال عمران وقال هنا ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ ﴾ فالمقصود أنه ينبغي الحذر من سلوك السبل المؤدية إلى الضلال من الشهوات والشبهات والبعد عن أهلها والنجاة بالدين فإنه رأس المال ومن خسره فقد خسر حياته الحقيقية فلا يضيع حياته مع أهل الشهوات والشبهات فيعصي الله لشهوةٍ أو شبهةٍ فيغضب الله عليه ويطبع على قلبه ثم يزيغه فإن القلوب بين اصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء كما قال تعالى ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ من (١١٠) سورة الأنعام وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر من قول (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) وهو المعصوم من الشهوات المحرمة والشبهات فكيف بغيره .

ثالثاً / الإخلاص لله هو شرط صحة العبادة وقبولها فإن العبادة لا تقبل إلا بشرطين : الإخلاص لله بأن يبتغي بها وجه الله تعالى لا رياءً ولا سمعة ولا ابتغاء دنيا ولا يشرك مع الله غيره . والشرط الثاني : المتابعة للنبي صلى الله عليه وسلم فلا يحدث عبادةً من عنده قال صلى الله عليه وسلم (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) متفقٌ عليه ولمسلم (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) أي مردودٌ على صاحبه غير مقبول .

رابعاً / أن على العبد أن يبتعد عن الشرك وأهله ، وأن يفرد الله بالتوحيد ، وأن يحافظ على العبادة المفروضة من صلاةٍ وصيامٍ وحجٍ وزكاة حتى يكون على الدين القيم الذي ارتضاه الله لعباده ووعدهم عليه بالأجر الوفير .

خامساً / أن شر المخلوقات هم الكفار كما قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ ﴾ أي شر الخليقة وقال تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ من (١٧٩) سورة الأعراف وخير الخليقة هم المؤمنون كما قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ ﴾ فشتان بين الفريقين ، ولذلك ينبغي أن لا يمدح الكافر ولا يثنى عليه فليس أهلاً للمدح والثناء ، وإننا لنعجب من أقوامٍ يمجدون الغرب الكافر ويثنون عليهم كثيراً في تعاملاتهم وفي حفظ أوقاتهم وأمانتهم ونحو ذلك ، وما علموا أنهم قد ضيعوا أعظم أمانة وهي أمانة الدين وضيعوا أوقاتهم في طاعة الشياطين وما أحسنوا التعامل مع رب العالمين فأي خيرٍ في هؤلاء ، فينبغي أن لا نمجدهم ولا نثني عليهم أولاً لأنهم أعداء الله وكفى به جرماً . وثانياً لئلا ينخدع بهم السفهاء والجاهلون فيظنون أن ذلك بسبب دينهم فيتبعوهم على ضلالتهم وقد رأينا عجباً من اتباع كثير من المسلمين لأولئك في طريقة مأكلهم ومشربهم وملبسهم وزينتهم حتى المحرمات اتبعوهم عليها ولقد صدق النبي صلى الله عليه وسلم حين قال (لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضبٍ لدخلتموه) قالوا : اليهود والنصارى ؟ قال (فمن) أي فمن غيرهم .

سادساً / أن سبب نجاة المؤمنين هي خشية الله الموجبة لطاعته والفرار من معصيته فيرضى الله عن العبد فيدخله الجنة فيرضى فالخشية أمرها عظيم ومنزلتها عليه ، وكلما ازداد العبد بالله علماً ازداد منه خوفاً وخشية كما قال تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ من (٢٨) سورة فاطر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾

تفسير سورة الزلزلة

اختلفوا هل هي مكية أو مدنية فقال بن مسعود وجابر بن عبد الله وابن عباس في رواية ومجاهد وعطاء والضحاك ومقاتل بن سليمان واختاره بن كثير والبغوي والرازي أنها مكية .

وقيل مدنية وهو قول بن عباسٍ في رواية وقتادة وجابر بن زيد واختاره السيوطي في الدر المنثور والسعدي .

واختلف في عدد آياتها فقيل ثماني آيات وقيل تسع آيات وسبب ذلك اختلافهم في قوله تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٦ ﴾ هل هي آية واحدة أو آيتين . وهي في المصحف الكوفي آية واحدة واعتمدها مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف .

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ ﴾ يخبر تعالى عما سيحدث للأرض في يوم القيامة بأنها تضطرب وتتحرك تحركاً شديداً حتى يتحطم كل ما على ظهرها من بناءٍ وجبالٍ وأشجار ونحو ذلك ، ويشيب من هول ذلك الولدان ، وتضع الحوامل ما في بطونها كما قال تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢ ﴾ سورة الحج وقال تعالى ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝١٧ ﴾ سورة المزمل

قال القاسمي : أي : أصابها ذلك الزلزال الشديد والاهتزاز الرهيب . فالإضافة للتفخيم أو الاختصاص ، بمعنى الزلزال المخصوص بها ، وهي الرجة التي لا غاية وراءها . والأقرب الأول لآية ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ ﴾ سورة الحج . انتهى من محاسن التأويل .

وقوله﴿ زِلْزَالَهَا ﴾ لبيان أنه الزلزال الأعظم الذي يكون على الأرض كلها ، وليست الزلزلة التي تكون في بعض نواحي الأرض ، ولذلك روي عن بن عباسٍ أنه قال ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ ﴾ من أصلها . وروي : من أسفلها . يعني من بطنها حتى ترتج كلها كما قال تعالى ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ ﴾ سورة الواقعة

قال الماوردي : واختلف في هذه الزلزلة على قولين : أحدهما : أنها في الدنيا من أشراط الساعة ، وهو قول الأكثرين . الثاني : أنها الزلزلة يوم القيامة ، قاله خارجة بن زيد وطائفة . انتهى .

﴿ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ ﴾ اختلفوا فيما تُخْرِجُ الأرض فقيل كنوزها كما في الحديث (تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة فيجيء القاتلُ فيقولُ : في هذا قَتَلْتُ . ويجيء القاطع فيقول : في هذا قَطَعْتُ رحمي . ويجيء السارق فيقول : في هذا قُطِعتْ يدي . ثم يَدَعُونه فلا يأخذون منه شيئاً) رواه مسلم وقال بن عباس ومجاهد : الموتى . وقال عطية : ما فيها من الكنوز والموتى . وقال الثوري : مَا اسْتُودِعَتْ . وقال الطبراني : أي لَفَظَتِ الأرضُ عند ذلك ما فيها من الأمواتِ والأموالِ قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ ﴾ سورة الانشقاق وفائدةُ إلقاءِ الكُنوز وإظهارها أنْ تتحسَّرَ عليها نفوسُ

الذين كنَزوها ، وأنْ يُعذَّبُوا بها ، كما قَالَ تَعَالَى ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ سورة التوبة . انتهى . وعلى هذا يكون المراد بالزلزلة زلزلة البعث التي يخرج فيها الموتى .

﴿ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ ﴾ أي يقول الكافر ما شأن الأرض تزلزلت وأخرجت أثقالها ، وذلك أنه كان يكذب بالبعث . وإن كانت زلزلة الساعة فالمراد بالإنسان المؤمن والكافر حتى يتبين للمؤمن أنها القيامة ، ولكنها لا تقوم على مؤمن وإنما على شرار الخلق .

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ ﴾ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الآية ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ قال (أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبدٍ أو أمةٍ بما عمل على ظهرها ، تقول عمل يوم كذا ، كذا وكذا . فهذه أخبارها) رواه أحمد والترمذي والحاكم وبن حبان وضعف إسناده الألباني والأرناؤوط : لضعف يحيى بن أبي سليمان وهو أبو صالح المدني قال البخاري : منكر الحديث . وعند الطبراني من حديث ربيعة بن الغز الجرشي إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (استقيموا ونعما إن استقمتم ، وحافظوا على الوضوء فإن خير عملكم الصلاة ، وتحفظوا من الأرض فإنها أمكم وإنه ليس من أحد عامل عليها خيراً وشراً إلا وهي مخبرة) قال الهيثمي فيه ابن لهيعة وهو ضعيف . وقال الأرناؤوط : وربيعة الجرشي مختلف في صحبته . انتهى . ولو صحَّ الخبر لكان فصلاً في أن المراد بالزلزلة يوم البعث لأن الأرض تشهد حينئذٍ ولكن مع ضعف إسناده فقد اختلف العلماء فمنهم من قال بمضمونه ومنهم من قال بأن المراد أن تقول الأرض قد آن انقضاء الدنيا وهذه زلزلة القيامة ونحو ذلك ، وقد روى الطبري بسنده عن سعيد قال : زُلْزِلَتِ الأَرْضُ على عهد عبد الله ، فقال لها عبد الله : مالك ، أما إنها لو تكلَّمت قامت الساعة . وقيل المراد بتحديثها بأخبارها زلزلتها وإخراجها أثقالها كما يقال الخبر ما تراه لا ما تسمعه .

قال الماوردي ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ فيه ثلاثة أقاويل / أحدها : تُحَدِّثُ أَخْبارَها بأعمال العباد على ظهرها قاله أبو هريرة ورواه مرفوعاً. وهو قول من زعم أنها زلزلة القيامة . الثاني : تحدث أخبارها بما أخرجت من أثقالها ، قاله يحيى بن سلام ، وهو قول من زعم أنها زلزلة أشراط الساعة . الثالث : أنها تحدث بقيام الساعة إذا قال الإنسان ما لها ؟ قاله ابن مسعود ، فتخبر أن أمر الدنيا قد انقضى ، وأمر الآخرة قد أتى . انتهى .

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ ﴾ أي أوحى إليها وأمرها بأن تخرج أثقالها وتحدث أخبارها . قال ابن عباس والقرظي : أوحى إليها. وقال مجاهد : أَمَرَهَا .

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾ يوم القيامة يصدر الناس بعد الحساب أشتاتاً أي متفرقين يتبع كل أهل دينٍ ما كانوا يعبدون ، ثم يسار بهم فمنهم من يُتَّجَهُ به إلى جنات عدن وهم أهل التقوى والإيمان ، ومنهم من يُتَّجَهُ به إلى جهنم وهم الكفار والمشركون ، ومن أهل الكبائر من المؤمنين من يُتَّجَهُ به إلى نارٍ يصلاها ولا يخلد فيها ﴿ لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾

قال ابن عباس : ليروا جزاء أعمالهم . ذكره البغوي . فمهما بلغ عمله من الصغر ولو كان مثقال ذرةٍ وهي صغار النمل فسيراه في كتابه ، وسيرى جزاءه إن لم يوفاه في الدنيا كما قال تعالى ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ سورة الكهف

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن زكاة الحمر قال (ما أنزل عليَّ فيها شيءٌ إلا هذه الآية الفاذَّة الجامعة ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ متفق عليه وقال الربيع بن خيثم : مرَّ رجل بالحسن وهو يقرأ هذه السورة فلما بلغ آخرها قال : حسبي قد انتهت الموعظة .

وقال محمد بن كعب القرظي : مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ مِنْ كَافِرٍ ، يَرى ثَوَابَهَا فِي نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَخْرُجَ وَلَيْسَ لَهُ خَيْرٌ ؛ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ شَرٍّ مِنْ مُؤْمِنٍ يَرى عُقُوبَتَهَا فِي نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَخْرُجَ وَلَيْسَ لَهُ شَرٌّ . وقد روي أن أبا بكر رضي الله عنه لما نزلت هذه الآية قال : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُجْزَى بِمَا عَمِلْتُ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ شَرٍّ ؟ فَقَالَ : يَا أَبَا بَكْرٍ ، مَا رَأَيْتَ فِيَ الدُّنْيَا مِمَّا تَكْرَهُ فَبِمَثَاقِيلُ ذَرِّ الشَّرِّ ، وَيَدَّخِرُ لَكَ اللَّهُ مَثَاقِيلَ الْخَيْرِ حَتَّى تَوَفَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وقال بن عباس: لَيْسَ مُؤْمِنٌ وَلاَ كَافِرٌ عَمِلَ خَيْرًا وَلاَ شَرًّا فِي الدُّنْيَا إِلاَّ أَتَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ . فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيُرِيهِ حَسَنَاتِهِ وَسَيِّئَاتِهِ ، فَيَغْفِرُ اللَّهُ لَهُ سَيِّئَاتِهِ . وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيَرُدُّ حَسَنَاتِهِ وَيُعَذِّبُهُ بِسَيِّئَاتِهِ . وعَنْ عَامِرٍ الشَّعْبِيِّ ، أَنَّ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جُدْعَانَ ، كَانَ يَصِلُ الرَّحِمَ ، وَيَقْرِي الضَّيْفَ ، وَيَفُكُّ الْعَانِيَ ، فَهَلْ ذَلِكَ نَافِعُهُ شَيْئًا ؟ قَالَ : لاَ ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا : رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ. وعَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ الْمُؤْمِنَ حَسَنَةً يُثَابُ عَلَيْهَا الرِّزْقَ فِي الدُّنْيَا ، وَيُجْزَى بِهَا فِي الآخِرَةِ ؛ وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُعْطِيهِ بِهَا فِي الدُّنْيَا ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ) ذكر هذه الآثار والأحاديث الطبري في تفسيره .

قال السيوطي : وأخرج ابن المبارك في الزهد وأحمد وعَبد بن حُمَيد والنسائي والطبراني وَابن مردويه عن صعصعة بن معاوية عم الفرزدق أنه أتى النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ فقال : حسبي لا أبالي أن لا أسمع من القرآن غيرها . وأخرج سعيد بن منصور عن المطلب بن عبد الله بن حنطب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ في مجلس ومعهم أعرابي جالس ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ فقال الأعرابي : يا رسول الله أمثقال ذرة ؟ قال : نعم ، فقال الأعرابي : وأسوأتاه ، ثم قام وهو يقولها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد دخل قلب الأعرابي الإيمان . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعَبد بن حُمَيد عن زيد بن أسلم رضي الله عنه أن النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ الآية فقام رجل فجعل يضع يده على رأسه وهو يقول : وأسوأتاه . فقال النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم : أما الرجل فقد آمن . وأخرج عبد الرزاق وعَبد بن حُمَيد وَابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم رضي الله عنه أن النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم دفع رجلاً إلى رجلٍ

يعلمه فعلمه حتى بلغ ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ فقال الرجل : حسبي . فقال الرجل : يا رسول الله أرأيت الرجل الذي أمرتني أن أعلمه لما بلغ ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ فقال حسبي : فقال النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم : دعه فقد فقه . انتهى .

قال النبي صلى الله عليه وسلم (اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمةٍ طيبة) متفق عليه وقال صلى الله عليه وسلم (يا عائشة ، إياك ومحقرات الأعمال ، وفي رواية ومحقرات الذنوب ، فإن لها من الله طالبا) رواه النسائي وبن ماجة وبن حبان وصحح إسناده الألباني وشعيب الأرناؤوط وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إياكم ومحقرات الذنوب ، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه) وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهن مثلاً (كمثل قوم نزلوا أرض فلاةٍ ، فحضر صَنيع القوم فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود ، والرجل يجيء بالعود ، حتى جمعوا سواداً ، فأجَّجوا نارًا ، وأنضجوا ما قذفوا فيها) رواه أحمد وحسنه الألباني . ورُوِيَ عن عائشة أنها تصدقت بعنبةٍ وقالت : كم فيها من مثقال ذرة .

من دروس سورة الزلزلة :

أولاً / عظم أمر القيامة وأنه فزعٌ عظيم وأمرٌ مهيل تشيب منه الولدان وتضع الحوامل ما في بطونها ويضطرب فيها الناس اضطراب السكران الذي لا يدري ما يصنع ، فينبغي التجهز لهذا اليوم بالأعمال الصالحة والبعد عن السيئات ليؤمنه الله من هذا الفزع كما قال تعالى ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ سورة النمل وقال تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ سورة الأنعام

ثانياً / أن الأرض تشهد على العبد بما عمل على ظهرها ، فينبغي على المؤمن الحذر من أن تخبر عنه بعمل سوء عمله على ظهرها في ساعة غفلةٍ وشهوة يندم عليها حين لا ينفع الندم ، وليكثر من الأعمال الصالحة في أماكن مختلفة لتشهد له الأرض بتلك الأعمال ، وقد روى البخاري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة الأنصاري عن أبيه أنه أخبره أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال له : إني أراك تحب الغنم والبادية فإذا كنت في غنمك وباديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جنٌ ولا أنسٌ ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة . قال أبو سعيد سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثالثاً / أن العبد يجازى بمثاقيل الذر من الحسنات والسيئات ، فلا يحتقر شيئاً فربما كانت الحسنة تلك التي احتقرها سبب نجاته وربما كانت تلك السيئة التي استصغرها سبب هلاكه .

سورة العاديات مكية وآياتها (١١)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ١ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ٢ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ٣ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ٤ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ٥ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨ ۞ أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّخَبِيرُۢ ١١ ﴾

تفسير سورة العاديات

العاديات الخيل والضبح هو الصوت الذي تحدثه الفرس في عدوها وهو النفس الشديد المرتفع وقيل الحمحمة ، وهو قول بن عباس وعكرمة وعطاء ومجاهد وقتادة والضحاك . قال عطاء سمعت بن عباسٍ رضي الله عنه يصف الضبح : أحْ أحْ .

وقيل هي الإبل إذا تنفست وهو قول علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وإبراهيم وعبيد بن عمير وروى بن جرير بسنده عن بن عباسٍ رضي الله عنهما قال : بينما أنا في الحجر جالس أتاني رجل يسأل عن العاديات ضبحاً فقلت له الخيل حين تغير في سبيل الله ثم تأوي إلى الليل فيصنعون طعامهم ويورون نارهم ، فانفتل عني فذهب إلى علي بن أبي طالبٍ فسأله عن العاديات ضبحاً فقال : سألت عنها أحداً قبلي ؟ قال : نعم سألت عنها بن عباسٍ . فقال : الخيل حين تغير في سبيل الله قال : اذهب فادعه لي فلما وقفت على رأسه . قال : تفتي الناس بما لا علم لك به ، والله لكانت أول غزوةٍ في الإسلام لبدر وما كان معنا إلا فرسان فرسٌ للزبير وفرسٌ للمقداد فكيف تكون العاديات ضبحاً إنما العاديات ضبحاً من عرفة إلى مزدلفة إلى منى ، قال بن عباسٍ فنزعت عن قولي ورجعت إلى الذي قال علي رضي الله عنه .

وروي عن عليٍ رضي الله عنه قال : الضبح من الخيل الحمحمة ، ومن الإبل النفس .

قال بن جرير : وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قول من قال عني بالعاديات الخيل وذلك أن الإبل لا تضبح ، وإنما تضبح الخيل . انتهى من تفسيره

وذكر العثيمين أن من قال أنها الإبل تعدو من عرفة إلى مزدلفة ثم إلى منى في مناسك الحج بأن السورة مكية وأنه ليس في مكة جهاد على الخيل حتى يقسم بها ، ولكن ردَّ أصحاب القول الثاني بأن الخيل العاديات معلومة للعرب قبل مشروعية الجهاد فأقسم الله بها .

﴿ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴾ فيها سبعة أقوال :

الأول / أنها الخيل توري النار بحوافرها حين تجري على الحجارة من شدة جريها وهو قول عكرمة والضحاك وعطاء ومقاتل والكلبي .

الثاني / أنها الخيل تهيج الحرب ونار العداوة بين فرسانها وهو قول قتادة .

الثالث / أنهم أهل الخيل حين يغيرون في سبيل الله ثم يأوون بالليل فيوقدون نيرانهم ويصنعون طعامهم وهو قول بن عباسٍ وسعيد بن جبير .

الرابع / أنها نيران العسكر تخيف العدو بكثرتها وهو قول محمد بن كعب القرظي .

الخامس / أنه مكر الرجال ، والعرب تقول : لأقدحن لك ثم لأورين لك ، إذا أراد أن يمكر بصاحبه ، وهو قول بن عباس ومجاهد وزيد بن أسلم .

السادس / أنها الألسنة أي ألسنة الرجال تثير الحرب بينهم ونسب إلى عكرمة .

السابع / أنها الإبل تنسف بمناسمها الحصى حين تسير فيضرب بعضه بعضاً فيخرج منه النار وهو قول علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما .

قال بن جرير : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إن الله تعالى ذكره أقسم بالموريات التي توري النيران قدحاً فالخيل توري بحوافرها ، والناس يورونها بالزند ، واللسان مثلاً يوري بالمنطق ، والرجال يورون بالمكر مثلاً ، وكذلك الخيل تهيج الحرب بين أهلها إذا التقت في الحرب ، ولم يضع الله دلالةً على أن المراد من ذلك بعض دون بعض فكل ما أورت النار قدحاً فداخلة فيما أقسم به لعموم ذلك في الظاهر . انتهى من تفسيره

﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴾ الخيل تغير على العدو في الصباح ، وقيل الإبل تغير من مزدلفة إلى منى في صباح يوم النحر . والإغارة السير في سرعة أو الجري الشديد .

﴿ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴾ الخيل تثير الغبار في المعركة ، قال حسان رضي الله عنه :

عدمنا خيلنا إن لم تروها * تثير النقع موعدها كداء

وقيل : هي الإبل تثير الغبار في الحج .

﴿ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴾ الخيل تتوسط جمع الجيش في القتال ، وهو قول بن عباس وعكرمة ومجاهد وعطاء وقتادة والضحاك .

وقيل هي الإبل إذا توسطت المزدلفة في الحج لأن جمعاً من أسماء المزدلفة قال النبي صلى الله عليه وسلم (وقفت هاهنا وجمع كلها موقف) لما وقف بالمزدلفة . وهو قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

قال الشيخ عطية سالم : قد وجدنا قرائن عديدة في الآية تمنع من إرادة المزدلفة بمعنى جمع وهي كالآتي:

أولاً / وصف الخيل أو الإبل على حدٍ سواء بالعاديات حتى حد الضبح ووري النار بالحوافر وبالحصا أوصاف تدل على الجري السريع ومعلوم أن الإفاضة عن عرفات ثم من المزدلفة لا تحتمل هذا العدو وليس هو فيها بمحمود لأنه صلى الله عليه وسلم كان ينادي (السكينة السكينة) فلو وجد لما كان موضع تعظيم وتفخيم .

ثانياً / أن المشهور أن إثارة النقع من لوازم الحرب كما قاله بشار :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبه

أي لشدة الكر والفر .

ثالثاً / قوله تعالى ﴿ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ ﴾ جاء مرتباً بالفاء وهي تدل على الترتيب والتعقيب ، وقد تقدم المغيرات صبحاً وبعدها فوسطن به جمعاً وجمع هي المزدلفة وإنما يؤتى إليها ليلاً فكيف يغرن صبحاً ويتوطن المزدلفة ليلاً ، وعلى ما حكاه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه – يريد شيخه الشنقيطي – أنهم يغيرون صبحاً من المزدلفة إلى منى ، تكون تلك الإغارة بعد التوسط بجمع ، والسياق يؤخرها عن الإغارة ولم يقدمها عليه . فتبين بذلك أن أرادة المزدلفة غير متأتية في هذا السياق ويبقى القول الآخر هو الأصح والله تعالى أعلم ، ولو رجعنا إلى نظرية ترابط السور لكان فيها ترشيحاً لهذا المعنى ، وهو أنه في السورة السابقة ذكرت الزلزلة وصدور الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ، وهنا حث على أفضل الأعمال التي تورث الحياة الأبدية والسعادة الدائمة في صورةٍ مماثلة وهي عدوهم أشتاتاً في سبيل الله لتحصيل ذاك العمل الذي يحبون رؤيته في ذلك الوقت وهو نصرة دين الله أو الشهادة في سبيل الله والعلم عند الله تعالى . انتهى من تتمة أضواء البيان .

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ ﴾ أي جحودٌ لنعم الله عليه ، قال بن عباس ومجاهد والحسن وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وأبو الجوزاء وأبو العالية والضحاك وأبو الضحى ومحمد بن قيس وابن زيد والربيع بن أنس ومقاتل بن سليمان : كفور . قال الحسن : هُوَ الْكُفُورُ الَّذِي يَعُدُّ الْمَصَائِبَ ، وَيَنْسَى نِعَمَ رَبِّهِ . وقال أيضاً : لَوَّامٌ لِرَبِّهِ يَعُدُّ الْمَصَائِبَ .

﴿ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ قال مجاهد وقتادة وسفيان الثوري ومقاتل بن سليمان : أي الله شهيد على ذلك . وقال محمد بن كعب القرظي وابن كيسان : أي الإنسان شهيدٌ على نفسه . وهو أرجح لإجماعهم على أن الآية التي بعدها عني بها الإنسان وهي معطوفة عليها . ويكون المعنى وإن الإنسان على كونه كنوداً لشهيد إما بلسان مقاله في الآخرة فيقر بذلك على نفسه أو بلسان حاله أي بأعماله التي تظهر للناس كقوله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ﴾ من (١٧) سورة التوبة

﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ أي المال كقوله تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ سورة البقرة أي مالاً . والمال في أصله خير يستفيد الناس منه في دنياهم وأخراهم واستعماله في الشر طارئ من تزيين الشياطين فلا يخرجه ذلك عن أصل خلقته فإنه مخلوقٌ للخير .

واختلفوا في قوله ﴿ لَشَدِيدٌ ﴾ فقيل أي قوي أي أنه يحب المال حباً قوياً . وقيل ﴿ لَشَدِيدٌ ﴾ أي بخيل أي أنه بسبب حبه للمال بخل به . قال بن كثير : فيه مذهبان : أحدهما: أن المعنى : وإنه لشديد المحبة للمال . والثاني : وإنه لحريصٌ بخيلٌ من محبة المال . وكلاهما صحيح . انتهى .

﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ ﴾ هذا الإنسان الذي ذكرنا صفاته ﴿ إِذَا بُعْثِرَ ﴾ أثير وأخرج ﴿ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ ﴾ من الموتى فأخرجوا أحياءً في الدار الآخرة للحساب والجزاء .

﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ ﴾ قال بن عباس : أُبْرِز . وقال سفيان : مُيِّز . أي ميز الله بين الخير والشر الكائن في نفوسهم وأبرزه وأظهره ليحاسبهم عليه .

﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ الله أعلم بالصالح والخبيث من الناس ، فهو أعلم بأعمال العباد ما كان منها من أعمال الجوارح أو أعمال القلوب ، ما أظهروه وما أخفوه منها ، الله مطلعٌ عليها لا يخفى عليه من أمر العباد شيء . قال البغوي : قال الزجاج : إن الله خبير بهم في ذلك اليوم وفي غيره ، ولكن المعنى أنه يجازيهم على كفرهم في ذلك اليوم . انتهى .

والآيات سيقت للتخويف والتحذير أي اعملوا صالحاً في السر والعلانية وأحسنوا نياتكم فإن الله مطلعٌ على ما تظهرون وما تخفون من أعمال القلوب والجوارح وسيجازيكم عليها في يوم القيامة إن خيراً فخير وإن شراً فبمثلها جزاءً وفاقا .

من دروس سورة العاديات :

أولاً / أن لله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته ، وليس للعبد أن يقسم إلا بالله تعالى لقول النبي صلى الله عليه وسلم (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك) وقوله (إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت)

ثانياً / عظم منزلة الخيل عند الله تعالى فإن الله تعالى لا يقسم إلا بالعظيم من مخلوقاته وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (الخيل معقودٌ في نواصيها الخير إلى يوم القيامة)

ثالثاً / أن الإنسان إذا أصيب بمصيبةٍ نسي ما أنعم الله به عليه من النعم التي لا يحصيها إلا الله وجعل يلوم ربه على تلك المصيبة ، وكأنه ليس لله عليه إفضالٌ ولا إنعامٌ سابق ، وما علم أنه في ثنايا هذه المحن منحٌ لو صبر عليها ورضي بما قضاه الله عليه ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط) رواه الترمذي وبن ماجة وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢١١٠) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم (ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة) رواه الترمذي وصححه الألباني فينبغي على المؤمن إذا ابتلي أن يصبر ويحتسب ويرضى بما قضاه الله عليه ليفوز برضى ربه وجنته ، وعليه أن يعدد بعض نعم الله عليه لتخف عليه المصيبة .

رابعاً / أن الكافر جاحدٌ لنعم الله عليه ثم يوم القيامة يشهد على نفسه أنه كان كذلك ندماً وحسرة ولكن لا ينفعه الندم والتحسر في ذلك اليوم فقد فات محل الشكر والعمل وجاء وقت الحساب ، ولذلك ينبغي على المؤمن أن لا يفعل كفعل الكافر فيندم حين لا ينفع الندم بل يكثر من شكر الله على نعمه ويقوم بحقها من أداء الواجبات وترك المحرمات .

خامساً / أن المال خلق للخير فبه قوام الحياة من المأكل والمشرب والمسكن والمركب ولكن أكثر الناس يستعملونه في الشر ويحبونه حباً شديداً ويسعون في تحصيله بشتى السبل دون نظرٍ في حلٍ أو حرمة ويكون مشغلاً لهم عن عبادة الله وينفقونه فيما لا يرضي الله فكان المال وبالاً عليهم وحسرةً وندامة . فينبغي على المؤمن أن يتكسب المال بالطرق المشروعة ، وألا يكون جمع المال صارفاً له عن طاعة الله وعبادته ، وألا ينفقه إلا فيما يرضي الله تعالى . فعن أبي بردة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه ما عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن جسمه فيما أبلاه) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح .

سادساً / أن الله تعالى يحاسب الناس يوم القيامة على أعمال القلوب كالخوف والرجاء والمحبة والرياء والنفاق ونحوها وهي وإن كانت خفية على الناس لكن الله مطلعٌ عليها خبيرٌ بها وسوف يحاسب كل عبدٍ بما يكنه في صدره من تلك الأعمال فليحرص المؤمن على أن يكون خوفه من الله ورجاؤه في الله ومحبته لله وفي الله وأن يحذر من الرياء والنفاق وشرك السر وهو الخوف من غير الله كخوف الله ورجاؤه كرجائه ومحبته كمحبته ونحو ذلك .

سورة القارعة مكية وآياتها (١١)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾

تفسير سورة القارعة

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ ﴾القارعة مفرد من قرع يقرع قرعاً وقارعة وجمعها قوارع وقارعات وهي الشدة والأمر العظيم يقال قرعتهم قوارع الدهر أي أصابتهم نوازله الشديدة قال تعالى ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ ﴾ من آية (٣١) سورة الرعد أي داهية تقرعهم بصنوف البلاء وشديدة من شدائد الدهر قال القرطبي في تفسيره : العرب تقول قرعتهم القارعة وفقرتهم الفاقرة إذا وقع بهم أمرٌ فظيع . انتهى .

وتطلق القارعة على الكلمة اللاذعة المؤلمة ولذلك يقال : قوارع اللسان أشد من قوارع السنان .

وقارعة الطريق وسطه أو الموضع الذي يقرعه الناس بأقدامهم منه ، أي يكثرون السير عليه . قال الشاعر :

نصبوا بقارعة الطريق خيامهم يتسابقون إلى قرى الضيفان

ويكاد موقدهم يجود بنفسه حب القرى حطباً على النيران

قال صلى الله عليه وسلم (اتقوا الملاعن الثلاث : البراز في : الموارد ، وقارعة الطريق ، والظل) رواه أبو داود وبن ماجة والحاكم وغيرهم وحسنه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (١١٢)

والقارعة من أسماء يوم القيامة قال تعالى ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ ﴾ سورة الحاقة سميت بذلك لأنها تقرع القلوب فتفزعها بأهوالها وشدائدها .

﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ ﴾الاستفهام للتعظيم والتهويل أي أي شيءٍ هو شأن القارعة أي ما أعظمها وما أفظعها .

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ ﴾ أي وما أعلمك يا محمد ما شأن القارعة ؟ أي لم تكن تعلم شأنها حتى أخبرناك به . فقد قال بعض السلف كل آيةٍ فيها ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ ﴾ فقد أعلمه ، وكل آيةٍ فيها ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ فلم يعلمه . وتكرار الاستفهام للتحذير والدلالة على أن شأن القارعة عظيم وخطبها جسيم .

﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ ﴾ يوم القيامة يكون حال الناس كحال الفراش المبثوث أي المنتشر المتفرق كقوله تعالى ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ ﴾ سورة القمر وقيل أن ثمة فرق بين الفراش المبثوث والجراد المنتشر فالفراش لا وجهة له فهو يطير يمنةً ويسرة ، بينما الجراد يطير في اتجاهٍ واحد ، فهما حالتان للناس يوم القيامة ، فأول أمرهم حين يقومون من قبورهم مضطربين لا وجهة لهم فهم كحال الفراش المبثوث ، ثم يسمعون المنادي فيتوجهون جميعاً صوبه وحينئذٍ يكون حالهم كحال الجراد المنتشر . وقال مقاتل : شبههم إذا خرجوا من قبورهم وجال بعضهم في بعض بالفراش المبثوث ، وشبههم في الكثرة بالجراد المنتشر . انتهى بتصرف . وقال القرطبي : قال ابن عباس والفراء ﴿ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ كغوغاء الجراد يركب بعضها بعضا. كذلك الناس يجول بعضهم في بعض إذا بعثوا . انتهى . وقال قتادة : هذا الفراش الذي رأيتم يتهافت في النار وعليه يكون المراد

بالناس الكفار لأنهم الذين يتهافتون على النار ، ويمكن أنه أراد أن الفراش لا يعرف وجهته ولذلك يسقط في النار فكذلك الناس في يوم القيامة لا يعرفون وجهتهم .

﴿ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ ﴾ العهن الصوف . والمنفوش المندوف ، أي المضروب بالمندفة وهي خشبة يطرق بها الصوف لِيَرِقَ . وقال الفيروز أبادي : النَّفْشُ : تَشْعيثُ الشيء بأصابِعِكَ حتى يَنْتَشِرَ . انتهى. وقال في المعجم الوسيط : فرقه بأصابعه أو بآلة حتى ينتشر بعد تلبد . انتهى. وقال في المحكم : نَفَشَ الصُّوفَ يَنْفُشُهُ نَفْشاً إِذَا مَدَّهُ حتَّى يَتَجَوَّفَ . انتهى. وقال مقاتل : أوهن ما يكون الصوف إذا نفش . انتهى. وقال بن كثير : المنفوش الذي قد شَرَع في الذهاب والتمزق . انتهى. فكأنه من كثرة الندف بلي وتمزق . فكذلك الجبال يوم القيامة يدكدكها الله جل وعلا حتى يكون حالها كحال الصوف المتمزق .

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ ﴾ في يوم القيامة توزن أعمال العباد فمن ثقلت أي رجحت موازين حسناته على موازين سيئاته ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾ في الجنة يعيش فيها أفضل عيشة يرضى بها ويسعد . قال مجاهد : في عيشةٍ قد رضيها في الجنة .انتهى. وقال بعض المفسرين : أن العيشة هي التي رضيت بولي الله في الجنة فانقادت له فإذا اشتهى منها شيئاً قربت منه ، كالفرش المرفوعة فقد قيل أن ارتفاعها مقدار مائة عام ، فإذا أراد الجلوس عليها نزلت حتى يستوي عليها ثم ترتفع كهيئتها ، ومثل الشجرة ذات الطول إذا أشتهى ولي الله ثمرتها تدلت إليه حتى يتناولها بيده .

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ وأما من خفت موازين حسناته ورجحت موازين سيئاته ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ أي مرجعه ومكانه الذي يأوي إليه كما يأوي الصغير إلى أمه حيث لا مأوى له غيرها . كما قال أمية بن أبي الصلت :

فالأرض معقلنا وكانت أمنا فيها مقابرنا وفيها نولد

وقيل : هي كلمة تقولها العرب لمن وقع في أمرٍ شديد فيقولون : هويت أمه . وقيل المراد : يهوي على أم رأسه . و﴿ هَاوِيَةٌ ﴾من أسماء جهنم سميت بذلك لأن الكافر يهوي فيها مع بعد قعرها ، فإذا كانت الكلمة التي يقولها الشخص من سخط الله لا يلقي لها بالاً تهوي به في النار سبعين خريفاً فكيف بالمشرك والكافر . ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ ﴾ استفهام تخويفٍ وتحذير وبيان أي وما أعلمك ما ماهيتها وما حقيقتها ؟ ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾ قد أوقد عليها حتى حميت من شدة الحرارة . وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال (ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من حر جهنم) قالوا : والله إن كانت لكافيةً يا رسول الله. قال (فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرها) رواه مسلم وذكر السيوطي عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقتها أهل الرحمة من عباد الله كما يلقون البشير من أهل الدنيا فيقولون : انظروا صاحبكم يستريح فإنه كان في كربٍ شديد ، ثم يسألونه : ما فعل فلان وفلانة ؟ هل تزوجت؟ فإذا سألوه عن الرجل قد مات قبله فيقول : هيهات قد مات ذاك قبلي فيقولون : إنا لله وإنه إليه راجعون ذهب به إلى أمه الهاوية فبئست الأم وبئست المربية) وأخرج ابن المبارك عن سعيد بن جبير أنه قيل له

: هل يأتي الأموات أخبار الأحياء؟ قال : نعم ، ما من أحدٍ له حميم إلا يأتيه أخبار أقاربه ، فإن كان خيراً سرَّ به وفرح به ، وإن كان شراً ابتأس لذلك وحزن ، حتى إنهم ليسألون عن الرجل قد مات فيقال : ألم يأتكم ؟ فيقولون : لقد خولف به إلى أمه الهاوية . انتهى من الدر المنثور .

من دروس سورة القارعة :

أولاً / أن يوم القيامة يوم عظيم شديد مفزعٌ يقرع القلوب بأهواله وشدائده فينبغي الاستعداد له والتجهز بالأعمال الصالحة المخلصة للعبد من تلك الكرب والأهوال .

ثانياً / أن يوم القيامة تنصب الموازين للحساب وتوزن أعمال العباد فمن رجحت موازين حسناته ذُهِبَ به إلى الجنة يتنعم فيها ويعيش فيها عيشةً رضية ، ومن رجحت موازين سيئاته وخفت موازين حسناته ذُهِبَ به إلى النار لتكون مسكنه ومأواه وبئس المأوى والمسكن لمن يصطلي فيها ناراً قد حميت من شدة الحرارة . فينبغي على العبد أن يسعى في رجحان موازين حسناته وذلك بكثرة الأعمال الصالحة والحذر من السيئات والتوبة منها عاجلاً إن فعلها خشية أن ترجح على حسناته فيهلك .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾

تفسير سورة التكاثر

سورة التكاثر مكية وقال البخاري مدنية والأول أصح . (انظر تمر الخير على أيسر التفاسير)

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ أي أشغلكم طلب الكثرة في الأموال والأولاد والمناصب والأبنية والغراس ونحو ذلك ، وقد يقع التكاثر في القبيلة وقد ذكروا في سبب نزولها أن حيين من قريش وهم بنو سهم وبنو عبد مناف وقيل من الأنصار وقيل من اليهود تفاخرا بالآباء وأمجاد الأجداد فعددوا الأحياء ثم ذهبوا إلى المقابر فعددوا الأموات يفخرون بهم ويتكاثرون بهم ذكر ذلك سالم عطية في تتمة أضواء البيان عند هذه السورة والأرجح في الحيين أنهما من قريش لأن السورة مكية .

﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ أي أشغلكم هذا التكاثر عن التزود للآخرة حتى أدرككم الموت ، وقيل حتى ذهبتم للقبور تتفاخرون بالموتى كما في سبب النزول إن صح ، ويمكن الجمع بأن تدل على المعنيين .

والآية على المعنى الأول تدل على البعث لأن الزائر لابد أن يعود إلى أهله وقد روي أن أعرابياً سمع هذه الآية فقال : بعثوا ورب الكعبة ، فقيل له في ذلك ، فقال : لأن الزائر لا بد أن يرتحل .

روى مسلم في صحيحه عن مطرف عن أبيه قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ ألهاكم التكاثر ، قال (يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس) وروى البخاري عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (لو كان لابن آدم وادياً من ذهب لأحب أن يكون له واديان ولن يملأ فاه إلا التراب ويتوب الله على من تاب)

﴿ كَلَّا ﴾ كلا كلمة ردعٍ وزجر أي ارتدعوا وانزجروا عن هذا التكاثر الذي أشغلكم عما خلقتم له وهو العبادة ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة أمركم إذا رجعتم إلى الآخرة وأن هذا التكاثر لا ينفعكم عند الله وأنه سبب في خسارتكم في الدار الآخرة ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ تكرار للتأكيد على أن الأمر ليس بالهين وأن الخسارة كبيرة . وقيل ليس بتكرار وإنما الأولى في القبر والثانية يوم القيامة ففي القبر عذابٌ ونعيمٌ وفي يوم القيامة عذابٌ ونعيمٌ أكبر .

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾ بالدار الآخرة وما أعده الله تعالى للمعرضين عن ذكره المشتغلين بالتكاثر في الدنيا من العذاب الأليم لما انشغلتم عن ذكره وعبادته بأمور الدنيا .

﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾ فيها قسم مقدر تقديره والله لترون الجحيم أي النار العظيمة الشديدة التأجج قال بن منظور : كل نارٍ عظيمة في مهواه فهي جحيم ومنه قوله تعالى ﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ ﴾ سورة الصافات وقال غيره هي ما اشتد لهبه من النار ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ تأكيد الرؤية وأنها بالعين المتيقنة ، والفرق بين علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين أن علم اليقين ما كان عن دلائل سمعية موثوقة ، وعين اليقين ما كان عن رؤية بصرية متيقنة ، وحق اليقين ما كان عن دلائل حسية قطعية كالعلم بوجود الصين فهو علم اليقين فإذا شاهدتها بعينك كان عين اليقين فإذا دخلتها وبعت واشتريت من أهلها كان ذاك حق اليقين .

وليس المقصود من الآية التنبيه على مجرد الرؤية للنار وإنما الوعيد والتخويف بها كما قال تعالى ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾ سورة الكهف أي تيقنوا أنهم واقعون فيها .

﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أي يوم القيامة يُسْألُ الكفار والمؤمنون عن نعم الله التي أنعم بها عليهم ماذا قابلوه بها ، فأما الكفار فسؤال توبيخٍ وتقريعٍ ، وأما المؤمنون فمنهم من يسأل سؤال حساب وهم المقصرون في شكر النعم ، ومنهم من يسأل سؤال تذكير وهم الذين أدوا شكر النعم فَيُذَكَرون بنعم الله عليهم في الدنيا ليعلموا أن الله الذي أنعم عليهم في الدنيا سينعم عليهم بما هو خير لهم وأفضل في الآخرة فيفرحوا بذلك ، والعلم عند الله .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يومٍ أو ليلةٍ فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال (ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة ؟) قالا : الجوع يا رسول الله . قال (وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما قوموا) فقاموا معه فأتى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس في بيته فلما رأته المرأة قالت مرحباً وأهلاً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أين فلان) قالت : ذهب يستعذب لنا من الماء ، إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ثم قال الحمد لله ما أحدٌ اليوم أكرم أضيافاً مني . قال فانطلق فجاءهم بعذقٍ فيه بسرٌ وتمرٌ ورطب فقال كلوا من هذه وأخذ المدية فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم (إياك والحلوب) فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكرٍ وعمر (والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم) رواه مسلم

من دروس سورة التكاثر :

أولاً / أن التكاثر من الدنيا يشغل عن الآخرة ، ولذلك رغب الشارع في التقلل من الدنيا والزهد فيها ، فقد ذكر الدينوري في القناعة وصححه أن سعد بن مالك وعبد الله بن مسعود دخلا على سلمان يعودانه فبكى فقالا : ما يبكيك أبا عبد الله ؟ قال عهدٌ عهده إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يحفظه أحدٌ منا قال (ليكن بلاغ احدكم من الدنيا كزاد راكب) قال : فنظروا في بيته فإذا إكافٌ وقرطاطٌ وقيمة عشرين درهما . وروى الإمام أحمد عن بن عباسٍ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليه عمر وهو على حصيرٍ قد أثر في جنبه فقال : يا نبي الله لو اتخذت فراشاً أوثر من هذا ؟ فقال (مالي وللدنيا ما مثلي ومثل الدنيا الا كراكبٍ سار في يومٍ صائف فاستظل تحت شجرةٍ ساعةً من نهار ثم راح وتركها) صحح إسناده شعيب الأرنؤوط وروى البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي وقال (كن في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابر سبيل) وكان بن عمر يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك .

ثانيا / أن في قوله تعالى ﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ عبرةً لمن كان يعتبر ، فإذا كانت مدة الموت مجرد زيارة والزائر سرعان ما يرجع إلى أهله ، فكيف بمدة العمر والحياة وهي أقصر بكثير من مدة الموت ، ومع ذلك فالناس يتطاولونها والأمل يحدوهم والأماني تأخذهم حتى يهجم الموت على أكثرهم وهو في غرةٍ لم يتجهز بالتوبة والأعمال الصالحة ، ولذلك ينبغي أن يكون المؤمن حريصاً على أوقاته فهي عمره ولا يضيعها فيما لا ينفعه بل يتزود لآخرته ويأخذ من الدنيا كفافها .

ثالثاً / ينبغي أن يغلب المؤمن في حال الشباب والقوة والصحة جانب الخوف لأن النفس طماحة إلى الشهوات وميالة إلى الهوى والملذات والشيطان يمني ويزين ويوحي بتغليب جانب الرجا وأنك في مقتبل العمر وأن في العمر مجال للتوبة وأن الله غفور رحيم فيخلط الحق بالباطل ليصدقه الإنسان فيقع في حبائله ولذلك ينبغي على المؤمن في تلك الفترة أن يغلب جانب الخوف المعتدل الذي يكف صاحبه عن الحرام ولا يقنطه من رحمة الله ولذلك يَكْثُرُ في القران التخويف والتهديد مع عدم إغفال جانب الترغيب والرجا وإن كان الأكثر في نظري جانب الترهيب لهذا السبب الذي ذكرناه والعلم عند الله تعالى .

رابعاً / أن العبد سوف يسأل عن النعيم الذي كان فيه في الدنيا ، فينبغي على المؤمن أن يعد جواباً لهذا السؤال وذلك بالحفاظ على النعمة وعدم الإسراف فيها والإكثار من شكر المنعم ليكون جوابه سديداً موفقاً بإذن الله تعالى .

سورة العصر مكية وآياتها ثلاث

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾

تفسير سورة العصر

يقسم تعالى بالعصر الذي هو الزمان إما كله وإما جزء منه وهذا الجزء إما أن يكون هو عمر الإنسان ومدة حياته لأنها محل كسبه وخسرانه ودليله السياق لأن جواب القسم يتعلق به ، وإما أن يكون هذا الجزء من الزمان هو وقت صلاة العصر لشرفها

فهي الصلاة الوسطى كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب (ملأ الله قبورهم وبيوتهم ناراً كما حبسونا وشغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس) متفق عليه وعند مسلم في لفظ (شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر) والوسطى أي الفضلى قاله العثيمين في تفسير سورة العصر .

والأقرب أنه الزمان كله لأنه الأعم ويدخل فيه ما تحته ، وقد أقسم الله به لأنه محل عمل الناس جميعاً وهو الوقت الذي يمكن فيه تحصيل الربح أو الخسران ، وأما الآخرة فدار جزاءٍ لا دار عمل .

وقد جعل الله في الزمان نفسه عجائب منها كرُّ الليل والنهار وتعاقب الشمس والقمر بانتظام واستمرار ، بينما الأمم والدول والممالك والحضارات تكون ثم تبيد ، والأجيال تتعاقب ، وآيات وعظات تبهر العقول والألباب تحدث في زمن دون زمن كمعجزات الأنبياء وإهلاك الطغاة أو تكون مستمرة كالجبال الرواسي والأنهار المتدفقة وغير ذلك مما يحدث في هذا الزمان وهو هو لا يتغير كما قال تعالى ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

وإقسام الله به تشريفٌ له ، ولله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته وأما المخلوق فلا يقسم إلا بالله تعالى لقول النبي صلى الله عليه وسلم (من حلف بغير الله فقد أشرك) رواه أحمد والترمذي والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٦٢٠٤) وقوله (إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت) متفق عليه

وجواب القسم ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ أي جنس الإنسان في خسر ، والخسارة النقصان والغبينة والعقوبة والهلاك ولم يبين نوع الخسارة التي هو واقع فيها ليشمل أنواع الخسران الحسي والمعنوي في الدنيا والآخرة ، وقد أكد ذلك بثلاث مؤكدات : الأول القسم ، والثاني إن التوكيدية ، والثالث اللام ، ولم يقل (لخاسر) وإنما أتى بفي الظرفية لعلةٍ بلاغية فكأن الخسران قد أحاط بهذا الإنسان من كل جانب وهو منغمسٌ فيه ثم استثنى المولى جل وعلا من اتصف بأربع صفات فقال ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله وهي أركان الإيمان الستة التي لا يتحقق إيمان العبد إلا بالإيمان بها ، فهذه هي الصفة الأولى من صفات الناجين من الخسران . والصفة الثانية ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ عمل الصالحات من صلاة وصيام وزكاة وحج وسائر القرب الواجبة وإن أضافوا إليها القرب المستحبة كانوا عن الخسران أبعد وللنجاة أقرب . والصفة الثالثة ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ ﴾ وهو الإسلام وشرائعه وأحكامه أي يوصي بعضهم بعضاً بالتمسك بأحكام الشرع المطهر من فعل الأوامر واجتناب النواهي ومن باب أولى أن يكونوا هم قائمين بذلك ولا يكونوا كمن قال الله فيهم ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ سورة البقرة والصفة الرابعة ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ فإن من دعا إلى الحق حريٌ أن يناله أذىً من أعداء الحق فينبغي أن يصبر كحال الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم وكيف صبروا في تبليغ دين الله حتى نصرهم الله .

من دروس سورة العصر :

أولاً /أن زمن الحياة هو محل الطاعة والعصيان ، وهو الذي يمكن فيه تحصيل الربح أو الخسران ، وأما الدار الآخرة فلا ينفع فيها عمل ولا توبة ، وإنما هي دار الجزاء .

ثانياً /أن صلاة العصر ذات منزلةٍ عليةٍ عند الله تعالى حتى أقسم بها هنا وهي الصلاة الوسطى التي قال الله فيها ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ ﴾ سورة البقرة وقال النبي صلى الله عليه وسلم (من فاتته صلاة العصر حبط عمله) وفيه دليلٌ على ما اختاره الشيخ بن بازٍ رحمه الله أن من تعمد ترك صلاةٍ واحدةٍ حتى خرج وقتها فقد كفر لأن العمل لا يحبط إلا بالكفر كما قال تعالى ﴿ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ سورة الزمر

ثالثاً / أن في السورة دليلاً على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن من لم يقم بذلك لا يكون داخلاً ضمن الناجين من الخسارة ، وإن كانت الخسارة تتفاوت فقد تكون الخسارة الكبرى وهي الشقاوة الأبدية بالشرك والكفر ، وقد تكون خسارةً دون خسارة ، وهي خسران دخول الجنة ابتداءً بلا عذاب أو خسران المنازل العلية في الجنة .

رابعاً /أن في السورة الحث على الصبر ، والصبر على ثلاثة أنواع : صبرٌ على فعل الطاعات ، وصبرٌ على ترك المحرمات وصبرٌ على أقدار الله المؤلمة ، فإن كل ذلك يحتاج إلى صبر ، ففعل العبادات فيه كلفة ومشقة كالحج والجهاد والصيام وبعض الصلوات كصلاة الفجر وقيام الليل ، وأيضاً الزكاة تحتاج إلى صبر فليس إخراج المال بسهلٍ على النفوس ، وهكذا ترك المحرمات يحتاج إلى صبر كترك النظر والسماع خاصةً لمن اعتاد على بعضها ، وهكذا المصائب والبلايا تحتاج إلى صبر ولذلك قال عمر رضي الله عنه : وجدنا خير عيشنا بالصبر . رواه البخاري فمن ألزم نفسه الصبر ودعا غيره إلى ذلك كان من الناجين من الخسران .

سورة الهمزة مكية وآياتها (٩)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَۭ ﴿٩﴾ ﴾

تفسير سورة الهمزة

اختلف في كلمة ويل فقيل هي وادٍ في جهنم شديد الحر بعيد القعر ، وأنكر الأصمعي أن يكون هذا موضوعٌ له في اللغة وأن من قال ذلك إنما أراد أن من قال الله فيهم ذلك أنهم مستحقون النار . ويشهد لهذا أنها جاءت مقترنة مع ذكر النار في قوله

تعالى ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾ سورة ص وقوله تعالى ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ ﴾ سورة الزخرف وقوله تعالى ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ سورة الذاريات ونحو ذلك من الآيات .

وقيل هي كلمة ذمٍ وتقبيح ، قال الأصمعي : معنى ويل أي قبح ، وقد يستعمل على التحسر .انتهى

وقيل هي كلمة وعيدٍ وتهديد كما قال تعالى ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ سورة البقرة

وقيل هي كلمة تقال عند نزول الشدة والعذاب والهلكة قال تعالى ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ سورة الأنبياء ومنه قوله تعالى عن أصحاب الجنة ﴿ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ سورة القلم

وقيل هي كلمة تقال عند شدة التعجب من وقوع الأمر المستبعد كما قالت سارة عليها السلام لما جاءتها البشرى بالولد ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ ﴾ سورة هود

وقوله تعالى ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ أي كثير الهمز واللمز وهو انتقاص الناس في الحضور والغيبة قال بن كثير : قال الربيع بن أنس : الهمزة يهمزه في وجهه واللمزة من خلفه . انتهى من تفسيره وقال القرطبي : قال أبو العالية والحسن ومجاهد وعطاء بن أبي رباح : الهمزة الذي يغتاب ويطعن في وجه الرجل ، واللمزة الذي يغتابه من خلفه إذا غاب ...واختار هذا القول النحاس ومنه قوله تعالى ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ سورة التوبة من آية (٥٨) وقال مقاتل ضد هذا الكلام أن الهمزة الذي يغتاب بالغيبة واللمزة الذي يغتاب في الوجه . انتهى من تفسيره . ورجح سالم عطية قول مقاتل وقال في قوله تعالى ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾ سورة الحجرات من آية (١١) وقوله ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ سورة التوبة من آية (٥٨) ما يدل على أنها أقرب للتنقص في الحضور لا في الغيبة . انتهى من تتمة أضواء البيان .

وقيل إن الهمز بالفعل واللمز باللسان وهو مرويٌ عن مجاهد ، وقيل العكس الهمز باللسان واللمز بالفعل وهو مرويٌ عن سفيان الثوري وبن كيسان .

والفعل مثل ان يلوي وجهه أو يشير بيده أو يغمز بعينه ونحو ذلك منتقصاً للمشار إليه

والآية سيقت في ذم من اتصف بهذه الصفات القبيحة وأنه متوعدٌ بالعذاب

ثم قال تعالى ﴿ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴾ وهذه صفة ذميمة أخرى وهي شدة الشغف بالمال حيث يكون همه كله جمع المال وربما لا يبالي في تحصيله من أي طريق سواءً كان مباحاً أو محرماً وإنما الهدف جمع المال ، ومن شدة شغفه به أنه يكثر تعداده مرةً بعد مرةٍ خشية أن يكون نقص منه شيء مع أنه لم يصرف منه شيء ، وقيل عدده أي جعله عدةً لنوائب الدهر قال العثيمين : هذا وإن كان اللفظ يحتمله لكنه بعيد ، لأن إعداد المال لنوائب الدهر مع القيام بالواجب بأداء ما يجب فيه من زكاةٍ وحقوق ليس

مذموماً . انتهى من تفسيره ثم قال تعالى ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴾ أي يظن أنه إذا كان معه مال فلن يموت قال الله ﴿ كَلَّا ﴾ أي ليس الأمر كما يعتقد بل سيموت ثم يرد إلى الله عز وجل وهناك يلقى جزاءه ولذلك قال تعالى ﴿ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلْحُطَمَةِ ﴾ أي ليطرحن في الحطمة وهي النار التي تحطم كلما يلقى فيها فَتُكَسِّرُهُ وتفتته ثم بيَّن الله تعالى ماهية الحطمة فقال ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴾ صيغة تعظيم وتفخيم ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴾ المسعرة المسجرة وأضافها إلى نفسه إضافة تشريف لأنها عقوبة عدلٍ لا ظلم وانتصارٌ للحق وأهله الذين طالما نالهم الأذى من أعداء الله ﴿ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴾ أي تصل إلى القلوب من شدة حرارتها لأن الأفئدة جمع فؤاد وهو القلب ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ أي مغلقةٌ مطبقة ﴿ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ وصدت الأبواب بالأعمدة فصارت كالقفل لها فهي محكمة الإغلاق عليهم ليس لهم منها مفرٌ ولا منجى .

من دروس سورة الهمزة :

أولاً / أن تنقص المؤمنين بالقول أو بالفعل من الأمور المحرمة والغيبة من كبائر الذنوب فينبغي على المؤمن الحذر من هذه الأفعال وعدم السماح للآخرين بذم الناس أو تنقصهم عنده لئلا يكون شريكاً لهم في الإثم .

ثانياً / أن البخل بالمال عن الحق الواجب من الزكاة والنفقات الواجبة ، والحرص على جمعه وتخزينه دون نظرٍ في الحل والحرمة ، من الصفات المقيتة المذمومة عند الله ، وإنما يفعل ذلك من ينسى الموت والبعث ويظن أنه إذا كان ذا مالٍ كثير أنه سيعمر ولن يدركه الموت قريباً ، وما علم أن العذاب منه قريب إن لم يتب إلى ربه عاجلاً قبل حلول الأجل .

ثالثاً / أن من أسماء جهنم الحطمة لأنها تحطم كل شيءٍ يقع فيها ، وهي النار الموقدة التي تستعر وتتوقد من شدة الحرارة واللهب ، فإذا ألقي فيها الكفار أغلقت أبوابها عليهم ثم جعل من خلف الأبواب أعمدة إحكاماً في الغلق فلا يجدون مخرجاً ولا مهرباً منها.

سورة الفيل مكية وآياتها (٥)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾

تفسير سورة الفيل

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ ﴾ يخبر تعالى عن قصة أصحاب الفيل وهم أبرهة وقومه حين غزو الكعبة ومعهم فيلٌ عظيم يريدون أن يهدموا به الكعبة المشرفة فسلط الله عليهم العذاب وجعل ما كادوه لهدم الكعبة في خسارٍ ووبالٍ عليهم ، والقصة ذكرها المؤرخون وملخصها أن أبرهة الأشرم ملك اليمن أراد أن يصد العرب عن الحج للكعبة فبنى

بيتاً عظيماً يشبه الكعبة ودعا الناس إلى الحج إليه فغضب بعض العرب وذهب أحدهم إلى ذلك البيت الذي بناه ابرهة فتغوط فيه ولطخ جدرانه بالقذر فلما رآه أبرهة على هذه الصورة غضب غضباً شديداً وأقسم ليهدمن الكعبة فسار بجيشٍ عظيمٍ مجهز بالعدد والعتاد ومعهم الفيلة وعلى رأسها فيلٌ ضخم جلبه من الحبشة ليهدم به الكعبة فلما بلغوا مكاناً يدعى المغمس بالقرب من مكة وقف الفيل وأبى أن يتجه للكعبة فزجروه وحاولوا فيه بشتى السبل فما استطاعوا ولما وجهوه لليمن انطلق يهرول وإذا وجهوه للكعبة يأبى ويحرن فبقوا في مكانهم متحيرين ثم إن الله تعالى أرسل عليهم طيراً أبابيل كما قال تعالى ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ ﴾ أي جماعات متفرقة يتبع بعضها بعضاً تحمل في أرجلها ومناقيرها حجارةً صغيرة من سجيل قال تعالى﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ أي من طينٍ مشوي كما قال تعالى عن قوم لوط عليه السلام ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ من (٧٤) سورة الحجر وقال تعالى في آيةٍ أخرى ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ سورة الذاريات فبين أن السجيل هو الطين ، ولا شك أنه طين عذاب ، وقد قيل أنه يضرب الواحد منهم في رأسه ويخرج من دبره حتى أهلكهم الله ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ كزرعٍ أكلته الدواب ووطئته بأقدامها حتى تفتت .

من دروس سورة الفيل :

أولاً / أن الله تعالى يذكر في القران قصص الأمم الغابرة من المكذبين والمفسدين في الأرض وكيف انتقم الله منهم لأخذ العظة والعبرة لا للتسلية .

ثانياً / أن الله حفظ الكعبة من أبرهة وسيحفظها ما دام الناس يعظمونها ويعبدون الله جل وعلا عندها ، فإذا هجرها أهلها ولم يذكروا الله تعالى عندها في آخر الزمان تُهدم الكعبة ، يهدمها ذو السويقتين من الحبشة ينقضها حجراً حجراً .

ثالثاً / أن كيد الكافرين ومكرهم مهما عظم فنهايته الخسران والوبال عليهم وستكون العاقبة لأولياء الله المتقين .

سورة قريش مكية وآياتها أربع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾

تفسير سورة قريش

في لام ﴿ لِإِيلَٰفِ ﴾ قولان لأهل العلم الأول : أنها متعلقة بما قبلها أي بقصة أصحاب الفيل أي أهلكنا أصحاب الفيل لإيلاف قريش أي لإتلافهم واجتماعهم في بلدهم آمنين .

والقول الثاني : أنها متعلقة بما بعدها أي برحلة الشتاء والصيف أي جعلناهم يألفون ويعتادون على هاتين الرحلتين آمنين مطمئنين في أسفارهم وعودهم .

قال بن كثير : قال بن جرير : الصواب أن اللام لام التعجب كأنه يقوا اعجبوا لإيلاف قريش ونعمتي عليهم في ذلك . قال: وذلك لإجماع المسلمين على أنهما سورتان منفصلتان مستقلتان . انتهى من تفسير بن كثير وقال سالم عطية في تتمة أضواء البيان : ما اعترض به ابن جرير بأنه يلزم عليه اتصال السورتين فليس بلازم لأنه إن أراد اتصالهما في المعنى فالقران كله متصلة سوره معنى ... وإن أراد أتصالاً حساً بعدم البسملة فنظيرها سورة براءة مع الأنفال ولكن لا حاجة إلى ذلك لأن إجماع القراء على إثبات البسملة بينهما اللهم إلا مصحف أبي بن كعب وليس في هذين الوجهين وجه أرجح من وجه ولذا لم يرجح بينهما أحد المفسرين سوى بن جرير رحمه الله وصحة الوجهين أقوى وأعم في الامتنان وتعداد النعم . (أضواء البيان ١٥١/٦)

وحمل الآيات على كل المعاني التي تحتملها أولى من حملها على بعضها واطراح البعض . ولذلك يكون معنى ﴿ لِإِيلَٰفِ ﴾ يشمل الألفة والاعتياد ويشمل التآلف والاجتماع .

﴿ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ ﴾ كانت لقريشٍ رحلتان : رحلةٌ في الصيف إلى الشام لأنها باردة ، ورحلةٌ في الشتاء إلى اليمن لأنها دافئة ، والمراد المناطق المنخفضة لا العالية فإنها باردة . وكانوا آمنين في رحلاتهم تلك فلا يتعرض لهم أحد بسوء بل يكرمونهم ويعظمونهم ويقولون هؤلاء سكان حرم الله وولاة بيته .

﴿ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ﴾ أي فليخلصوا العبادة لله وحده وليشكروه على ما امتن عليهم به من هذه النعمة فإنه تعالى رب هذا البيت الحرام الذي تعظمهم الناس لأجله ، وهو ﴿ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ۝٤ ﴾ حيث كان الناس يقدمون بالمؤن والأرزاق في مواسم الحج والعمرة إلى مكة فلا يحتاج أهل مكة إلى السفر والترحال كما قال تعالى ﴿ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا ﴾ وكان الناس يعظمون أهل مكة لمقام الحرم عندهم فلا يتعرضون لهم بسوء في مقامهم ولا في أسفارهم فكانوا آمنين في حلهم وترحالهم ، فأمرهم الله تعالى أن يشكروه على هذه النعمة ويعبدوه وحده لا شريك له فهو المستحق للعبادة وحده .

من دروس سورة قريش :

أولاً / أن الله امتن على قريشٍ بالرحلتين إلى الشام واليمن لما يحصل لهم فيهما من التجارة والمكاسب والأرزاق وهكذا ينبغي لمن وفقه الله لعملٍ يدر عليه رزقاً أن يشكر الله تعالى عليه فإن الله تعالى هو الذي قدره له ويسره له .

ثانياً / أن قريشاً كانوا آمنين في رحلاتهم تلك لأنهم أهل بيت الله والناس تعظمهم وتحترمهم ولا تعتدي عليهم لأجل ذلك فأمرهم الله جل وعلا أن يعبدوه فهو رب البيت الذي تعظمهم الناس لأجله .

ثالثاً / أن وجود الطعام ووجود الأمن من أعظم النعم التي ينبغي على العبد أن يشكر الله تعالى عليها ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول (من أصبح منكم آمناً في سربه ، معافى في جسده ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا) رواه الترمذي وبن ماجة وحسنه الألباني .

سورة الماعون مكية وآياتها (٧)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾

تفسير سورة الماعون

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ ﴾ أرءيت يا محمد صنيع الكافر الذي يكذب بيوم القيامة يوم الجزاء والحساب .

﴿ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ ﴾ فإن من صنيعه أنه ﴿ يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴾ أي يدفعه بشدة ، نظيره ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾ أي يُدْفَعُونَ فيها دفعاً بشدة ، فمن صنيع الكافر أنه يدفع اليتيم عن حقه فيظلمه ويأكل ماله . قال قتادة : يقهره ويظلمه . وقال مجاهد : لا يطعمه .

﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ ﴾ ومن صنيع الكافر أنه لا يحث غيره على إطعام المسكين المحتاج للطعام ، ومن باب أولى أنه لا يقوم بإطعامه بنفسه . وذلك دليلٌ على جشاعة نفوس الكفرة وأنهم وراء مصالح أنفسهم فمن كان لهم من وراءه مصلحة أو كان قوياً أجلُّوه وعظموه ، وإن لم يكن لهم من وراءه مصلحة وكانوا عليه قادرين أهانوه واحتقروه .

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ ﴾ أي فويلٌ لمن كانوا ممن تجب عليهم الصلاة فأخروها عن وقتها أو تركوها بالكلية ولم يصلوها إلا رياءً وقد قيل في معنى ﴿ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ثلاثة أقوال :

الأول / أنهم تركوها بالكلية وإن صلوا فرياءً . وهو قول بن عباس ومجاهد وابن زيد والضحاك ، قال بن عباس : هُمُ الْمُنَافِقُونَ يَتْرُكُونَ الصَّلاَةَ فِي السِّرِّ ، وَيُصَلُّونَ فِي الْعَلاَنِيَةِ . وقال مجاهد : هم المنافقون .

الثاني / أنهم لم يتركوها بالكلية ولكنهم يؤخرونها عن وقتها . وهو قول سعد بن أبي وقاص وبن مسعود وبن عباس ومسروق وابن أبزى وأبو الضحى ومسلم بن صبيح .

الثالث / أنهم اللاهون الغافلون المتشاغلون عن الصلاة فمرةً يصلونها ومرةً يتركونها ومرةً يؤخرونها عن وقتها . قال مجاهد : يتهاونون . وقال : لاهون . وقال قتادة : غافلون . وقال : ساهٍ عنها لا يبالي صلى أم لم يصلِّ . ورجح هذا القول بن جرير الطبري وذكر أنه يجمع الأقوال كلها .

تنبيه : قال عطاء بن يسار : الحمد لله الذي قال ﴿ عَن صَلَاتِهِمْ ﴾ ولم يقل في صلاتهم . انتهى . لأنه لا أحد يسلم من السهو في الصلاة حتى النبي صلى الله عليه وسلم سها في صلاته وسجد سجدتين للسهو .

قوله تعالى ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾ من الآيات التي لا يستدل بها وحدها حتى تنضم إلى الآية التي تليها حتى يتم المعنى ويكون صحيحاً ، وهكذا مثلها كثير في النصوص ، وإنما يستدل بها ونحوها منفردة عن تمام المعنى أهل الضلال والزيغ والشهوات ولذلك يقول شاعرهم :

دع المساجد للعباد تسكنها وسر بنا إلى حانة الخمار يسقينا

ما قال ربك ويلٌ للأولى سكروا ، وإنما قال ويلٌ للمصلينا

قوله تعالى ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كنا نعد الماعون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم عارية الدلو والقدر والفأس والميزان وما تتعاطون بينكم . ذكره في الدر المنثور . وهو قول بن عباس وسعيد بن جبير . وقد

قيل لعكرمة مولى ابن عباس : من منع شيئا من المتاع كان له الويل؟ قال : لا ، ولكن من جمع ثلاثتهن فله الويل. يعني : التهاون بالصلاة والرياء والبخل بالماعون .

وقيل الماعون هو الزكاة المفروضة وهو مروي عن علي بن أبي طالب وبن عباس وزيد بن أسلم ومجاهد والضحاك وبن الحنفية ومالك بن أنس قال زيد بن أسلم : أولئك المنافقون ظهرت الصلاة فصلوها وخفيت الزكاة فمنعوها. انتهى . فهم لا يصلون إلا رياءً ولا يزكون إلا خوفاً فإن أمنوا من الناس لم يصلوا ولم يزكوا .

وقيل الماعون يشمل الزكاة ويشمل العارية وهو قول بن عمر وعكرمة وقد روى الطبري بسنده عَنْ أَبِي الْمُغِيرَةِ قَالَ : سَأَلَ رَجُلٌ ابْنَ عُمَرَ عَنِ الْمَاعُونِ ؟ قَالَ : هُوَ الْمَالُ الَّذِي لاَ يُؤَدَّى حَقُّهُ . قَالَ : قُلْتُ : إِنَّ ابْنَ أُمِّ عَبْدٍ يَقُولُ : هُوَ الْمَتَاعُ الَّذِي يَتَعَاطَاهُ النَّاسُ بَيْنَهُمْ ، قَالَ : هُوَ مَا أَقُولُ لَكَ . انتهى . أي أن من حق المال الزكاة ومن حقه العارية . وقال البخاري : قَالَ عِكْرِمَةُ أَعْلاَهَا الزَّكَاةُ الْمَفْرُوضَةُ وَأَدْنَاهَا عَارِيَّةُ الْمَتَاعِ. انتهى. وروي عن عكرمة : رأس الماعون زكاة المال وأدناه المنخل والدلو والإبرة .

وقيل الماعون هو المعروف كله الذي يتعاطاه الناس فيما بينهم . وهو قول محمد بن كعب والكلبي .

وقال سعيد بن المسيب : الماعون بلسان قريش المال .

وقيل : هو الماء والكلأ . وقيل هو الماء وحده وهو قول الفراء .

وقيل : أن الماعون أصله من معن أي قليل فسمى الله تعالى الزكاة والصدقة ونحوهما من المعروف ماعوناً لأنه قليلٌ من كثير.

وقيل أصله من معونة أي مساعدة أعان يعين عوناً ومعونةً وماعوناً فالمنافق خبيث الخلق لا يسعى في مساعدة الآخرين .

من دروس سورة الماعون :

أولاً / أن الكافر المكذب بالبعث خبيث الطبع قليل المروءة عديم الأخلاق فهو لا يرحم اليتيم ولا يعطف على المسكين .

ثانياً / أن الإحسان إلى الضعفة من اليتامى والأرامل والمساكين من الأعمال الصالحة التي يحبها الله جل وعلا فينبغي للمؤمن أن يتخلق بها ويتجنب أخلاق الكافرين الذين لا يرحمونهم ولا يعطفون عليهم .

ثالثاً / أن الصلاة منزلتها عالية عند الله ولذلك ذم الله الذين يتهاونون فيها فيتركونها بالكلية أو يؤخرونها عن وقتها أو يصلون مرةً ويتركون مرة وكذلك الذين يصلون رياء فكل هؤلاء ينتظرهم الويل وهو التهديد والوعيد الشديد من الله . وقيل هو وادٍ في جهنم شديد الحر بعيد القعر نسأل الله العفو والعافية .

رابعاً / أن الزكاة قرينة الصلاة وتذكر غالباً معها كقوله تعالى ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ من (٤٣) سورة البقرة في آياتٍ كثيرات ولذلك قال كثيرٌ من المفسرين أن قوله تعالى﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ أي يمنعون الزكاة ، فهم متوعدون بالويل كما أن المتهاونين في الصلاة متوعدون بالويل .

خامساً / أن الدين يهذب الأخلاق ويزكي النفوس ، ولذلك أمر الله بالإحسان إلى الناس جميعاً ، وذم الذين لا يتساعدون مع الناس ويمنعونهم الماعون ، وهو الدلو والفأس والقدر ونحو ذلك مما يمكن أن ينتفع به الآخر ويرده إلى صاحبه ، فتتآلف النفوس ، وتعظم المودة ، ويكسب الأجر ، ولم يخسر شيئاً ، والذي يمنع الماعون خسر الأجر ، وخسر الأخلاق الفاضلة فأصبح فعله مذموماً عند الله ويوشك أن لا يبارك له في ماعونه .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣ ﴾

تفسير سورة الكوثر

سورة الكوثر وهي مكية في قول ابن عباس والكلبي ومقاتل . وقيل مدنية وهو قول الحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة . ذكره القرطبي في تفسيره . وقال السيوطي : مكية وآياتها ثلاث . أَخْرَج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ

﴿١﴾ ﴾ بمكة . وعن ابن الزبير وعائشة مثله... وَأخرَج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وَابن جَرِير وَابن المنذر وَابن مردويه والبيهقي في "سُنَنِه" عن أنس بن مالك قال : أغفي رسول الله صلى الله عليه وسلم إغفاءةً فرفع رأسه متبسماً فقال : إنه نزلت علي آنفاً سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ حتى ختمها قال : هل تدرون ما الكوثر؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : هو نَهرٌ أعطانيه ربي في الجنة عليه خيرٌ كثير ترده أمتي يوم القيامة آنيته عدد الكواكب يختلج العبد منهم فأقول يا رب إنه من أمتي فيقال : إنك لا تدري ما أحدث بعدك . وأخرج مسلم البيهقي من وجهٍ آخر بلفظ : ثم رفع رأسه فقرأ إلى آخر السورة . قال البيهقي : والمشهور فيما بين أهل التفاسير والمغازي أن هذه السورة مكية وهذا اللفظ لا يخالفه فيشبه أن يكون أولى. انتهى من الدر المنثور .

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ ﴾ هو الخير الكثير الذي أعطاه الله جل وعلا لنبيه صلى الله عليه وسلم في الجنة ومن ذلك الخير الذي أعطاه نهرٌ في الجنة يدعى الكوثر فعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : لَمَّا عُرِجَ بِالنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم إِلَى السَّمَاءِ قَالَ (أَتَيْتُ عَلَى نَهَرٍ حَافَتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ مُجَوَّفًا ، فَقُلْتُ مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ : هَذَا الْكَوْثَرُ) رواه البخاري وفي لفظٍ له (بَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ فِي الْجَنَّةِ إِذَا أَنَا بِنَهَرٍ حَافَتَاهُ قِبَابُ الدُّرِّ الْمُجَوَّفِ قُلْتُ مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ قَالَ هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِي أَعْطَاكَ رَبُّكَ فَإِذَا طِينُهُ ، أَوْ طِيبُهُ – مِسْكٌ أَذْفَرُ) شَكَّ هُدْبَةُ . وعَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ قَالَ : سَأَلْت عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ قَالَتْ : نَهْرٌ أُعْطِيَهُ نَبِيُّكُمْ صلى الله عليه وسلم شَاطِئَاهُ عَلَيْهِ دُرٌّ مُجَوَّفٌ آنِيَتُهُ كَعَدَدِ النُّجُومِ. رواه البخاري . وعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ فِي الْكَوْثَرِ هُوَ الْخَيْرُ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ قَالَ أَبُو بِشْرٍ قُلْتُ لِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فَإِنَّ النَّاسَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ فَقَالَ سَعِيدٌ النَّهَرُ الَّذِي فِي الْجَنَّةِ مِنَ الْخَيْرِ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاه . رواه البخاري . قال السيوطي : وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وصححه وَابن ماجة وَابن جَرِير وَابن المنذر وَابن مردويه عن عطاء بن السائب قال : قال لي محارب بن دثار ما قال سعيد بن جبير في الكوثر؟ قلت : حدثنا عن ابن عباس أنه الخير الكثير . فقال : صدقت والله إنه للخير الكثير ، ولكن حدثنا ابن عمر قال : نزلت ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الكوثر نهر في الجنة حافتاه من ذهب يجري على الدر والياقوت تربته أطيب من المسك وماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل... وأخرج ابن جرير وَابن عساكر عن مجاهد رضي الله عنه قال : الكوثر خير الدنيا والآخرة. وأخرج هناد وَابن جَرِير وَابن أبي حاتم وَابن عساكر عن عكرمة رضي الله عنه قال : الكوثر ما أعطاه الله من النبوة والخير والقرآن. وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : الكوثر القرآن. انتهى من الدر المنثور .

وللنبي صلى الله عليه وسلم حوضٌ في عرصات القيامة يصب فيه ميزابان من الكوثر قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرٍو : قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم (حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ مَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ مَنْ شَرِبَ مِنْهَا فَلاَ يَظْمَأُ أَبَدًا) رواه البخاري وعند مسلم (حَوْضي مَسِيرَةُ شَهْرٍ وَزَوَايَاهُ سَوَاءٌ وَمَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ الْوَرِقِ وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلاَ يَظْمَأُ بَعْدَهُ أَبَدًا) وعن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ (إِنَّ قَدْرَ حَوْضِي كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ وَصَنْعَاءَ مِنَ الْيَمَنِ وَإِنَّ فِيهِ مِنَ الأَبَارِيقِ كَعَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ) رواه البخاري وعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ :

قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا آنِيَةُ الْحَوْضِ قَالَ (وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ وَكَوَاكِبِهَا أَلاَ فِي اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ الْمُصْحِيَةِ آنِيَةُ الْجَنَّةِ مَنْ شَرِبَ مِنْهَا لَمْ يَظْمَأْ آخِرَ مَا عَلَيْهِ يَشْخُبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ عَرْضُهُ مِثْلُ طُولِهِ مَا بَيْنَ عَمَّانَ إِلَى أَيْلَةَ مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ) رواه مسلم

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ ﴾ أي اجعل صلاتك ونحرك خالصةً لله كقوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣ ﴾ وفيه دليلٌ على أن النحر عبادة كالصلاة وصرف العبادة لغير الله شركٌ أكبر . وقد روى بن جرير الطبري بسنده عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ ، أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي هَذِهِ الآيَةِ : إِنَّ نَاسًا كَانُوا يُصَلُّونَ لِغَيْرِ اللَّهِ ، وَيَنْحَرُونَ لِغَيْرِ اللَّهِ ، فَإِذَا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ يَا مُحَمَّدُ ، فَلاَ تَكُنْ صَلاَتُكَ وَنَحْرُكَ إِلاَّ لِي. انتهى من تفسيره. وعن بن عباسٍ قال ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ الصلاة المكتوبة والذبح يوم الأضحى وهو قول مقاتل . وعن مجاهد وعطاء وعكرمة قالوا : صلاة الصبح بجمع ونحر البدن بمنى . وعن قتادة : صلاة الأضحى ونحر البدن. وروي عن علي أنه وضع اليمين فوق اليسرى على الصدر في الصلاة . وروي الطبري عن أبي جعفر أنه رفع اليدين في تكبيرة الإحرام . قال الطبري : وَأَوْلَى هَذِهِ الأَقْوَالِ عِنْدِي بِالصَّوَابِ : قَوْلُ مَنْ قَالَ : مَعْنَى ذَلِكَ : فَاجْعَلْ صَلاَتَكَ كُلَّهَا لِرَبِّكَ خَالِصًا دُونَ مَا سِوَاهُ مِنَ الأَنْدَادِ وَالآلِهَةِ ، وَكَذَلِكَ نَحْرُكَ اجْعَلْهُ لَهُ دُونَ الأَوْثَانِ ، شُكْرًا لَهُ عَلَى مَا أَعْطَاكَ مِنَ الْكَرَامَةِ وَالْخَيْرِ الَّذِي لاَ كُفْءَ لَهُ وَخَصَّكَ بِهِ ، مِنْ إِعْطَائِهِ إِيَّاكَ الْكَوْثَرَ. وَإِنَّمَا قُلْتُ : ذَلِكَ أَوْلَى الأَقْوَالِ بِالصَّوَابِ فِي ذَلِكَ ، لِأَنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَخْبَرَ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا أَكْرَمَهُ بِهِ مِنْ عَطِيَّتِهِ وَكَرَامَتِهِ ، وَإِنْعَامِهِ عَلَيْهِ بِالْكَوْثَرِ ، ثُمَّ أَتْبَعَ ذَلِكَ قَوْلَهُ ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ فَكَانَ مَعْلُومًا بِذَلِكَ أَنَّهُ خَصَّهُ بِالصَّلاَةِ لَهُ ، وَالنَّحْرِ عَلَى الشُّكْرِ لَهُ ، عَلَى مَا أَعْلَمَهُ مِنَ النِّعْمَةِ الَّتِي أَنْعَمَهَا عَلَيْهِ ، بِإِعْطَائِهِ إِيَّاهُ الْكَوْثَرَ ، فَلَمْ يَكُنْ لِخُصُوصِ بَعْضِ الصَّلاَةِ بِذَلِكَ دُونَ بَعْضٍ ، وَبَعْضِ النَّحْرِ دُونَ بَعْضٍ وَجْهٌ ، إِذْ كَانَ حَتًّا عَلَى الشُّكْرِ عَلَى النِّعَمِ. فَتَأْوِيلُ الْكَلاَمِ إِذَنْ : إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ الْكَوْثَرَ ، إِنْعَامًا مِنَّا عَلَيْكَ بِهِ ، وَتَكْرُمَةً مِنَّا لَكَ ، فَأَخْلِصْ لِرَبِّكَ الْعِبَادَةَ وَأَفْرِدْ لَهُ صَلاَتَكَ وَنُسُكَكَ ، خِلاَفًا لِمَا يَفْعَلُهُ مَنْ كَفَرَ بِهِ ، وَعَبَدَ غَيْرَهُ ، وَنَحَرَ لِلأَوْثَانِ. انتهى من تفسيره .

﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣ ﴾ ﴿ شَانِئَكَ ﴾ منتقصك ومبغضك . وقال البخاري : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﴿ شَانِئَكَ ﴾ عَدُوَّكَ. انتهى. ﴿ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ أي المقطوع . قيل أنها نزلت في العاص بن وائل كان ينتقص النبي صلى الله عليه وسلم ويصفه بالأبتر أي مقطوع الذكر لأنه لا ولد له ذكر فإذا مات انقطع ذكره فأنزل الله هذه السورة وأعطى الله نبيه الكوثر وأخبره أن منتقصه وعدوه هو الأبتر المقطوع الذكر في الدنيا والآخرة ولا يذكر إن ذكر إلا بسوء ، وأما النبي صلى الله عليه وسلم فرفع الله ذكره كما قال تعالى ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾وأعلى شأنه ومكانه في الدنيا والآخرة فشتان بين الشخصين . قال السيوطي: وأخرج ابن سعد وَابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : كان أكبر ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم القاسم ثم زينب ثم عبد الله ثم أم كلثوم ثم فاطمة ثم رقية فمات القاسم وهو أول ميت من ولده بمكة ثم مات عبد الله فقال العاصي بن وائل السهمي : قد انقطع نسله فهو أبتر فأنزل الله ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ . انتهى من الدر المنثور .﴿ هُوَ

ٱلْأَبْتَرُ ﴾ قال قتادة : الحقير الرقيق الذليل . قال الطبري : مُبْغِضَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الأَقَلُّ الأَذَلُّ ، الْمُنْقَطِعُ عَقِبُهُ ، فَذَلِكَ صِفَةُ كُلِّ مَنْ أَبْغَضَهُ مِنَ النَّاسِ ، وَإِنْ كَانَتِ الآيَةُ نَزَلَتْ فِي شَخْصٍ بِعَيْنِهِ . انتهى .

من دروس سورة الكوثر :

أولاً / عظم منزلة النبي صلى الله عليه وسلم عند ربه جل وعلا ، فإن الله جل وعلا عوضه عن بعض ما يلاقي في الله بالكوثر وهو الخير الكثير ونهرٌ في الجنة ، وأن من صلى عليه صلاةً صلى الله عليه بها عشراً ، وأن له الشفاعة العظمى ، وأن من ينتقصه هو الناقص الخاسر في الدنيا والآخرة ، وهذا بعض ما أعطاه الله لنبيه وعنده له المزيد كما قال تعالى ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥ ﴾ سورة الضحى وإذا كان الله تعالى قال (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر) فإن للنبي صلى الله عليه وسلم من ذلك الحظ الأوفر .

ثانياً / أن الكوثر ليس هو الحوض فالكوثر نهرٌ في الجنة والحوض في عرصات القيامة ، غير أن الحوض يصب فيه ميزابان من نهر الكوثر فهو يتغذى من الكوثر ، ولذلك من شرب منه فقد شرب من الكوثر ، وتلك الشربة لا ظمأ بعدها ، نسأل الله تعالى أن نكون من أهلها .

ثالثاً / أن الذبح عبادة كالصلاة ولا يجوز صرف العبادة لغير الله ، وبذلك نعلم أن ما يفعله الجهلة من الذبح للأولياء والصالحين من الشرك الأكبر .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾

تفسير سورة الكافرون

سورة الكافرون مكية وآياتها (٦) قال الماوردي : مكية في قول ابن مسعود والحسن وعكرمة ، ومدنية في أحد قولي ابن عباس وقتادة والضحاك . انتهى.

وسبب نزول السورة فيما ذكره المفسرون أن كفار قريش عرضوا على النبي صلى الله عليه وسلم أن يعبد آلهتهم سنةً ويعبدوا إلهه سنة . قال السيوطي : أخرج ابن جرير وَابن أبي حاتم والطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما أن قريشاً دعت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجلٍ بمكة ، ويزوجوه ما أراد من النساء ، فقالوا : هذا لك يا محمد وكف عن شتم آلهتنا ، ولا تذكر آلهتنا بسوء ، فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلةً واحدة ولك فيها صلاح قال: ما هي؟ قالوا : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، قال : حتى أنظر ما يأتيني من ربي فجاء الوحي من عند الله ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ ﴾ الآية ، وأنزل الله ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ۝٦٤ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٦ ﴾ سورة الزمر

ومن فضائل هذه السورة ما ورد عن بن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً (﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ تعدل ربع القران) رواه الطبراني وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٤٤٠٥) وقال في السلسلة الصحيحة (١٣١/٢) الحديث حسن بمجموع الطرق . وقال في الضعيفة (١٤٨٤) الحديث ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم بمجموع طرقه .

ومن فضائل هذه السورة ما ذكره بن كثيرٍ في تفسيره فقال : ثبت في صحيح مسلم عن جابر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ بهذه السورة ، وبـ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ في ركعتي الطواف. وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ بهما في ركعتي الفجر... وعن ابن عمر قال : رَمقتُ النبي صلى الله عليه وسلم شهرًا وكان يقرأ في الركعتين قبل الفجر بـ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ و﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾... وعن الحارث بن جبلة قال : قلت : يا رسول الله ، علمني شيئاً أقوله عند منامي. قال (إذا أخذت مضجعَك من الليل فاقرأ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ فإنها براءة من الشرك) . انتهى .

وقال السيوطي : أخرج الحاكم وصححه عن أبي قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوتر بسبح وقل للذين كفروا والله الواحد الصمد. انتهى من الدر المنثور

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ ﴾ (ما) في هذه الآية والآيات التي تليها موصولة بمعنى (الذي) أي : لا أعبد الذي تعبدون من الأصنام والأوثان ونحوها ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ ﴾ أي ولا أنتم تعبدون الذي أعبد وهو الله أي لا تعبدون الله أو لا تفردون الله بالعبادة بل تشركون معه غيره . قال بن القيم : لا يوصف بأنه عابدٌ لله ، وأنه عبده المستقيم على عبادته : إلا من انقطع إليه بكليته ، وتبتل إليه تبتيلاً ، لم يلتفت إلى غيره ، ولم يشرك به أحداً في عبادته ، وأنه إن عبده وأشرك معه غيره ، فليس عابداً لله ، ولا عبداً له . وهذا من أسرار هذه السورة العظيمة الجليلة ، التي هي إحدى سورتي الإخلاص . انتهى.

﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ ﴾ اختلف العلماء فيها على أقوال :

القول الأول / أن المراد في المستقبل أي لا أعبد آلهتكم في المستقبل ، ولا تعبدوا إلهي في المستقبل ، وتكون قيلت لأشخاصٍ قد علم الله أنهم لا يؤمنون أبداً . وقد ذكر ابن إسحاق وغيره عن ابن عباسٍ : أنهم الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل والأسود بن

عبد المطلب ، وأمية بن خلف ، وكلهم ماتوا على الشرك . قال الطبري : وإنما قيل ذلك كذلك لأن الخطاب من الله كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم في أشخاصٍ بأعيانهم من المشركين قد علم أنهم لا يؤمنون أبداً وسبق لهم ذلك في السابق من علمه ، فأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يؤيسهم من الذي طمعوا فيه وحدثوا به أنفسهم وأن ذلك غير كائنٍ منه ولا منهم في وقتٍ من الأوقات . انتهى.

لكن قال بعض العلماء : هذا القول ضعيف لأن الأصل حمل الآيات على العموم ولو نزلت بسببٍ خاص فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، والأمر بالقول وإن كان لفظه خاصاً بالنبي صلى الله عليه وسلم أن يقوله لكفارٍ سواءً قلنا معينين أو على العموم لكن أمته مأمورة بالاقتداء به ، وأن يقولوه لكل كافرٍ يدعوهم إلى عبادة آلهته ، وهم لا يعلمون ما تختم به حياة هذا الكافر فقد يسلم ، وهذا يضعف أن يكون المراد بها الاستقبال .

القول الثاني / أن المراد في الماضي أي ما كنت عابداً ما عبدتم من الآلهة في الماضي ، ولا أنتم عابدون لله في الماضي . ذكر هذا القرطبي في تفسيره . وقال بن القيم : قوله ﴿ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ ﴾ نفى للحال والمستقبل ، وقوله ﴿ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣ ﴾ مقابله ، أي لا تفعلون ذلك . وقوله ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ﴾ أي لم يكن مني ذلك قط قبل نزول الوحي ، ولهذا أتى في عبادتهم بلفظ الماضي فقال ﴿ مَّا عَبَدتُّمۡ ﴾ فكأنه قال : لم أعبد قط ما عبدتم. وقوله ﴿ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥ ﴾ مقابله ، أي لم تعبدوا قط في الماضي ما أعبده أنا دائماً ، وعلى هذا فلا تكرار أصلاً . وقد استوفت الآيات أقسام النفي ماضياً وحالاً ومستقبلاً عن عبادته وعبادتهم بأوجز لفظٍ وأخصره وأبينه ، وهذا إن شاء الله أحسن ما قيل فيها. انتهى. لكن اعترض بأن اسم الفاعل ﴿ عَابِدٞ ﴾ يدل على الاستقبال لأنه عمل ، وهو لا يعمل إلا إذا كان للاستقبال .

القول الثالث / أن التكرار للتأكيد ، وذلك لقطع أطماعهم ، كما تقول : والله لا أفعل كذا ، ثم والله لا أفعله . لكن قال العثيمين : قد يظن الظان أن هذه مكررة للتوكيد ، وليس كذلك لأن الصيغة مختلفة ﴿ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ ﴾ فعل. ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ ﴾ (عابد) و (عابدون) اسم ، والتوكيد لابد أن تكون الجملة الثانية كالأولى. انتهى.

القول الرابع / أنها لنفي القبول أي لن أقبل ولن أرضى أن أعبد آلهتكم ، ولن تقبلوا ولن ترضوا أن تعبدوا إلهي ، وهذا قول شيخ الإسلام بن تيمية ورجحه العثيمين . ويختلف عن القول الأول بأن القبول والرضا حالي وقد يتغير في المستقبل بخلاف ما لو قلنا أن النفي للاستقبال .

القول الخامس / أن قوله تعالى ﴿ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣ ﴾ لنفي المعبود أي : لا أنا أعبد أوثانكم ولا أنتم تعبدون الله . وقوله ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥ ﴾ لنفي العبادة أي : ليست عبادتي كعبادتكم ، ولا عبادتكم كعبادتي ، فعبادتي خالصةً لله ، وعبادتكم عبادة شرك .

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ للبراءة من الشرك وأهله كقوله تعالى ﴿ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾ من (٥٥) سورة القصص وقد ذكر بعض المفسرين ما مضمونه أن هذه الآية نهاية القسمة كما لو اقتسم رجلان أرضاً فقال أحدهما لصاحبه : لا تدخل في حدى ولا أدخل في حدك . ثم قال : لك أرضك ، ولي أرضي. فكذلك في هذه السورة بعد أن بين لهم أن معبوده غير معبودهم وعبادته ليست كعبادتهم . وهم كذلك . قال : تمت القسمة وعرف كلاً منا دينه ، فدينكم الكفر والشرك لا نرضى به ولا نقبله ، وديننا الإيمان والتوحيد .

وقال بعض المفسرين : الآية نزلت قبل فرضية الجهاد ، وأما بعد أن فرض الجهاد فيقاتل الكفار حتى يؤمنوا أو يدفعوا الجزية ولكن الصحيح إن شاء الله أن الجهاد لم يفرض لإجبار الناس على الدخول في الدين كما قال تعالى ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ من (٢٥٦) سورة البقرة ولكن فرض لمعاقبة المستكبرين في الأرض من المفسدين الحائلين بين الناس وبين الدخول في الدين . قال العثيمين : الصحيح أنها لا تنافي الأمر بالجهاد حتى نقول إنها منسوخة ، بل هي باقية ويجب أن نتبرأ من دين اليهود والنصارى والمشركين في كل وقت وحين ، ولهذا نقر اليهود والنصارى على دينهم بالجزية ، ونحن نعبد الله ، وهم يعبدون ما يعبدون . انتهى.

من دروس سورة الكافرون :

أولاً / أنه يجب مفاصلة الكافرين وعدم مداهنتهم في الدين ، فلا يجوز أن يتنازل المؤمن عن شيءٍ دينه إرضاءً للكافرين . ولو فعل فلن يرضوا حتى يتبع دينهم كما قال تعالى ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ من (١٢٠) سورة البقرة

ثانياً / أن من توحيد الله معاداة أعداءه وعدم موالاتهم ولا محبتهم ولا مداهنتهم في الدين بل بغضهم والتبرؤ منهم ومن عملهم كما قال تعالى ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ من (٢٢) سورة المجادلة

ثالثاً / أن هناك فرق بين المداهنة والمداراة والمعاملة فالمداهنة هي التنازل عن شيءٍ من الدين إرضاءً للكافرين فلا تجوز مطلقاً وأما المداراة فهي التنازل عن بعض الأمور الدنيوية كالمال مثلاً لصالح الكفار خشية شرهم فتجوز في أحوال ضعف المسلمين وأما

المعاملة فينبغي أن يتعامل المؤمن مع جميع الناس بالأخلاق الفاضلة من الأمانة والصدق والعفة ونحو ذلك ويجوز تبادل التجارات والصناعات والطب ونحو ذلك مع الكفار بضوابط الشريعة .

سورة النصر مدنية وآياتها (٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾

تفسير سورة النصر

وهي آخر سورةٍ نزلت من القرآن . قيل أنها نزلت في حجة الوداع في ثاني أيام التشريق . وهي حدٌ حده الله جل وعلا لنبيه وعلامة على قرب أجله فعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَأَلَهُمْ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ قَالُوا : فَتْحُ الْمَدَائِنِ وَالْقُصُورِ . قَالَ : مَا تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ . قَالَ : أَجَلْ ، أَوْ مَثَلٌ ضُرِبَ لِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم نُعِيَتْ لَهُ نَفْسُهُ . رواه البخاري وعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ فَقَالَ لِمَ تُدْخِلُ هَذَا مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ فَقَالَ عُمَرُ إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ عَلِمْتُمْ فَدَعَا ذَاتَ يَوْمٍ فَأَدْخَلَهُ مَعَهُمْ فَمَا رُئِيتُ أَنَّهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلاَّ لِيُرِيَهُمْ قَالَ مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ فَقَالَ بَعْضُهُمْ أُمِرْنَا نَحْمَدُ اللَّهَ

وَنَسْتَغْفِرُهُ إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا فَقَالَ لِي أَكَذَاكَ تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ فَقُلْتُ : لاَ . قَالَ : فَمَا تَقُولُ . قُلْتُ : هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَعْلَمَهُ لَهُ قَالَ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ وَذَلِكَ عَلاَمَةُ أَجَلِكَ ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ فَقَالَ عُمَرُ مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلاَّ مَا تَقُولُ .

وقوله تعالى ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ عن بن عباسٍ أن المراد فتح مكة وهو قول مجاهد .

﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ أفواجاً جمع فوج ، والفوج الجماعة من الناس ، أي إذا رأيت الناس يدخلون في الإسلام جماعاتٍ كثيرة بعد أن كانوا يدخلون فيه فرادى حتى صرت ترى القبيلة تدخل بأكملها في الإسلام . فهاتان العلامتان فتح مكة ودخول الناس في الإسلام جماعات إذا حصلتا ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ أي أكثر من ذلك فقد دنا أجلك ، وحياتك كانت عبادةً لله ، والعبادة دائماً يتبعها التسبيح والاستغفار في آخرها تتميماً وجبراناً لما قد يحصل فيها من خلل . قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ (سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي) يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ . رواه البخاري . أي يوقع حقيقة ما أمر به فيه ، والمراد في هذه السورة .

من دروس سورة النصر :

أولاً / أن العبادة لابد أن يتبعها تسبيح واستغفار حتى يتمم ما يحصل فيها من نقص ، وحتى يعلم العبد أنه مهما عمل من عبادةٍ لله فهو مقصر ، ويحتاج إلى تسبيح الرب وتعظيمه وتنزيهه عن القيام بحقه في هذه العبادة ، ويحتاج إلى الاستغفار من التقصير فيها .

ثانياً / التزام النبي صلى الله عليه وسلم بأوامر ربه ظاهراً وباطناً والعمل بكل ما طلب منه على وفق المطلوب من غير ترددٍ ولا مراجعة ، ولذلك كان يكثر من التسبيح والاستغفار حتى توفاه الله وهو الذي قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فينبغي أن نقتدي بنبينا صلى الله عليه وسلم ونتبع الأوامر ونجتنب النواهي من غير تململٍ ولا تضجر ، ونتبعها بالتسبيح والاستغفار من تقصيرنا في حق الله جل وعلا ، فإنه مهما عمل العبد من عمل فلن يوفي الله حقه ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا منكم عَمَلُهُ الْجَنَّةَ . قَالُوا ، وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ) متفق عليه .

ثالثاً / أنه ينبغي على الداعية ألا ييأس من عدم قبول دعوته في بداياتها ، فإنه يوشك أن يجد من يقبل دعوته ويتكاثر العدد فإن الإسلام بدأ غريباً ثم انتشر حتى صار الناس يدخلون في دين الله أفواجاً بعد أن كانوا يدخلون فيه فرادى .

رابعاً / أن من علامات الساعة خروج الناس من الدين أفواجاً كما دخلوا إليه أفواجاً وعودته غريباً كما بدأ قال صلى الله عليه وسلم (بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً فطوبى للغرباء) رواه مسلم وعن جارٍ لجابر بن عبد الله قال : قدمت من سفر فجاءني جابر بن عبد الله يسلم علي فجعلت أحدثه عن افتراق الناس وما أحدثوا فجعل جابر يبكي ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (إن الناس دخلوا في دين الله أفواجاً وسيخرجون منه أفواجاً) رواه أحمد وقال شعيب الأرنؤوط : إسناده ضعيف لجهالة جار جابر بن عبد الله .

سورة المسد مكية وآياتها (٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ ﴾

تفسير سورة المسد

عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ وَرَهْطَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا فَهَتَفَ : يَا صَبَاحَاهْ . فَقَالُوا : مَنْ هَذَا ؟ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ فَقَالَ (أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ ؟) قَالُوا : مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِباً . قَالَ (فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) قَالَ أَبُو لَهَبٍ : تَبًّا لَكَ مَا جَمَعْتَنَا إِلاَّ لِهَذَا ثُمَّ قَامَ فَنَزَلَتْ ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ وَقَدْ تَبَّ هَكَذَا قَرَأَهَا الأَعْمَشُ يَوْمَئِذٍ . رواه البخاري وعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم خَرَجَ إِلَى الْبَطْحَاءِ فَصَعِدَ إِلَى الْجَبَلِ فَنَادَى : يَا صَبَاحَاهْ . فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ فَقَالَ (أَرَأَيْتُمْ إِنْ حَدَّثْتُكُمْ أَنَّ الْعَدُوَّ مُصَبِّحُكُمْ ، أَوْ مُمَسِّيكُمْ أَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي؟) قَالُوا

: نَعَمْ . قَالَ (فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ : أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا تَبًّا لَكَ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ إِلَى آخِرِهَا. رواه البخاري

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ ﴾ أي خابت وخسرت يدا أبي لهب ، وخاب وخسر هو ، فَخَسِرَ أعماله وخَسِرَ نفسه . قال القرطبي : معنى تَبَّتْ : خسرت قاله قتادة. وقيل خابت قاله ابن عباس. وقيل ضلت قاله عطاء. وقيل هلكت قاله ابن جبير. انتهى. وهو من اختلاف التنوع لا التضاد ، وأبو لهب هو عمٌ للنبي صلى الله عليه وسلم واسمه عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم ويكنى بأبي لهب قيل لأن وجنتيه كانتا حمراوين كأنما يلتهب منهما النار قاله مقاتل بن سليمان .

﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ ﴾ من التجارة والأموال ، وقيل كسبه ولده . وقيل كسبه جاهه ومنصبه ، ويمكن أن يشمل جميع مكاسبه الدنيوية من المال والجاه والولد ونحو ذلك ، والمعنى أنها لن تمنعه من الله ، ولن ترد عنه عذاب الله .

﴿ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣ ﴾ أي ذات اشتعال قوي فإن اللهب لا يكون في الجمر وإنما في النار المتوقدة ، وكان كنيته أبو لهب فعاقبه الله بنارٍ ذات لهب ، ليكون له من كنيته نصيب .

﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ ﴾ أي امرأة أبي لهب واسمها أم جميل بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان ، كانت تلقب بالعوراء ، وكانت شديدة الأذية لنبي الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت تجمع الشوك والحطب وتلقيه على باب النبي صلى الله عليه وسلم حتى يتأذى به إذا خرج ، وكانت تقول : مذمماً عصينا – وأمره أبينا – ودينه قلينا. فاجتمع فيها وفي زوجها الشر وعداوة النبي صلى الله عليه وسلم .

وقيل المراد ب ﴿ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ﴾ أي نقالة الكلام . قال البخاري : قال مجاهد : تمشي بالنميمة . انتهى. وهو قول قتادة وعكرمة وسفيان والسدي ، والقول بأنه الشوك قول بن عباس والضحاك وعطية الجدلي وبن زيد ورجحه الطبري ، وروي عن سعيد بن جبير أن المراد حمالة الذنوب والخطايا . كأن المعنى أنها تحمل على ظهرها ما يكون وقوداً للنار التي ستصلاها . فشبه السيئات بالحطب الذي يوقد النار .

﴿ فِي جِيدِهَا ﴾ أي في عنقها ورقبتها ﴿ حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ۝٥ ﴾ قيل هي حبالٌ كانت بمكة تصنع من الشجر تفتل وتستخدم في ربط الحطب وغيره . وقيل تصنع من الليف وقيل من الصوف أو الوبر وقيل من الحديد . وأصل المسد : الفتل . يقال: مسد حبلة يمسده مسداً أي أجاد فتله . ذكره القرطبي. وقد وقيل المراد بالمسد : حبلٌ من نار جهنم . يعني من أنواع حبال جهنم التي يسلسل بها الكفار ويعذبون بها . وقيل أن حبلها الذي تجمع به الشوك والحطب لتؤذي به النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه سوف تعذب به في نار جهنم ، وقد قيل أنه التوى الحبل على رقبتها فخنقها فماتت ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (يبعث المرء يوم القيامة على ما مات عليه) فتبعث وهي مختنقة بحبلها هذا فيكون هذا من عذابها في الآخرة والعلم عند الله تعالى .

وأما أبو لهب فقيل أصابه داء العدس فمات به ، وكان كفار مكة يرون أن هذا الداء كالطاعون ينتقل ولو من ميت ، فلم يقترب منه أحد ، فبقي أياماً فتعفن فسحبوه وأسندوه على جبلٍ ورموه بالحجارة حتى أخفوا جثته .

من دروس سورة المسد :

أولاً / أن هذه السورة كما قال أهل العلم من دلائل صدق النبي صلى الله عليه وسلم وأنه مرسلٌ من ربه وأن القرآن كلام الله فإنها نزلت بالشقاء لأبي لهبٍ وزوجته وهما أحياء وأنهما سيموتان على الكفر وسيصليان النار ، وكان بإمكانهما أن يسلما ويتوبا فيكون ما ذكر عنهما في القران باطلاً ، لكن عِلْمُ الله السابق وَقَدَرُهُ فيهما كان على ما ذكره في كتابه عنهما .

ثانياً / أن كل من عارض أمر الله وحارب الدعاة والمخلصين فإن نهايته الخسران في الدنيا والآخرة ، ولن ينفعه جاهه وماله وولده ، وخسارته قريبة ما لم يبادر بالتوبة قبل وقوع النقمة عليه . وهذا المعنى ملموس من قوله﴿ وَتَبَّ ﴾ أي قد وقع في الخسارة .

ثالثاً / أن كل من يؤذي الدعاة بأمرٍ فإنه سيعذب بمثل ذلك الأمر ويكون في ضمن ما يعذب به في الدار الآخرة ، فإن امرأة أبي لهب كانت تخرج بحبلٍ تعلقه في جيدها لتربط به الحطب والشوك الذي تؤذي به النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فكان من عقابها في الآخرة أنه يعلق في رقبتها حبلٌ من نار .

رابعاً / أن النميمة مذمومة وهي من كبائر الذنوب وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (لا يدخل الجنة نمام) والنميمة توقد نيران العداوة بين الناس ولذلك فسر بعض السلف قوله تعالى ﴿ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾ بأن المراد النميمة .

خامساً / استنبط الإمام الشافعي رحمه الله من السورة صحة نكاح الكفار من قوله تعالى ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ ﴾ فإن الله تعالى أثبت أنها امرأته ولم ينكر صحة النكاح ، وقد ذكر بعضهم الإجماع على ذلك . وقد بلغ تعداد من أسلم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم قريباً من مائة ألف ، ولم يذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أحداً منهم أن يجدد عقده . غير أنه أمر من كان عنده عشر نسوة أن يفارق ستاً ويبقي أربعاً ، وعليه فما خالف الشرع بعد الإسلام لا يقرون عليه كنكاح المحارم ، ومن كان عنده أكثر من أربع يختار أربعاً ويفارق ما سواهن وهكذا . وإن أسلم الرجل وبقيت المرأة على دينها فإن كانت كتابية فيبقى النكاح لأن المسلم يجوز له نكاح الكتابية ، وإن كانت وثنية انفسخ العقد ، فإن أسلمت قبل انقضاء عدتها عادت إليه بلا عقد ، وإن أسلمت بعد انتهاء العدة فلابد من عقد جديد ، وإن أسلمت المرأة وبقي الرجل على دينه فينفسخ العقد ، فإن

أسلم قبل انقضاء عدتها عادت إليه بلا عقد ، وإن تأخر إسلامه حتى انتهت العدة فلابد من عقد جديد ، ولا فرق بين وثنيٍ ولا كتابي لأنه لا يحل بقاء المسلمة عنده .

سورة الإخلاص مكية وآياتها (٤)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾

تفسير سورة الإخلاص

عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : يا محمد انسب لنا ربك ، فأنزل الله ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ السورة . رواه أحمد والترمذي وحسنه الألباني .

وعن أنسٍ رضي الله عنه قال : كان رجل من الأنصار يَؤمَهم في مسجد قُبَاء ، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح ب﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ حتى يَفرُغ منها ثم يقرأ سورة أخرى معها ، وكان يصنع ذلك في كل ركعة ، فكلَّمه أصحابه فقالوا : إنك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تُجزئُك حتى تقرأ بالأخرى ، فإما أن تقرأ بها وإما أن تدعها وتَقرأ بأخرى . فقال : ما أنا بتاركها إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت وإن كرهتم تركتكم . وكانوا يَرَونَ أنه من أفضلهم وكرهوا أن يَؤمهم غيره . فلما أتاهم النبي صلى الله عليه وسلم أخبروه الخبر ، فقال : يا فلان ، ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك وما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة ؟ قال : إني أحبها. قال (حُبك إياها أدخلك الجنة) رواه البخاري

وعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم بَعَثَ رَجُلاً عَلَى سَرِيَّةٍ ، وَكَانَ يَقْرَأُ لأَصْحَابِهِ فِي صَلاَتِهِ فَيَخْتِمُ بِ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ (سَلُوهُ لأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ) فَسَأَلُوهُ فَقَالَ لأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم (أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ) متفق عليه

وعن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه أن رجلاً سمع رَجُلا يقرأ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ يرددها ، فلما أصبح جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له وكأن الرجل يتقالّها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم (والذي نفسي بيده ، إنها لتعدل ثلث القرآن) رواه البخاري

وعن أبي سعيدٍ أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه (أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟) . فشق ذلك عليهم وقالوا : أينا يُطيق ذلك يا رسول الله ؟ فقال (الله الواحد الصمد ثلث القرآن) رواه البخاري

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (احشُدوا ، فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن) فحشد من حشد ثم خرج نبي الله صلى الله عليه وسلم فقرأ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ثم دخل فقال بعضنا لبعض : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن) إني لأرى هذا خبرًا جاء من السماء ، ثم خرج نبي الله صلى الله عليه وسلم فقال (إني قلت لكم سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، ألا إنها تعدل ثلث القرآن) رواه مسلم

وعن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (من قرأ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ حتى يختمها عشر مرات بنى الله له قصرًا في الجنة) فقال عمر : إذن نستكثر يا رسول الله . فقال صلى الله عليه وسلم (الله أكثر وأطيب) رواه أحمد وحسنه الألباني لشواهده في السلسلة الصحيحة .

وعن بريدة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يقول : اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد فقال (لقد سألت الله بالاسم الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب) رواه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب .

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ قل يا محمد للسائلين عن صفة الله تعالى : هو الله الواحد الذي لا شريك له في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته . المتفرد بالكمال ، المتعالي عن الأشباه والأمثال ، المتقدس عن الصاحبة والأولاد . ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ من (١١) سورة الشورى

﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ ﴾ قال بن كثير : قال عكرمة عن ابن عباس : يعني الذي يصمد الخلائق إليه في حوائجهم ومسائلهم. وقال علي بن أبي طلحة عن بن عباسٍ : هو السيد الذي قد كمل في سؤدده ، والشريف الذي قد كمل في شرفه ، والعظيم الذي قد كمل في عظمته ، والحليم الذي قد كمل في حلمه ، والعليم الذي قد كمل في علمه ، والحكيم الذي قد كمل في حكمته ، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد ، وهو الله سبحانه هذه صفته لا تنبغي إلا له ، ليس له كفء وليس

كمثله شيء ، سبحان الله الواحد القهار... وعن أبي وائل هُوَ السيدُ الَّذِي قد انْتَهَى سؤدده ... وقال الحسن وقتادة : هو الباقي بعد خلقه ... وقال الربيع بن أنس : هو الذي لم يلد ولم يولد. كأنه جعل ما بعده تفسيرًا له وهو تفسير جيد. وقال ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن المسيب ومجاهد وعبد الله بن بُريدة وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح وعطية العوفي والضحاك والسدي﴿ ٱلصَّمَدُ ﴾ الذي لا جوف له . قال سفيان عن منصور عن مجاهد ﴿ ٱلصَّمَدُ ﴾ المصمت الذي لا جوف له . وقال الشعبي : هو الذي لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب... وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني في كتاب السنة له بعد إيراده كثيرًا من هذه الأقوال في تفسير (الصمد) وكل هذه صحيحة وهي صفات ربنا عز وجل وهو الذي يُصمَد إليه في الحوائج وهو الذي قد انتهى سؤدده وهو الصمد الذي لا جوف له ولا يأكل ولا يشرب وهو الباقي بعد خلقه . وقال البيهقي نحو ذلك . انتهى. وقال البغوي : قال السدي ﴿ ٱلصَّمَدُ ﴾ هو المقصود إليه في الرغائب ، المستغاث به عند المصائب . تقول العرب : صمدت فلانًا أصمده صمْدًا – بسكون الميم – إذا قصدته ، والمقصود صمَد بفتح الميم .انتهى. قلت : وهذا هو معنى قول بن عباس : يصمد الخلائق إليه في حوائجهم . يعني يقصدونه .

﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ ﴾ لم يكن له ولد ولم يكن له والد .

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾ أي ليس له شبيه ولا مثيل ولا نظير . ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ من (١١) سورة الشورى

من دروس سورة الإخلاص :

أولاً / أن هذه السورة اختصت بصفة الرحمن فلم يذكر فيها أمرٌ آخر ، ولذلك كانت تعدل ثلث القران ، فإن القران يتضمن ثلاثة أمور :

الأمر الأول / القصص والأخبار .

والأمر الثاني / الأحكام والحلال والحرام .

والأمر الثالث / التوحيد وأوصاف الرحمن فكانت هذه السورة تختصر هذا الصنف كله فإنها تضمنت توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات ففي قوله تعالى ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ أي واحدٌ في ربوبيته لا رب سواه ، وواحدٌ في ألوهيته لا شريك له ، وواحد في أسمائه وصفاته لا مثل له .

ثانياً / أن هذه السورة هي إجابة لكل من سأل عن صفة الرحمن ، وإذا حضر شياطين الجن وشياطين الإنس وأرادوا تشكيك المرء في ربه فليرجع إلى هذه السورة وليتمعن فيها جيداً فإنها تكفيه عن كل جوابٍ آخر .

ثالثاً / أن المذكور لنا هو صفة الرحمن ومعناها ، وأما الكيفية فلا يعلمها إلا الله ، ولا يجوز تمثيل صفات الله بصفات المخلوقين فإن الله لا مثل له ولا شبيه ولا نظير ، وقد جرى التنبيه في آخر السورة على هذا الأمر في قوله تعالى ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ أي لا أحد يكافئه أي لا أحد يكون مثله في صفاته وأفعاله فهو المتفرد بالكمال والعظمة والكبرياء.

سورة الفلق مدنية وآياتها (٥)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾

تفسير سورة الفلق

عن زر بنُ حُبَيش قال : قلت لأبي بن كعب : إن ابن مسعود كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه ؟ فقال : أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرني أن جبريل عليه السلام قال له ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ ﴾ فقلتها ، قال ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ ﴾ فقلتها. فنحن نقول ما قال النبي صلى الله عليه وسلم . رواه أحمد ورواه البخاري عن زرٍ بلفظ : سألت أبي بن كعب فقلت : أبا المنذر ، إن أخاك ابن مسعود يقول كذا وكذا. فقال : إني سألت النبي صلى الله عليه وسلم فقال (قيل لي ، فقلت) فنحن نقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم (أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتِ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ رواه مسلم وروى النسائي عن عقبة : بينا أقود برسول الله صلى الله عليه وسلم في نقبٍ من تلك النقاب إذ قال ألا تركب يا عقبة فأجللت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أركب مركب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال ألا تركب يا عقبة فأشفقت أن يكون معصية فنزل وركبت هنيهةً ونزلت وركب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم

قال ألا أعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس فأقرأني ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ فأقيمت الصلاة فتقدم فقرأ بهما ثم مر بي فقال كيف رأيت يا عقبة بن عامر اقرأ بهما كلما نمت وقمت .

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه كُل ليلةٍ جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه ، وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات . رواه البخاري

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم كَانَ إِذَا اشْتَكَى يَقْرَأُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ وَيَنْفُثُ فَلَمَّا اشْتَدَّ وَجَعُهُ كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَيْهِ وَأَمْسَحُ بِيَدِهِ رَجَاءَ بَرَكَتِهَا . متفق عليه .

وعَنْ عروة عن عَائِشَةَ قَالَتْ : سُحِرَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم حَتَّى إِنَّهُ لَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا فَعَلَهُ ، حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ وَهْوَ عِنْدِي دَعَا اللَّهَ وَدَعَاهُ ثُمَّ قَالَ (أَشَعَرْتِ يَا عَائِشَةُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ) قُلْتُ : وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ (جَاءَنِي رَجُلاَنِ فَجَلَسَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ مَا وَجَعُ الرَّجُلِ قَالَ مَطْبُوبٌ قَالَ وَمَنْ طَبَّهُ قَالَ لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَمِ الْيَهُودِيُّ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ قَالَ فِيمَا ذَا قَالَ فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ وَجُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرٍ قَالَ فَأَيْنَ هُوَ قَالَ فِي بِئْرِ ذِي أَرْوَانَ) قَال فَذَهَبَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فِي أُنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى الْبِئْرِ فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَعَلَيْهَا نَخْلٌ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى عَائِشَةَ فَقَالَ (وَاللَّهِ لَكَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الْحِنَّاءِ ، وَلَكَأَنَّ نَخْلَهَا رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ) قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ أَفَأَخْرَجْتَهُ قَالَ : لاَ ، أَمَّا أَنَا فَقَدْ عَافَانِي اللَّهُ وَشَفَانِي وَخَشِيتُ أَنْ أُثَوِّرَ عَلَى النَّاسِ مِنْهُ شَرًّا وَأَمَرَ بِهَا فَدُفِنَتْ . رواه البخاري ومسلم

وقال العيني : ذكر في (تفسير النسفي) عن ابن عباس وعائشة رضي الله تعالى عنهم : كان غلامٌ من اليهود يخدم رسول الله فدنت إليه اليهود فلم يزالوا به حتى أخذ مشاطة رأس النبي وعدة أسنان من مشطه فأعطاها اليهود فسحروه فيها وكان الذي تولى ذلك رجل منهم يقال له لبيد بن أعصم ثم دسها في بئر لبني زريق يقال لها ذروان ويقال أروان فمرض رسول الله وانتشر شعر رأسه ولبث ستة أشهر يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن ، وجعل يذوب ولا يدري ما عراه ، ويخيل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله ، فبينا هو نائم إذ أتاه ملكان فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه ، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه : ما بال الرجل؟ قال : طب . قال : وما طب؟ قال : سحر . قال : ومن سحره؟ قال : لبيد بن الأعصم اليهودي . قال : وبم طبه؟ قال : بمشط وبمشاطة . قال : وأين هو؟ قال : في جف طلعةٍ تحت راعوفةٍ في بئر ذروان . والجف قشر الطلع ، والراعوفة صخرة تترك في أسفل البئر إذا حفرت فإذا أرادوا تنقية البئر جلس المنقي عليها ، فانتبه رسول الله مذعوراً فقال (يا عائشة أما شعرت أن الله تعالى أخبرني بدائي) ثم بعث رسول الله علياً والزبير وعمار بن ياسر رضي الله تعالى عنهم فنزحوا ماء تلك البئر وكأنه نقاعة الحناء ثم رفعوا الصخرة وأخرجوا الجف فإذا فيه مشاطة رأسه وأسنان من مشطه وإذا وتر معقد فيه إحدى عشرة عقدة مغرزة بالإبر فأنزل الله تعالى المعوذتين فجعل كلما قرأ آيةً انحلت عقدة . ووجد رسول الله خفةً حين انحلت العقدة الأخيرة ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما نشط من عقال ، وجعل جبريل عليه الصلاة والسلام يقول : بسم الله أرقيك من كل شيءٍ يؤذيك من عين وحاسد والله يشفيك . فقالوا : يا رسول الله أفلا نأخذ الخبيث فنقتله ؟ فقال : أما أنا فقد شفاني الله

وأكره أن أثير على الناس شراً . انتهى. قال بن حجر : وفي حديث زيد بن أرقم فما ذكر رسول الله صلى الله عليه و سلم لذلك اليهودي شيئاً مما صنع به ولا رآه في وجهه . انتهى. وهذا من كريم أخلاقه وعظيم شمائله صلى الله عليه وسلم .

وقال السيوطي : أخرج ابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن عائشة قالت : كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم غلام يهودي يخدمه يقال له لبيد بن أعصم فلم تزل به يهود حتى سحر النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم وكان النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم يذوب ولا يدري ما وجعه فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة نائم إذا أتاه ملكان فجلس أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه فقال الذي عند رأسه للذي عند رجليه : ما وجعه قال : مطبوب ، قال : من طبه قال : لبيد بن أصم قال : بم طبه . قال : بمشط ومشاطة وجف طلعة ذكر بذي أروان وهي تحت راعوفة البئر ، فلما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غدا ومعه أصحابه إلى البئر ، فنزل رجلٌ فاستخرج جف طلعةٍ من تحب الراعوفة ، فإذا فيها مشط رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن مشاطة رأسه ، وإذا تمثالٌ من شمع تمثال رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا فيها أبرٌ مغروزة وإذا وترٌ فيه إحدى عشرة عقدة فأتاه جبريل بالمعوذتين فقال : يا محمد ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ وحل عقدة ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ وحل عقده حتى فرغ منها . انتهى.

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ ﴾ قل يا محمد ﴿ أَعُوذُ ﴾ أي أستجير وأعتصم ﴿ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ رب الفلق هو الله جل في علاه والفلق هو الصبح في قول جابر بن عبد الله وبن عباس والحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة وبن زيد ، وقيل سجنٌ في جهنم وهو مرويٌ عن بن عباسٍ والسدي والأول أرجح وعليه الأكثر والعرب تقول : هو أبين من فلق الصبح . وقال تعالى ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا ﴾ من (٩٦) سورة الأنعام قال بن كثير : قال ابن جرير: والصواب القول الأول ، أنه فلق الصبح . وهذا هو الصحيح ، وهو اختيار البخاري رحمه الله في صحيحه . انتهى.

﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ ﴾ أي أعوذ بالله من شر المخلوقات جميعاً أو من شر المخلوقات التي فيها شر .

﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ ﴾ أي الليل إذا غطى الكون بظلامه . قال بن عباس : الليل إذا أقبل . وقال الحسن : الليل إذا أظلم . وقال قتادة : الليل إذا دخل . وقال محمد بن كعب : الليل إذا وجب . والمعنى واحد كقوله تعالى ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾ من (٧٨) سورة الإسراء أي من صلاة الظهر حين الزوال إلى صلاة العشاء حين يظلم الليل ويغيب الشفق . وإنما يستعاذ بالله من الليل إذا أظلم لأنه حينئذٍ تخرج المخلوقات الشريرة كالحيات والعقارب والسباع والجآن وشريري الإنس الذين يتحينون الظلمة للسرقات وفعل الجرائم . فيستعيذ المؤمن بربه جل وعلا من الظلمة وما يكون فيها من الشرور . وقيل هو كوكب ، ذكره الطبري عن أبي هريرة رضي الله عنه . وعن بن زيدٍ أنه قال : كانت العرب تقول : الغاسق : سقوط الثريا ، وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها وترتفع عند طلوعها . وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيدها فأشار بها إلى القمر فقال (يا عائشة ! استعيذي بالله من شر هذا فإن هذا هو الغاسق إذا وقب) رواه أحمد والترمذي والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٧٩١٦) وقال الطبري : لم يخصص بعض ذلك بل عمّ الأمر بذلك ، فكلّ

غاسقٍ فإنه صلى الله عليه وسلم كان يُؤمر بالاستعاذة من شره إذا وقب .انتهى. وإنما تظهر وتتضح الكواكب والقمر في الليل إذا دخل ، وحينئذٍ فالقول الأول يشمل جميع الأقوال .

﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ ﴾ السواحر يعقدن عقداً وينفثن فيها برقية السحر ليقع على المسحور بإذن الله القدري الكوني كما قال تعالى ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ من (١٠٢) سورة البقرة فيستعاذ بالله من شرهن وشر سحرهن .

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾ أي أعوذ بالله من شر من كان طبعه الحسد أن يحسدني أو من شر الحاسد إذا وقع حسده علي أن يضرني . قال قتادة : من شر عينه ونفسه . وعن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه أن جبريل عليه السلام جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد اشتكيت ؟ فقال (نعم) فقال : بسم الله أرْقِيك ، من كل شيءٍ يؤذيك من شر كل نفسٍ أو عين حاسد ، الله يشفيك ، بسم الله أرقيك . رواه مسلم

من دروس سورة الفلق :

أولاً / أن الملجأ والملاذ من جميع الشرور لا يطلب إلا من الله تعالى ، ويمكن أن يستعاذ من بعض الشرور ببعض الأشياء كقتل الحية والعقرب لدفع شرها ، وكالاستعاذة بالبيوت من حر الشمس ، والاستعاذة ببعض الناس من بعض الظلمة ونحو ذلك فكل هذا جائز ، وإنما الممنوع اعتماد القلب بالكلية على غير الله أو الاستعاذة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله كالاستعاذة بالموتى والجن والغائبين فكل هذا من الشرك الأكبر .

ثانياً / أن السحرة يعقدون عقداً وينفثون فيها برقية السحر وهي استعاناتٌ بالشياطين وشركٌ برب العالمين ، ولذلك نص العلماء على أنه يشترط في الراقي الصلاح حتى لا يكون من السحرة ، ويشترط في الرقية أن تكون بالكتاب والسنة ، وأن تكون باللغة العربية ، وأن تكون بكلامٍ مفهوم لا باطل فيه ، لئلا تختلط بالرقية الشيطانية .

ثالثاً / أن الحسد ممقوت ، وأن الحاسد شريرٌ يستعاذ بالله من شره . قال صلى الله عليه وسلم (لا تحاسدوا) متفق عليه وقال صلى الله عليه وسلم (دب إليكم داء الأمم قبلكم : الحسد والبغضاء ، هي الحالقة لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين ، والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أفلا أنبئكم بما يثبت ذاكم لكم ، أفشوا السلام بينكم) رواه أحمد والترمذي وحسنه الألباني والحسد هو أول معصيةٍ عصي الله بها فإنه ما منع إبليس من السجود لآدم إلا الكبر والحسد ، وكذلك هو الذي منع سادات الكفار من الاستجابة للأنبياء . وقال صلى الله عليه وسلم (إياكم والحسد ، فإن الحسد يأكل الحسنات

كما تأكل النار الحطب) رواه أبو داود وبن ماجه وضعفه الألباني في ضعيف الجامع حديث رقم (٢١٩٧) ورقم (٢٧٨١) وعن الزهري قال أخبرني أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كنا جلوسا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة) فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه قد تعلق نعليه في يده الشمال فلما كان الغد قال النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى فلما كان اليوم الثالث قال النبي صلى الله عليه وسلم مثل مقالته أيضاً فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى فلما قام النبي صلى الله عليه و سلم تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال : إني لاحيت أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً فان رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت قال نعم قال أنس وكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا تعار وتقلب على فراشه ذكر الله عز و جل وكبر حتى يقوم لصلاة الفجر قال عبد الله غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً فلما مضت الثلاث ليال وكدت أن احتقر عمله قلت يا عبد الله إني لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجر ثم ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لك ثلاث مرار يطلع عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنة فطلعت أنت الثلاث مرار فأردت ان آوي إليك لأنظر ما عملك فاقتدى به فلم أرك تعمل كثير عمل فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال ما هو الا ما رأيت قال فلما وليت دعاني فقال ما هو الا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً ولا أحسد أحداً على خيرٍ أعطاه الله إياه فقال عبد الله هذه التي بلغت بك وهى التي لا نطيق

. رواه أحمد وصحح إسناده شعيب الأرنؤوط . وأعله الدار قطني في العلل وبن حجر في النكت الظراف والألباني في ضعيف الترغيب والترهيب للاختلاف فيه عن الزهري فمرةً قال أخبرني أنس ومرةً قال عن أنس ومرةً قال حدثني من لا أتهم عن أنس ورجحوا وجود واسطة بين الزهري وبين أنس أولاً للتصريح بوجود الواسطة والثاني لأن الزهري قد عنعن وهو مدلس وضعفوا الحديث لجهالة الواسطة ورد بأنه قد صرح في رواية بالأخذ عن أنس فقال أخبرني أنس وهو إمامٌ ثقة يقبل حديثه إذا صرح بالتحديث وأجيب بأن في رواية التصريح بالتحديث عن أنس معمر بن راشد وهو يخطي أحياناً كما قال بن حجر . وقال الذهبي له أوهام . وقال بن رجب حديثه بالبصرة فيه اضطراب كثير وحديثه باليمن جيد . وقال يعقوب بن شيبة سماع أهل البصرة من معمر حين قدم عليهم فيه اضطراب لأن كتبه لم تكن معه . قال المنجد : وقد خالفه الجماعة عقيل بن خالد وشعيب بن أبي حمزة وإسحاق بن راشد فرووه كلهم عن الزهري عن رجل عن أنس مما يدل على أن الزهري لم يسمعه من أنس وأن بينهما رجلاً مجهولاً . انتهى .

والحسد المذموم هو الذي يكون فيه تمني زوال النعمة عن المحسود ، وأما تمني حصول مثل ما عند الغير من النعمة من غير تمني زوالها عن الغير فجائزة وتسمى الغبطة أو الحسد الممدوح ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم (لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهْوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَهْوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ) متفق عليه .

رابعاً / أن العين حق ، وأنها تصيب بالأذى بإذن الله الكوني القدري ، فقد قال صلى الله عليه وسلم (العين حق) متفق عليه وعن أسماء بنت عميس أنها قالت : يا رسول الله إن ولد جعفر تسرع إليهم العين أفأسترقي لهم ؟ قال (نعم ، فإنه لو كان شيء سابق القدر لسبقته العين) رواه أحمد والترمذي وبن ماجة وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث رقم (٥٢٨٦) والعين قد تكون من حاسد ، وقد لا تكون من حاسد ، فربما أصاب الشخص نفسه وولده وماله ومن يحب بالعين لإعجابٍ من غير تبريكٍ ولا ذكرٍ لله تعالى

.

سورة الناس مدنية وآياتها (٦)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦ ﴾

تفسير سورة الناس

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ ﴾ قل يا محمد أستجير وأعتصم وألوذ بالله رب الناس أي سيدهم ومالكهم . وأهل اللغة يقولون : رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ مالِكُه ومُسْتَحِقُّه وصاحِبُه . حتى قال بن سيده في المحكم في تفسير قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ ﴾ قال : أي ارْجِعِي إلى صاحِبِكِ الذي خَرَجْتِ مِنْهُ فادْخُلِي فِيه . انتهى .

﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ ﴾ أي من له التصرف المطلق في أمورهم كلها يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، والله جل وعلا ملك كل شيء ، وإنما خص الناس لأنهم يملكون بعض الأشياء وفيهم ملوك ، فإذا كان من فيه خاصية التملك عبيدٌ مماليك لله فغيرهم من باب أولى .

﴿ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ ﴾ أي معبودهم الحق الذي لا إله غيره ولا رب سواه ، والناس يشمل الجن والإنس ، والله جل وعلا إله العالمين ، وإنما خص الثقلين لتكليفهم بالعبادة ، فعبادتهم اختيارية وعليها الحساب ، وعبادة غيرهم اضطرارية ولا حساب عليهم .

﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ﴾ أي من شر الشيطان الذي إذا غفل العبد عن ذكر ربه وسوس له وزين له الوقوع في المعاصي والمنكرات ، وإذا ذكر العبد ربه خنس أي تأخر ورجع ولم يوسوس .

﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ ﴾ أي الشيطان الذي يدخل في قلوب الناس ويوسوس فيها ، ووسوسة الشيطان هو الدعاء إلى طاعته بكلامٍ خفيٍ يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع صوت . قاله القرطبي .

﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦ ﴾ أي أن الشيطان يوسوس للجن والإنس ، وقيل المراد أن الوسوسة تكون من شياطين الجن وتكون من شياطين الإنس ، حتى قيل : أن شياطين الجن أهون من شياطين الإنس فإنهم يخنسون عند ذكر الله وأما شياطين الإنس فلا يخنسون وإنما يستمرون في الوسوسة . كذا قيل والصحيح أنهم يخنسون كذلك إذا استمر العبد في ذكر الله تعالى ولم يلتفت إليهم أو إذا دعاهم إلى الله وخوفهم منه ، فإما أن يقبلوا النصيحة فيفلحوا أو يخنسوا ويهربوا من سماع الموعظة .

من دروس سورة الناس :

أولاً / إثبات توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات ، وأن الله تعالى هو رب الناس وملكهم وإلاههم والمتصرف في أمورهم كلها .

ثانياً / أن الشيطان لا يمنع من شره إلا الله جل وعلا ، فيستعيذ المرء بربه جل وعلا من الشيطان الرجيم أن يضله فإن للشيطان القدرة على إضلال الناس لولا حماية الله للمؤمنين كما قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾ ﴾ سورة النور وقال تعالى ﴿ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ سورة يس

ثالثاً / أن الشيطان له مقدرة على الوسوسة للجن والإنس على حدٍ سواء ، وهذه القدرة جعلها الله في الشيطان امتحاناً وابتلاءً لعباده من الجن والإنس ليرى هل تغلب في صدورهم طاعة الرحمن أم طاعة الشيطان ، فمن أطاع الرحمن وعصى الشيطان دخل الجنة ، ومن أطاع الشيطان وعصى الرحمن دخل النار . وقد ورد عن أم المؤمنين صفية بنت حيي رضي الله عنها أنها قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم معتكفاً فأتيته أزوره ليلاً فحدثته ثم قمت لأنقلب فقام معي ليقلبني فمر رجلان من الأنصار فلمَّا رأيا النبي صلى الله عليه وسلم أسرعا فقال النبي صلى الله عليه وسلم (على رسلكما إنها صفية بنت حيي) فقالا : سبحان الله يا رسول الله ، وكبر عليهما . قال (إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً أو قال شيئاً) متفق عليه

رابعاً / أن ذكر الله جل وعلا يطرد الشياطين ، فالبيوت التي يذكر فيها الله جل وعلا تبتعد عنها الشياطين ولا تقربها ، والبيوت التي لا يذكر الله فيها تعمرها الشياطين .

خامساً / أنه يوجد شياطينٌ من الإنس يوسوسون للناس ويزينون لهم الباطل والوقوع في المنكرات ، وأن خطرهم على الناس أشد من خطر شياطين الجن ، لأن كثيراً من الناس لا يدري أنهم أعداء له حتى يقع في المصيدة ، وكم أضل دعاة الضلالة من أهل الكفر والبدع من الناس وأوقعوهم في الكفر أو البدع وهذا مشاهدٌ ملموس .

تم تفسير جزء عم بتاريخ (٣٠ / ٥ / ١٤٤١هـ) والحمد لله رب العالمين .